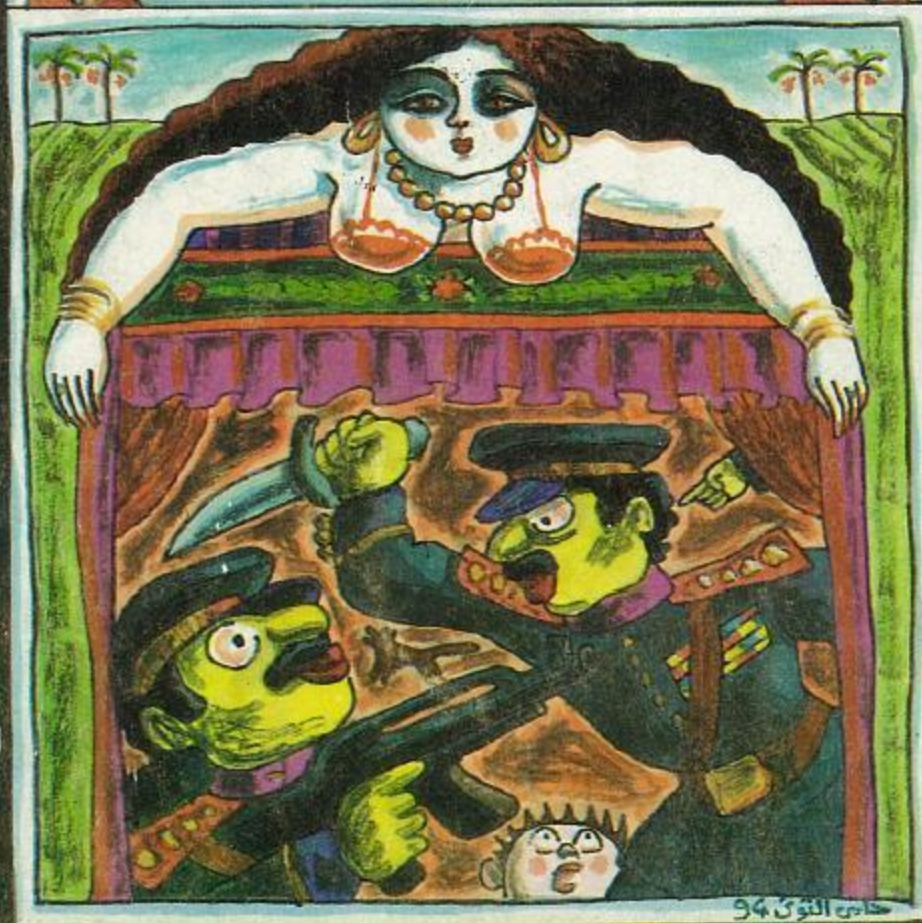




جميل عطية ابراهيم



<http://abuabdoalbagl.blogspot.com>

أبو عبدو البغل



# أبو عبدو البغل

## ١٩٨١



بقلم :

جميل عطية إبراهيم



دار الهلال

الغلاف للفنان :  
حلمي التونى

## تمهيد

عزبة عويس غارقة فى الهم ، وصفار شمس العصارى كالذهب المزيف  
"الفالصو" يثير الشجن . خفت حركة البيع والشراء فى سوق الخميس  
وتفرق الخلق فى حلقات ودوائر يستأنسون بمضغ الكلمات وتكرار السلام  
وشد الأيادى .

حلقة من الخلق حول مقال الأنفار العائد من دول الخليج ليجمع الأنفار  
ويشحنهم الى العراق والسعودية والكويت وليبيا وكله بثمنه . حلقة اخرى  
حول صندوق الدنيا لسماع الحكاية المعادة "اللى بنى مصر كان فى  
الأصل حلوانى" .

منذ مصرع السادات - رحمه الله وغفر له - والراوى يعدل فى الحكاية  
تعديلات بسيطة لا تتوقف عندها الأذان وقد شغلتهم الصور المتلاحقة  
الجريان .

هى صفحات من التاريخ يفرها الزمان وعزبة عويس على حالها والراوى  
علمته مصائب الأيام الحرص فى الكلام فاسقط اسم السادات لعدة أسابيع  
ثم عاد واستبدله باسم الرئيس حسنى مبارك .

\* \* \*

ملك الأرض من صغار المزارعين تجمعهم حلقة خاصة . تراودهم  
احلام تقسيم الأرض لإقامة مبان عليها بعد تجريفها . طحتهم الأزمة  
الاقتصادية ولم تعد فلاحه الأرض تدر عائدا يشبعهم بعد هجرة الفلاحين  
وارتفاع اسعار البذور والسماد ومغالطات كاتب الجمعية وارتفاع ديون بنك  
التسليف وشراة الدودة .

من فاته قطار السفر جرف الأرض وباع طينها الأحمر - خلسة - لقمانن الطوب ، وانتظر فرج الله ، ومن عاد سليما من هناك ، اشترى الأقدنة ليدق الخوازيق فيها ، معلنا عن تبويرها وخرابها ، حتى انتشرت الأعمدة الأسمنتية الواقعة في الطل ، واصبحت كشواهد القبور .

هي حركة دوارة ، بيوع بعقود ابتدائية بين الأهالي ، في انتظار الفرج ، والفرج هو تجريف الأرض وتبويرها ، وأدخالها في كردون المدينة وبناء المساكن عليها .

كلمة "التقسيم" اصبحت هي المارد الجنى في حكاية صندوق الدنيا الذي يجلب الثراء لمن يفك عثرته وينقذه من القمم .

حوض خالة بهانة دخل التقسيم . حوض ابوسريع خرج من التقسيم . والرد الجاهز على الشفاه : يسمع من "بك" ربنا ، أو "قال الله ولا فالك" .

ولد ابوجعفر الغفير السابق للعزبة أتى بالخريطة من الجيزة ، خريطة مختومة . وترتفع وتنخفض الأسعار وفقا لهذه الخريطة المزعومة .

في كل سوق تظهر خريطة جديدة معدلة ، ومن امتك خريطة أو جزءا منها ، ظهر وكأنه امتك خزانة بنك ، وباع بسعر اعلى ، ومن فاته الحصول على واحدة ، تناول العربون . اعطى كلمة ، وأجل التنفيذ حتى تتضح الأمور .

من يمتلك خريطة مخالفة ، يشكك في خرائط الآخرين ، ولد ابوجعفر ، ملعون ، ويدعى انه يمتلك اوراق المشروع بأكمله .

اوراق الأرض وعقود الشهر العقارى تخبأ في الدور ولا يكشف عنها ، فهذه صكوك الثراء الموعود ، وتجرى الكلمات على الالسنه ، مسبوقه وملحوقه بإن شاء الله . فرجه قريب . على عيني .

وظلت حركة البيع والشراء راكدة ومحصورة بين الأقارب . أرض فلان اخذها ولد فلان زوج ابنته المسافر الى الكويت . أرض عويضة اخذها ولد صميده وكتب على ابنته الصغرى . أرض عكاشة بيعت لأولاد عمومته .

وفجأة دخل الأعراب حلبة الشراء . افندية وبكوات يأتون بسيارات طلبا للشراء واقامة مشروعات .

اولئك القادمون من البندر لا يعرفون الكلمة ، ولا يعترفون بقيمة العائلات ، يطلبون الأوراق لفحصها قبل الكلام ، ويأتون ايضا وفى صحبتهم المحامون .

خرجت عقود الأرض الملفوفة فى اوراق جرائد ، ومعها انطلقت اعاصير الغضب المكتوم بين العائلات ، واصبحت فضائح الجدود على الشفاه ، فهذا أكل أرض أخيه ، وهذا سرق حق اخته المطلقة ، وحلت فروع من العائلات انقطعت صلتها بالعزبة تطالب بحقها المهضوم .

\* \* \*

يقول الراوى :

- ياسادة ياكرام . اصل الحكاية اللي بنى مصر كان فى الأصل حلوانى . الأمير بهريز بن شهرمان اصطاد القرد المسحور بسهم مسموم فى ساعة معلومة من نهار ميمون فلما فتح بطنه واخرج مصاريه ليحنطه ويعلقه على باب قصره فى فم الخليج كعادة اهل زمان . خرج له ماردي جنى وخر ساجدا بين يديه قائلا :

- انقذتنى من العذاب يا ابن آدم ، "شبيك لبيك عبدك وملك يديك" .

قال له الأمير بهريز بن شهرمان :

- أتنى بكنوز الفراعنة .

أجابه المارد ، قال :

- كنوز الفراعنة مسحورة - أتىك بكنوز لا تقنى . مجوهرات بعدد النجوم ونقود ذهبية بعدد رمال شواطئ البحار والصحارى . اصعد الى القلعة واقتل السلطان وتسلطن .

يصفق البنات والصبيان .

\* \* \*

منذ الهوجة التي حلت بعزبة عويس بسبب بيع الأرض وقد قلت

الأشغال وكثر الكلام وانتشرت الحواديت ، يتجمع الفلاحون فى السوق بحثا عن قطعة لحم وحزمة جرجير واربع بيضات بشق النفس . اما الزبد والجبن القريش فقد اختفيا وحل محلهما الزبد والجبن الدانماركيين .

اهالى عزبة عويس اصبحوا يتسوقون حاجياتهم من سقارة والبدرشين وابوالنمرس ، وفى الرايحة والجاية يلعنون هذا الزمان . عيونهم على مكتب البريد لتلقى الحوالات من الأولاد الذين يطفحون "الكوتة" فى بلاد النفط الغنية ، النقود جرت فى ايديهم ، وعزت عليهم اللقمة .

اولئك الذين مد الله فى اعمارهم يتحسرون على ايام كانت فيها عزبة عويس تستعد لإقامة مشروع لتعليب الخضراوات من كثرتها ويترحمون على اللواء عويس وايامه .

كانت المانجو تباع هنا بالكوم والخضراوات بـ "الشروة" .

\* \* \*

شاعت موضة بين التجار ، تحويل دكاكينهم الطينية المقامة على حافة الطريق وحول ارض السوق الواسعة الى بوتيكات ، تباع فيها الحلوى والتمائيل الى السياح ويجرى فيها تغيير العملة سرا ، وسيد العملات هو الدولار .

بوتيكات توجد بها سجاثر وزجاجات كوكاكولا لكنها خالية من رغيف الخبز ، والجبن والفول والطعمية .

وتكفلت العجائز بسد حاجات العزبة . يفلحن الأرض الخرية بزراعة الجرجير والخس ويربين الدجاجات والماعز ويحلبن البقر . هى اركان صغيرة من الأرض يحافظن على خضرتها ويشققين فى سبيلها . ويبعن خيرها فى سوق الخميس .

ذهب المتعلمون الى المدينة ، وغاب الرجال فى بلاد النفط ، وبقي الجدود والآباء يلوكون حلم التقسيم والرحيل الى البندر .

سياحة . انفتاح . تاكسى بالنفر . تحويل عملة . تأشيرة دخول الى

السعودية . الى الكويت . توظيف الاموال . احلام كالذهب الفالصوفى  
شمس العصارى التى تفرق السوق .

\* \* \*

لا يعرف احد على وجه الدقة متى حل عبدالله صابر بعزبة عويس . هو  
رجل سمين . كرشه امامه . ووجهه عريض مفلطح كرفيف العيش . وعلى  
خده شامة سوداء كبيرة . عيناه واسعتان مستديرتان وحدقتاه لا تستقران  
فى موضع ثابت ، نظراته ليست زائفة او قلقة ، لكنه يقرأ صفحة ما يحيط  
به وما يمر به قراءة واعية .

عبدالله صابر ضخم البنية واذا سار حرك ذراعيه مطوحا بهما واهتز  
جسده يمينا ويسارا ، وملابسه الواسعة تجعله يسير منقوخا ، فرجل  
بنظونه تكفى خمسة اشخاص ، وقميصه يتهدل دائما على بطنه البارز الى  
الامام اما الجاكت فهى دائما طويلة وواسعة .

اذا جلس عبدالله صابر فى مقهى ابتعد عن الكراسى الهشة واختار له  
دكة خشبية ليفرد عليها جسده بعد أن يزودها الجرسونات بالوسائد . فاذا  
استقر فى جلسته وطابت له القعدة ، بدأ الكلام . وحتى تطيب جلسته لا بد  
له من كوب شاي صغير بالنعناع ، واذا تعذر النعناع ، لا بد من الليمون ،  
ومع كوب الشاي ، عدة ادوار من كراسى المعسل المعثير . ولا يبدأ  
صاحبنا الكلام الا بعد الانتهاء من شرب الشاي وتدخين المعسل ، فهذه  
هى الاصول ، فعيب على الرجل ان يتحدث الى آخرين وفى فمه شيشة ،  
ينفث منها الدخان فى وجوههم .

مزاج عبدالله صابر ينصلح بعد نصف ساعة ، حيث يدخن الشيشة على  
مهل كما انه يرشف الشاي باردا ، يطلبه ساخنا ، ويرشفه بهدوء باردا ،  
ومن حين الى آخر يحل عليه مزارع او مالك طالبا النصيحة ، فلا يبخل عليه  
عبدالله صابر بكلمة طيبة .

ولما ينتهى عبدالله صابر من الشاي والشيشة تكون الجلسة قد غصت  
بالصبيان والبنات الذين يجلسون على الأرض ويقفون حوله فى دوائر ،



الصغار فى الأمام والكبار فى الخلف ، فى نظام وهدوء ، فإذا علت اصوات ، حرك الخيرزانة الطويلة فى الهواء ، تناولها وهزها .

يسأل عبدالله صابر من يراه على مقربة منه ، قائلاً :  
- وقفنا فىن ياوله فى المرة الماضية ؟

تأتيه الإجابة على الفور :

- نابليون فى جزيرة سانت هيلانة .

يقول عبدالله صابر :

- طيب .

يبدأ عبدالله صابر الحكاية ، نابليون فى الجزيرة ، بعد أن اعتقله الإنجليز ، مؤامرات دس السم له ، حوض الأسماك الوحيد الذى يرقبه . وكيف يرى نفسه ؟ سمكة خرجت من المياه ، لكنها لم تمت بعد ، كيف يفكر فى الهروب ؟ وإعلان الحرب على الإنجليز مرة أخرى ، سبحان المعز المذل يا أولاد ، وإذا كانت النفوس كبارا ، تعبت فى مرادها الأجسام .

حكاية وراء حكاية . وكلها حكايات مليئة بالصراعات والهزائم وكذلك الانتصارات ، والخيانة فيها لها دور كبير . صراع النبلاء والقساوسة ولجنة الأمن العام . الجيروند واليعاقبة وإعدامات دانتون وروبسبير ومارا وسانت جوست على المقصلة .

ومن حين الى آخر عودة الى حكم بروسيا وصراعها مع النمسا وموقف الإنجليز المراوغ من الثورة ، وفى كل حقبة ، شعار : الحرية . المساواة . الإخاء .

الراوى هنا - عبدالله صابر - يتوقف عند الوصف الدقيق للجو ودقات الطبول وهتافات الناس وقول الخطباء ، ولا بأس من اشارات الى الف ليلة وليلة ، ومقتل شجرة الدر ، وصراع الخلفاء ، وبيت من شعر من هنا ومن هناك . وإذا سئل عن هذا الخط ، قال لمحدثه :  
- متطلبات فن الحكى ياوله .

ساعة كاملة يقضيها فى الخروج من حكاية للدخول فى حكاية اخرى  
تلق بذيها فإذا انقضت الساعة توقف عن الحكى كما تتوقف شهرزاد عند  
صياح الديك . قال :

- انتهى الدرس .

دون نقاش يتفرق الصبيان والبنات فى حلقات بعيدا عن جلسته ، وهنا  
يطلب لنفسه كوبا آخر من الشاى ، وشيشة .

أما من تطاوله نفسه على البقاء ، فنصبيه لسعة خفيفة من الخيرزاة  
الطويلة ، وجذب الآخرين له بعيدا عن الأستاذ . فهذه هى الطقوس الواجبة  
الأداء ، فبعد انصراف الصغار من الصبيان والبنات ، يأتى طلبة المعهد  
الزراعى بعزبة عويس ليس لسماع حكايات ، ولكن فى جمعيتهم تساؤلات ،  
يستمع اليها عبدالله صابر ، ولا يرد عليها الا بتساؤلات اخرى أشد  
صعوبة ، فهو يقول لهم دوما :

- جمعيتى خالية يا اولاد من الإجابات . هى تساؤلات نظرحها بعضنا على  
بعض حتى نعثر على حكيم يفتح أعيننا على الحقيقة .

ويقدم له واحد من الطلبة مسودة مسرحية كتبها ، فيتناولها عبدالله  
صابر ، فرحا بها ، يفر صفحاتها ، يقرأ شيئا منها ، وفجأة يعلن غضبه على  
صاحبها ، يقول :

- اين الإهداء ياوله ؟ اكتب الإهداء والتاريخ . هذه أصول يعرفها كبار  
الكتاب ياوله .

ينكمش الطالب فى جلده يصمت ، ويتناول القلم ، ويكتب شيئا .

يتناول عبدالله صابر المسرحية ، ويطليل النظر فى الإهداء ، وبعدها  
يقول فرحا :

- كاتب كبير باذن الله ياوله . الخطاب بيان من عنوانه ، والعنوان جميل  
"حكاية الخالة بهانة" .

ينشغل الأستاذ برشفة شاى ، وبعدها يشير اليه ان يقترب منه ،  
ويفسح له مكانا ليجلس إلى جانبه على الدكة ، قائلا :

- تعال . تعال .

يدفعه الطلاب بينما يتعثر المؤلف فى جلبابه الواسع ويتخذ له ركنا ،  
وينكمش فيه ، خوفا من أن تنزل فجأة على رأسه عشرات الأسئلة .

ينشغل عبدالله صابر بزوادته . يسأل :

- فىن الزوادة والسبت ؟

تأتى الإجابة على الفور :

- وصلت الدار يا أستاذ .

يسأل عبدالله صابر :

- كله تمام ؟

تأتى الإجابة :

- تمام يا أستاذ .

هى احتياجات المعيشة اليومية من قطعة لحم ، وخضراوات ، وبصل ،  
وثوم وبطاطس ، وعيش ناشف مرحرح ، وجبن قريش ، وبيض ، يكلف طلبة  
المعهد الزراعى بشرائها كل اسبوع ، ووضعها فى الدار .

احتياجات بسيطة ، كيلو ونصف من اللحم يضعه فى ثلاثة صغيرة ،  
ويكفيه طوال الأسبوع ، وإذا احتاج الى مزيد وسط الأسبوع اشترى فرخة  
صاحبة ليسلقها ويشرب شوربتها .

طلبة وطلبات عزبة عويس كلهم ابناءؤه ، درسهم وعلمهم ، طوال رحلة  
عمره ، ومن لم يلحقه منهم فى فصول التعليم ، استمع إليه وهو يروى لهم  
الحكايات على المقاهى .

رحلة حياة ، عجيبة وغريبة ، ويتقبلها عبدالله صابر ببسمة هادئة ، دار  
على القطر المصرى مديرية مديرية ، مغضوبا عليه ، وفى بعض الأحيان  
مطرودا ، وكان يتقبل نصيبه راضيا ، لم يرفع شكوى ، ولم يحتك بمسئول .

فى عام ٥٢ لما قامت الثورة فى بر مصر ، كان مدرسا فى روضة اطفال  
فى شارع الهرم ، بعد نقله وتخفيض درجته ، وكان مدرسا فى مدرسة

## السعيدية الثانية :

قال له مدير المنطقة التعليمية بالجيزة :

- أنت سبب المظاهرات ضد الملك وتلك الفوضى الضارية فى البلد .

سأله عبدالله صابر :

- كيف ياسعادة المدير ؟

أجاب الرجل قائلاً :

- تروى لهم حكايات مثيرة . ولا تكف عن ذكر نابليون .

قال عبدالله صابر :

- اسهل على الطلبة دراسة رواية "قصة مدينتين" لديكنز .

اجاب مدير المنطقة التعليمية فى خبث قائلاً :

- ديكنز يسخر من الثورة الفرنسية يااستاذ ، تعصبه الإنجليزى ضد

الثورة واضح ، هل تظن ان اساطين التربية فى وزارة المعارف لا يدركون

أبعاد الأشياء والمسائل .

بعدها ، قال له :

- اذا كتت تود الحفاظ على لقمة العيش ، احك لهم شيئاً عن امجاد

جلالة الملك فاروق ، خليفة المسلمين ، واصله الطاهر .

ابتسم عبدالله صابر ، فتحركت الشامة على خده ، فاغتاظ جناب

المدير ، صرخ :

- هذه ليست وزارة النحاس باشا يااستاذ . هذه وزارة صاحب المقام

الرفيع نجيب الهلالى باشا التى تحارب الفساد ، وتضرب بيد من حديد .

عاودت عبدالله صابر ابتسامته ، قال :

- مالنا والسياسة يا جناب المدير :

هنا لم يتمالك جناب المدير اعصابه ، طلب منه مغادرة مكتبه ، وهو

يهدده بعظائم الأمور .

بعد اسبوعين صدرت حركة تنقلات ، وكان نصيب عبدالله صابر ،

مدرسة فاروق الأول لروضة الأطفال بشارع الهرم . فقال لنفسه ، فرجت .  
هذه عقوبة إدارية ، لم تمس مرتبه ، وان كانت تمنعه من الترقية لسنوات  
طويلة .

بعد شهور قامت الثورة ، وألغت الوزارة قرار النقل ، واعادته الى وظيفته  
السابقة كمدرس ثانوى ، ولكن فى قنا ، فانتقل اليها .

فى سنة ١٩٥٣ بعد عام واحد من الثورة ، تم نقله بعيدا عن قنا ، الى  
مدرسة ابتدائية هذه المرة فى الكرنك ، فقال لنفسه :  
- حسنا فعلت بك الثورة يا عبدالله صابر .

وكان النقل بأمر واحد من ضباط الجيش . فى عام ١٩٥٤ تم اعتقاله  
بدعوى تأييد محمد نجيب فى صراعه مع الرئيس جمال عبدالناصر ، ثم  
أفرج عنه ، واستقر به المقام ثانية فى التعليم ، الى عام ١٩٥٨ .

يغيب فى بعض الأحيان عبدالله صابر عن محدثيه ، يسرح ، وفى  
لحظات يرى ما مضى وغاب من أيام ، ويقول لنفسه متعجبا ، كيف  
تحملت ؟

دفاتر أيام عبدالله صابر المعلنة تسقط الفترة من عام ١٩٥٨ الى عام  
١٩٦٣ عن عمد ، لا ترد فى احاديثه ، حتى محنه الشخصية بدل تواريخها  
عن قصد ، فاصابته بالزائدة الدودية يقول انها وقعت له فى عام ١٩٦٥ ،  
وليس سنة ١٩٦٢ ، واصابة عينه اليسرى بالمياه البيضاء يزعم انها وقعت  
له فى عام ١٩٦٧ وليس سنة ١٩٦١ ، وقد اهمل فى علاجها بسبب  
الهزيمة .

فى الفترة من عام ١٩٥٨ الى عام ١٩٦٣ كان معتقلا فى الواحات .  
يعز على النفس اسقاط أحلى سنوات العمر ، وما أحلى ان يسد الواحد  
الفراغات فى حياته بالأكاذيب ، فقال لبعض معارفه ، إن سنوات عمره  
الساقطة من الحسبان هى سنوات زواجه .

ومن كثرة ما رأى وسمع ، صدق حكاية زواجه وطلاقه الوهميين .

رفاق عبدالله صابر فى العمل يتحدثون اليه باعتباره واحدا من كبار رجال التعليم فى مصر ، مهما تبدلت مناصبه ، سواء كان فى مدرسة رياض اطفال أم فى مدرسة ثانوية أم فى معهد فنى .

لكنه يقول لنفسه دوما ، ثلاثون عاما فى التعليم ، ولم اصنع رجالا ، واكتفيت ببذر بذور ، كنت ادور على المدارس ، كعمال التراهيل ، وفى المدرسة الواحدة كنت ابدل الفصول اكثر من مرة فى العام ، غير ان تلاميذه يسعون اليه ويقبلون عليه ، اينما ذهب ، واينما حل . غير ان طرفا من اللعنة التى اصابته لحقت بتلاميذه أيضا ، وليس من بينهم مسئول كبير أو وزير أو وكيل وزارة ، وانما هم ملح الأرض فى مواقعهم ، عرف معظمهم السجن ، وان عملوا بالصحف فى الصفحات الخلفية ، وان التحقوا بالجيش فمن أوائل الشهداء .

يدخن عبدالله صابر الشيعة ، ويرشف الشاي ، ويفيق من خوابه ، يقول للجالس الى جواره على الدكة :

- هه . حكايات خالة بهانة . يوسف ادريس جديد ياوله .

وبعدا مباشرة يقول فى سذاجة .

- اعظم كاتب مسرحى عرفته البشرية يا أولاد هو الشيخ زبير . مسرحية عطالله هى اجمل المسرحيات .

من اعتاد على جلساته من الطلبة ينقسم ضاحكا ، ومن كان غريبا عليها بحث فى جعبته عن مؤلف بهذا الاسم فلا يجد ، ويزداد انكماش صاحب "حكايات الخالة بهانة" ، ويصمت منتظرا الفرج .

يلتفت اليه ، يقول :

- اسمع يا ابنى . اذهب الى المدرسة التجارية قرب شركة "ماتوسيان" فى الجيزة ، اسأل على امين المكتبة الأستاذ سمعان عبدالجيد ، قل له انك من طرفى واسأله عن ترجمات الشيخ الزبير ، خذها وادرسها جيدا ، وأنا سوف اقرأ مسرحية بهانة هذا الاسبوع .

يسأله مرة اخرى ، يقول :

- الأستاذ سمعان عبدالجيد ، مدرسة التجارة بنين . قرب شركة  
ماتوسيان .

يقول الطالب :

- حاضر .

يكمل الأستاذ عبدالله صابر ، حديثه :

- ما فلع من كتب للمسرح قبل قراءة وليام شكسبير ، وما نجح من كتب  
للمسرح قبل دراسة سوفوكليس وصحبه ، واحلى الترجمات ترجمة خليل  
مطران شاعر القطرين وترجمة طه حسين .

يضيف قائلا :

- شكسبير يا اولاد اسميناه الشيخ زبير منعا للنسيان ، وصاحبنا  
سوفوكليس ؟

يرد حمادة ، قائلا :

- اسميناه اتوبيس .

يقول الأستاذ عبدالله صابر ضاحكا ، وقد اعجبته القافية :  
- القافية حبكت . ولكن خبيك الله . سوفوكليس من مسرحياته اشتقت  
قواعد الكتابة المسرحية الراقية يا اولاد .

وبعدها يضيف قائلا :

- ما لكم وهذه القضايا وانتم "بتوع" زراعة ، وكفاكم معالجة الدودة .

بعدها يلتفت الى حمادة ولد ابوجعفر الغفير السابق ، والجالس كعقلة  
الصباغ على الأرض ، قائلا :

- انت مؤلف اغان . اغان هابطة من ماركة السح الدح اميو .

فيرد حمادة على الفور ، وكأنه فى انتظار تلك الفرصة ، منشدا :  
ياليل ، ياخيالى ، يامخبي ، النجمة البعيدة

رمحت ،

سبقتك ،

بدلت سوادك بياض ،  
الشمس حرقنتى ،  
عجبنى .

يهتز عبدالله صابر طربا ، يصفق :  
- شاعر والله شاعر . تعال . هنا . اجلس .

يفسح له مكانا على الدكة ، ويكمل :  
- الليل خيال . فارس على حصانه يرمح وهو يخبىء النجمة البعيدة ،  
صاحبنا عقلة الصباغ ، رمح هو ايضا الى جواره ، فانتصر عليه وسبقه ،  
لكن الليل المراوغ ، أبدل السواد بياضا ، فحرقنت الشمس صاحبنا ،  
عجبنى . صورة وراء صورة . كلها شاعرية وجميلة .

بعد فترة أضاف الأستاذ عبدالله صابر ، قائلا فى قسوة :  
- لكن الصورة كاذبة من أساسها ، فمن يخبىء النجوم الليل أم النهار ؟

يرد حمادة قائلا :  
- الليل يظهر النجوم القريبة ، اما النجمة البعيدة ، البعيدة ، فهو  
يسترها .

صفق الأستاذ عبدالله صابر ، فرحا ، قال :  
- معك حق .

أضاف بعدها ، وهو يحرك قدميه ، ويستعد للقيام ، قال :  
- مسك الختام . ليلتكم سعيدة .

يتناول الأستاذ عبدالله صابر ، مفتاح الدار من احد الطلبة ، وباقى  
النقود ، ويسأله :

- وضعت اللحم فى الثلجة وقفلتها كويس .

يتلقى الإجابة :

- نعم .

يتناول الأستاذ عبدالله صابر الخبزانة الطويلة ، ويحاسب الجرسون



على الطلبات ، ويمضى فى طريقه .

\* \* \*

ليل الشتاء طويل ، يهبط قرب السادسة ، ويقوم عبدالله صابر بجولته المسائية ، بعيدا عن مقهى الطلبة ، المواجه للمعهد الزراعى - اى قصر اللواء عويس سابقا - ويقطع الحدائق التى تفصل القصر عن العزبة ، سيرا على الأقدام .

العربات القادمة من الجيزة وشارع الهرم فى طريقها الى عزبة عويس تمر مسرعة الى جواره ، لكنه يفضل المشى فى هذه الساعة بمفرده ، وإذا تصادف وقابله مزارع أو مالك ، تبادل أطراف الحديث .

لا يعشق عبدالله صابر الوقوف طويلا عند الماضى ، كما لا يحب البكاء على الأطلال ، على الرغم من أن صناعته هى تقليب صفحات التاريخ ، فهو مشغول دائما بغرس أصابعه فى اللحظات الآتية ، واستحلابها ، وفحص رحيقها ، بعيدا عن الأوهام .

طبعه السمع ، وحبه للناس ، دفعاه الى معاشرتهم كواحد منهم ، مهما علت طبقاتهم أو انخفضت ، وحديثه الجزل ، وحبه للفكاهة ، يحبب فيه الآخرين ، ويدفعهم للقيام ، والسعى إليه .

لكنه من جانب آخر ، لا يسمح بتكليف نفسه بما لا تطيق ، ولا يذوب فى مشاكلهم وعذاباتهم ، فهناك دوما مسافة فاصلة بينه ، وبين الناس ، مثل تلك المسافة التى تفصل بين الجراح ومرضاة .

رحلة حياته ، الطويلة ، هى قصة "عزبة عويس" ، صعود وهبوط ، انتصارات وهزائم ، أوهام وحقائق ، وغاب عنها ، أكثر من ربع قرن من الزمان ، وعاد إليها ليجد نفسه فيها .

واحد وثلاثون عاما فاصلة ، وفى سنة ١٩٥٢ ، نقل الى مدرسة فاروق الأولى الابتدائية فى شارع الهرم ، على بعد سبعة كيلو مترات من عزبة عويس ، وكان جل التلاميذ والتلميذات ، من هنا .

وتعرف على آباء التلاميذ ، وربطته صداقات بهم ، خاصة عباس أبوحميدة ، وكانت ابنته حميدة ، من بينهم ، الى جانب ولد شيخ الغفر أبوجعفر الذى كان يتلقى اوامره من اللواء عويس شخصيا ، فيصادر الجرائد التى تتسلل الى العزبة ويمزقها ، ويفرض رقابة على طلبة الجامعة . اما عمدة العزبة ، حمادة أبوجبل ، فكانت حكايته معه حكاية .

بسبب معرفة عبدالله صابر بالآباء والأبناء ، يظن الناس أنه لم يرغب عن عزبة عويس ، يوما واحدا ، حقيقة الصغار صاروا الآن رجالا وامهات ، وأشرف عبدالله صابر على بلوغ الستين من عمره ، وفصلت السنين بينه وبينهم ، لمدة واحد وثلاثين عاما ، لكن وشائج المعرفة كالخيوط السحرية بينه وبين الناس .

قطع عبدالله صابر الطريق الزراعى ، واقترب من احياء العزبة القديمة ، بعد ان عبر ارض السوق ، فاقبل عليه ، قطامش شاكيا من سوء الحال ، ومتاعب البروستاتا المزمنة .

قطامش ، السكرتير الخاص اللواء عويس ، يسير الى جواره ، فى جلباب رقيق الحال ، وفوقه بلوفر رخيص .

هه . كانت أيام .

قال قطامش :

- الموت أفضل لى من هذه الحياة . البروستاتا تقتلنى . نقطة البول تعذبنى .

ومضى قطامش يروى سيرته .

كنت موظفا فى الخاصة الملكية ، وانتدبنى اللواء عويس ياوران الملك لأعمل معه كسكرتير خاص له ، ولما قامت الثورة فى سنة ١٩٥٢ ، تم فصلى واحالتى إلى المعاش ، وعملت مع اللواء عويس الى حين وفاته ، رحمه الله ، كان يرعانا جميعا ، ويجزل لنا العطاء ، ثم جرى ما جرى ، صودرت املاكه ، ومات مقهورا ، ورحلت ابنته الاميرة جويدان ، وفجأة

وجدت نفسى مشردا ، معاش صغير لا يكفى عصفورة ، لا أود شيئا غير العلاج .

فى الأسبوع الماضى ، قدم الى العزبة حمدى بك الشقيق الأصغر للواء عويس ، أقبلت عليه فصدنى عنه ، كان مشغولا مع المهندسين ، يعاين القصر الذى خرب بعد تحويله الى معهد ، والحدائق التى بارت بعد تحويلها الى أراضى الإصلاح الزراعى ، والقياسون يقيسون العزبة من النواصى الأربع وكأنهم يحزمونها ، ويودون أخذها معهم .

سأل عبدالله صابر ، قال :

- يأخذون العزبة ؟

أجاب قطامش ، قال :

- الأحكام صدرت لصالح الأميرة جويدان بأخذ اراضيها من الإصلاح ، وغدا يغلق المعهد الزراعى ، ويعود القصر الى اصحابه .

اجابه عبدالله صابر ، فى دهشة مصطنعة ، قال :

- قل كلاما آخر يارجل !!

استمر قطامش فى حديثه ، وكأنه يروى مالم يسمع به أحد فى القطر ، قال فرحا :

- يعود كل شىء الى حاله ، وتعيننى الأميرة جويدان ناظرا للعزبة ، هى ست طيبة ، وفى غاية الرقة ، نسمة هواء ، لكنها للأسف تزوجت من كرامة ولد سرحان السقا ، فغضب عليها حمدى بك .

توقف قطامش فجأة عن الحديث ، التفت اليه عبدالله صابر ، وجده يضع يديه الاثنتين على محاشمه ، فوق الجلباب الواسع ، بعدها جرى ناحية شجرة ميتة ، اختفى وراءها عدة دقائق .

عاد بعدها وهو ينظر الى اسفل ، لم يفك "زنتقه" ، ولم يحس بتلك الراحة التى تدفع بالواحد ليرفع رأسه بعد التبول .

تعاطف معه عبدالله صابر ، فى محنته ، قال :

- العلاج واجب ياخال .

استمر قطامش يروى حكايته ، قال :  
- أود كتابة مكتوب وارسله الى الأميرة جويدان . اكتب لها فيه . تشردنا  
من بعد اللواء عويس ، وحمدى بك قلبه من حجر . تصور ، لم يرد السلام  
او يمد يده لى .

قال عبدالله صابر :  
- اجل هذا الموضوع الآن ، واهتم بالعلاج ياخال .

اجاب قطامش :  
- ذهبت الشهر الماضى للأستذ مفتاح عبدالمولى ، وكيل وزارة الثقافة  
ورئيس المجلس الأعلى للثقافة ، رفض مقابلتى ، ولما انتظرتة على الباب  
الخارجى ، صرخ فى وجهى : ابتعد عنى . ابتعد عنى . أنت عندك سل .  
وأنا لا أعرفك . لا أعرفك .

قلت له فى أدب متوسلا :  
- يامفتاح بك .

صرخ فى وجهى وهو يركب السيارة :  
- امش . اياك ان تعود الى هنا .

قلت له هذه المرة :  
- حاضر يامفتاح . الله يرحم ايام زمان . والطماطم والخيار .

سأل عبدالله صابر :  
- هل كان مفتاح بك رئيس المجلس الأعلى للثقافة يزرع الطماطم  
والخيار .

ضحك قطامش ، فاشتد الالم عليه ، وتوقف عن المشى ، بعدها ، قال :  
- مفتاح دخل الخاصة الملكية معى ، كاتب حسابات فى المطبخ ، وكان  
يثير مشاكل مع الموردين ، فاذا كانت اقة الطماطم بتعريفة ، ذهب

واشترها مدعيا بأنها بأربعة مليمات ، حتى أعد له الموردون كميناً ، وكانت فضيحة .

سايره عبدالله صابر ، فى حديثه ، قال :  
- ياه .

اكمل قطامش حديثه ، قال :

- بعد الثورة ، أخذته واحد من الضباط المقربين للرئيس جمال عبدالناصر ليعمل معه ، فى البيت ، وكان يعينه فى كل مؤسسة يذهب إليها ، فى البداية فى وظيفة صغيرة ، درجة ثامنة وبعدها سابعة ، حتى اصبح وكيلا لوزارة الثقافة فى عهده ، وهو لا يفهم فى الثقافة ولا يقرأ الجرائد .

بعدها ، سأل قطامش ، قال :

- الا يعنى ذلك يااستاذ ، ان كل حكامنا مفتاح أو على شاكلته ؟

ضحك عبدالله صابر ، قال :

- تموت وتتحدث فى السياسة ياقطامش .

قال قطامش محدثاً نفسه :

- أين الدكتور محمد حسين هيكل ، الدكتور طه حسين ، عباس العقاد ؟ هؤلاء كان المرحوم عويس يطلق عليهم اساطين الفكر والثقافة ، ولا يقرأ الا لهم ، وكانت تجمعه جلسات مع الدكتور محمد حسين هيكل ، والدكتور حافظ عفيفى ، ياسلام ، وفى آخر ايام الزمان يأتى مفتاح . اللهم ارحمنا .

بعدها اكمل ، قال :

- تعرف يااستاذ عبدالله ، اكثر ما يغيظنى ، اننى قلت له ، يامفتاح بك .

بعدها استدرك مخففاً على نفسه ، قال :

- على كل حال البكوية اتلغت من زمان .

نزل الليل ، وبانت انوار البيوت الشحيحة ، وبدأت الأعمدة الواقفة ولها خيالات طويلة ، عزبة عويس فى تلك الساعة تكون راقدة ، هامة ، فيما

عدا المقاهى المتناثرة حول أرض السوق الواسعة ، أو على الأطراف ، وكذلك تلك الحوانيت الخالية الا من السجائر الأجنبية .

التقسيم الذى وضعه اللواء عويس ووالده للعزبة ، كان يقسمها الى اربعة أقسام ، القصر على الطريق الزراعى المؤدى الى شارع الهرم ، ثم حدائق المانجو والبرتقال ، وبعدها عدة اقدنة خالية ، ثم العزبة الشرقية وبعدها السوق الواسع ومساحة خالية ، كان حلم آل عويس اقامة مصنع للمعلبات عليها ، ثم العزبة الغربية . وبعدها ارض اللواء عويس التى تمتد الى مشارف البدرشين والحوامدية جنوبا ، وهضبة الأهرام شرقا .

وبين تلك المساحات الضخمة التى يمتلكها آل عويس كانت هناك نتوءات صغيرة ، مبعثرة ، يمتلكها صغار المزارعين ، ونشأت بسببها صراعات بين آل عويس وبينهم فى السابق .

ولما صادرت الثورة املك آل عويس ووزعت الأراضى على الفلاحين المعدمين ، اختلط المعدمون بصغار الملاك ، ونشأت وشائج جديدة ، قلبت أوضاع العزبة - خاصة بعد غياب اللواء عويس .

مرقت سيارة الى جوارهما ، وتوقفت بعيدا عنهما فى الضوء تحت عمود النور ، قال قطامش :

- حميدة ابنة خال عباس ابوحميدة .

تأمل عبدالله صابر ، ارقام السيارة ، وماركتها ، وصمت فترة ، وطلب من صاحبه ان يتوقف ، قال :

- انتظر ياقطامش .

سأله قطامش ضاحكا :

- انتقلت اليك يااستاذ عبدالله عدوى "زنقة المية" ؟

اجابه عبدالله صابر ، وعيناه على السيارة :

- رجلى .

بعدها سأل عبدالله صابر ، فى وقفته رفيقه قال :

- تفهم فى ماركات السيارات يا قطامش ؟

أجاب الرجل على الفور ، قال :

- صنعتى .

سأل عبدالله صابر فى لهجة ساخرة ، حتى يغطى على مخاوفه التى

برزت فجأة ، قال :

- ماهى ماركة السيارة الواقفة ؟

اجابه قطامش :

- فيات ٣١ .

سأل عبدالله صابر ، قال :

- متأكد يا قطامش . فيات ٣١ ؟

اجاب قطامش فى ثقة ، وهو يضع يديه على محاشمه :

- متأكد يا استاذ .

تأمل عبدالله صابر ارقام السيارة الواقفة تحت العمود ، وقال لنفسه ،

هه يا حميدة . من شابه اباه فما ظلم ، لكن خال عباس ابو حميدة شغل

نفسه بالسياسة وليس بالاجرام .

طلب عبدالله صابر من رفيقه ، ان يفك زنقته ، وغاب قطامش عدة دقائق

فى الظلام ، وعاد مدليا رأسه ككلب هذه الجوع ، فأدرك عبدالله صابر ان

رفيقه لم يفك "زنقته" ، ودهمه الاسى والحزن ، وقد اظلمت الدنيا فى

وجهه ، ورأى ان يرحم الرجل من الحديث ولا يزوج به فى مشاغل اخرى .

قال قطامش فجأة :

- حميدة ابنة خال عباس ابوحميدة ، اخذتنى منذ ست سنوات الى

استاذ فى القصر العينى ، عدة مرات ، كانت وقتها فى السنة الاولى فى

كلية العلوم ، أخذتنى من يدى ، قالت : تعال ياخال .

صمت قطامش بعدها عن قصد ، بعدها قال :

- مسكينة . شفاهما الله .

تقدما عدة خطوات على مهل ، خارج دائرة الضوء الذى يسقط على السيارة ، تذكر قطامش شيئا ، وضع يده على رأسه ، كأنه يبعد الألم عنه ، أو كأنه ينشط ذاكرته لتسغفه بدعك فروة رأسه ، وبعدما أنزل يده ، ووضعها على محاشمه ، قال :

- عجيبة . سيارة حميدة بنت خال عباس روسى . ماركة ...

قاطم ، عبدالله صابر ، ضاحكا ، قال :

- شفيتم ياقطامش .

قال قطامش فى لهجة حازمة ، وكأنه لا يزال يعمل فى الخاصة الملكية :

- هذه ليست حميدة وهذه ليست سيارتها ، غير ان لوحة ارقام السيارة هى لوحة ارقام سيارة حميدة الروسية الصنع . فى الأمر جريمة يااستاذ عبدالله .

نزلت كلمة جريمة على رأس الأستاذ عبدالله صابر كالصاعقة ، وكان فى يده خيرزانة طويلة ، فضحك ، اما فى يده الأخرى ، فكان ممسكا بمسودة تمثيلية " حكايات الخالة بهانة " ، فشد قبضته عليها .

قال قطامش محدثا نفسه ، بصوت عال :

- منذ هوجة التقسيم ، والبلد ركبها عفريت . الناس جنت .

استمع اليه عبدالله صابر . عيناه واذناه معلقتان بالسيارة الواقفة فى دائرة الضوء الشحيح لعمود النور . قلبه يدق بشدة لسبب غامض وفى عقله تدور مخاوف كثيرة .

يسيران بعيدا عن دائرة الضوء ، لكنهما يقتربان منها فى خطوات بطيئة . ماذا يفعلان ؟ هذه ليست حميدة ابنة خال عباس ابوحמידة . انتقلت المخاوف بينهما . الليل والسكون ربيبهما الخوف . وقال قطامش شيئا ليكسر حدة السكون :

- حميدة ابنة الخال عباس اخذتنى من يدى فى السابق الى طبيب اما الآن فهى لا تمد يديها لى . والكل يقول لى ابعد عن طريقها ياقطامش .



ضرب قطامش كفا بكف ، قائلاً :

- خسارة ياخال عباس .

فجأة سأل قطامش ، قال :

- هذا كله بفعل الصهاينة وسياسات الرئيس السادات ، الله يرحمه ،  
أليس كذلك يااستاذ عبدالله ؟

اجابه عبدالله صابر ، قال :

- الله له حكمة فى شئونه ياقطامش .

تحاشى عبدالله الخوض فى السياسة أو ذكر أنور السادات وهما  
يقتربان من السيارة ، وتمنى ان ينشغل رفيقه قطامش بالأم محاشمه ويكف  
عن الثثرة دقيقة أو دقيقتين حتى يعبرا السيارة الواقعة .

قال قطامش :

- ابنة خال عباس ابوحميده تنقبت . ولد ابوجعفر شيخ الغفر السابق  
صار كالثور الهائج الذى لا يشبع من جمع النقود ، وجمع الإتاوات ، حمادة  
ابوجبل العمدة السابق الذى لا يهش ولا ينش اصبح نائباً فى البرلمان  
ورجل اعمال "ببزنس" كبيرة كبيرة .

واكمل قطامش حديثه فى أسى ، قال :

- اذا عادت الأرض للأميرة جويدان وكلفت عمها حمدى بإدارتها ، لن  
يجد احدا يعاونه فى اصلاح ما قسد ، الناس راحوا ..

تذكر قطامش شيئاً ، قال :

- ولد العمدة حمادة ابوجبل طالع لأخواله ، الخالق الناطق عباس  
ابوحميده ، ربه امه ستهم على عوايد اهلها وليس عوايد عائلة ابوجبل .

سأل عبدالله صابر ، قال :

- الا توجد أخبار من خال عباس ابوحميده ياقطامش .

اجاب قطامش وهو يضع يده على محاشمه ، قال ؟

- اخبرنى ولد العمدة ، ان خاله سوف يتوجه الى جنيف فى عمل ثم  
يعود الى مصر ، بعد سقوط اوامر الاعتقال ضده بموت السادات .

قال عبدالله صابر مضيئا :

- الخال عباس ابوحميذة زينة الرجال ، اصبح مطاردا ، يعيش فى الغربية . حقيقة يا اولاد . لا يبقى على المداود غير شر البقر .

ضحك قطامش - حتى كادت عروق بطنه تنفجر - فور سماعه كلمة البقر ، فتوقف ، ففى رأيه ان هؤلاء الناس هم البقر ، اما كبار القوم فقد ذهبوا او رحلوا عن دنيانا ، وهذه الايام هى آخر الايام . ربما امسك قطامش بكلمتين من حديث عبدالله صابر : الغربية ، والبقر . فاثارت الكلمة الاولى الشجن فى قلبه ، واضحكته الثانية الى حد الموت . اما ما قصده عبدالله صابر فقد غاب عنه بسبب انشغاله بحركة مفاجئة داخل السيارة الواقفة فتناول مسدسه واطلق رصاصة فى الهواء على الفور .

وقع ذلك كله فجأة ، فى اقل من ثانيتين ، وقرت السيارة على اثرها وضاعت على الطريق الجانبى المؤدى الى نزلة السمان .

ظل رنين الطلقة يتردد فى الخلاء وتصده بيوت العزبة البعيدة فيبدو وكأنه سلسلة من الطلقات المتلاحقة وقد انطلق نباح الكلاب .

بعد فترة ابتلع صمت الخلاء صوت الطلقة وأصداءها ورنينها . سأل عبدالله صابر رفيقه وهو يهز الخيزرانة فى يده ، قال :

- تمتلك سلاحا يا قطامش ؟

اجاب قطامش ، قال :

- مرخص . لا يفارقتى . انا سكرتير اللواء عويس ياوران الملك فاروق .

اجابه عبدالله صابر ، قال :

- طيب .

انقطع الحوار بينهما ، وغرق عبدالله صابر فى همومه .

\* \* \*

فى اليوم التالى عثر على عبدالله صابر مكوما امام باب الدار وقد اخترقت جسده عدة طعنات بخنجر من الخلف .

المسرحية فى يده اليمنى ، والمفتاح فى يده اليسرى . وتوقف فى البداية المحققون عند سبب امساكه بالمفتاح فى يده اليسرى حتى كشفت نتائج تشريح الجثمان عن اصابة يده اليمنى بألام شديدة وعجز عن تحريك الابهام والسبابة يعودان الى سنوات بعيدة . وغاب عن رفاقه معرفة سبب هذا العجز الذى يعود الى السنوات ١٩٥٨ - ١٩٦٣ .

( ١ )

شمس الماضى اشد فتكا بالروح من أحلام المستقبل الوردية التى لم  
يقدر لها التحقق بعد . هى تبرز فجأة فتعرى الحقائق وتزيل عنها تلك  
الستائر الواهية التى طرزتها الأيام والليالى .

الماضى قد يغيب لسنوات أو عقود متتالية لكنه أبدا لا يضيع وتظل  
أنبياه مغروسة فى لحم الحاضر الحى .

ثلاثون عاما فصلت كرامة سرحان السقا عن حبيبة صباه اليافع وابنه ،  
وهاى ذى تحل فجأة بمدينة جنيف فى صحبة زوجها الدكتور أحمد السيد  
باشا وابنها من كرامة الذى هربت به وهو فى بطنها جنينا من عزبة عويس ،  
فلم يره كرامة قط ولم يسمع صوته ولم يعرف تاريخ مولده .

حرمته زهية من ابنه طوال تلك السنين عن قصد ، وهاهى ذى تأتى الى  
جنيف بعد تلك السنوات الطوال لتجده فى انتظارها فى المطار .

فى تلك السنوات البعيدة ، وقبل قيام ثورة ٥٢ بعدة أشهر ، قالت له  
بصريح العبارة :

- فى بطنى نطفة من صلبك وأنا لن أسقطها .

وكان ذلك قبل أن تبين علامات الحمل عليها ، ولما قامت ثورة يوليو  
١٩٥٢ ، وبانت عليها علامات الحمل وبدأ النسوة يدققن فى جسدها  
ويرمين ويلسن بالكلام الجارح ، قالت له :

- اسمع ياكرامة . فى بطنى ولد وسوف أسميه محمد نجيب تيمنا باسم  
قائد الثورة الذى خلصنا من ظلم اللواء عويس والأميرة شويكار .

وبعدها أضافت قائلة :

- سوف أهرب بابنى الى القاهرة الواسعة . أحمله على كتفى وأدور به  
على الأبواب كالشحاتين .

ثار كرامة ابن المدارس المتعلم ووضع في يدها بضعة جنبيات وطلب منها ان تسقط الجنين ، لكنها رفضت .

وفجأة اختفت زهية عاملة الترحيلة من عزبة عويس . دبرت احوالها وغادرت العزبة فى الظهيرة .

ودار كرامة سرحان السقا كالمجنون فى دروب العزبة باحثا عنها حتى وقع فى الخية التى نصبها له فى خبث وحنكة اليوزباشى شهدي الششتاوى .

كان كرامة وقتها قد التحق بكلية الآداب ، تلميذا متفوقا ، فدأوره ولعب به اليوزباشى شهدي الششتاوى ، وأخذ يسرب له أخبار زهية بالقطارة وعلى فترات متباعدة حتى حرق دمه وطوعه لخدمته : زهية موجودة فى المعادى . زهية فى قصر الدكتور أحمد السيد باشا . زهية مخطوفة وليست حرة .

جاءته أخبارها هشة ومتناثرة كذرات الغبار التى لا قوام لها فيتابع جريه وراء السراب متفانيا فى خدمة حضرة اليوزباشى شهدي الششتاوى جازاه الله وغفر له .

ولما عصف الرئيس جمال عبدالناصر بمجموعة يوزباشية هيئة التحرير : الطحاوى وطعيمة والششتاوى وقد استقرت له الأمور بعد أزمة مارس ٥٤ كان نصيب كرامة سرحان السقا الاعتقال لمدة ثلاثة أشهر . قبض عليه وهو فى قاع طائرة متجهة الى ألمانيا فى منحة دراسية لا يستحقها دبرها له اليوزباشى شهدي الششتاوى ثمن فعاله الخسيسية الحمقاء ضد اساتذته ورفاقه . ولكن هذا قصة أخرى .

وجرت الأيام والسنون ، واكتملت ثلاثون عاما فاصلة بين كرامة سرحان السقا وبين ابنه وأمه زهية . وهى أيضا ثلاثون عاما فاصلة بين ثورة يوليو ١٩٥٢ وبين اغتيال الرئيس السادات منذ عدة أشهر .

مياه كثيرة جرت فى نهر النيل فى تلك السنوات بدلت حياة الناس وبدلت حياة كرامة سرحان السقا أيضا . غادر عزبة عويس والتحق بوزارة

الخارجية وتزوج من الأميرة جويدان ابنة اللواء عويس ياوران الملك السابق فاروق ، ويكون ثروة لا بأس بها فى عهد الرئيس السادات ، لكن شيئاً ما كان دائماً ينقصه ويحسه فى أعماقه ولا يعوضه المال أو الجاه ، وهو فقده لآبئه .

ماهى طلعة ابنى محمد نجيب ؟ هل يشبهنى أم أخذ الكثير عن أمه ؟ على كل حال زهية التى عرفتها فى صباها وفجر شبابها كانت مليحة الطلعة ، فارعة القوام ، ومهما هدتها الأحزان والكروب فابنى لا بد قد اكتسب شيئاً من حسننها فهذه هى قوانين الطبيعة الجبارة التى لا تعترف بالفقر أو القهر .

هذه هى التساؤلات التى دارت فى رأس كرامة سرحان السقا وشغلته طوال يومه ، ولكن التساؤلات الأكبر التى أخذت تطوف فى باله من حين الى آخر ، قتهز كيانه هذا ، فيهرب منها ، لماذا يلتقى بزهوة فى جنيف ، وبعد ثلاثين عاما ؟

ولا يرى اجابة الا ان المقادير قد قررت معاينته أو معاقبته على فعلته أو جريمته البشعة ، وهامى ذى ساعة العقاب قد حلت فى الغربة .

ربما اذا رأى كرامة سرحان السقا زهية فى ناد أو حفل عشاء فى القاهرة أو الإسكندرية لكان وقع صدمة اللقاء الأول أهون على روحه أما أن يلتقى بها فى جنيف ، فهنا المفارقة العجيبة ، أو الحبكة الشيطانية التى سوف تعصف به .

قال كرامة سرحان السقا لنفسه ، من الطبيعى ان التقى بزهوة هانم فى القاهرة بعد زواجها من الدكتور أحمد السيد باشا أما ان التقى بها فى جنيف بعد ثلاثين عاما فهذا هو الجحيم بعينه .

وقال كرامة لنفسه متفلسفا :

- اذا كان اغتيال الرئيس السادات هو أكبر مفاجأة لى على المستوى العام فان قدوم زهية الى جنيف غدا هو أكبر مفاجأة لى على المستوى الخاص ، واذا كان شهر أكتوبر ١٩٨١ قد شهد اغتيال أول رئيس لمصر فإن شهر ابريل ١٩٨٢ يعد لى ما هو أشد تعذيباً من الاغتيال .

أمس كان كرامة على وشك مغادرة غرفة السفير عبدالرؤف الريدى عندما سمعه يكلف زميلا له بالتوجه الى المطار غدا لاستقبال الدكتور أحمد السيد باشا وعائلته .

قال السفير عبدالرؤف الريدى :

- الدكتور أحمد السيد باشا من كبار أساتذة القانون الدولى فى العالم وعمره تجاوز الثمانين عاما وصحته لا بأس بها .

وأضاف السفير الريدى قائلا :

- كان أستاذا لى فى كلية الحقوق .

وطلب السفير العناية به وتوفير كل سبل الراحة له وإبلاغه تحياته الى حين ان يقيم له حفل عشاء فى بيته .

وأضاف السفير الريدى قائلا :

- الدكتور أحمد السيد باشا قد قدم بجواز سفر دبلوماسى فى مهمة ويبدو أنه فى حاجة الى فحوصات طبية عاجلة .

وسأل الزميل المكلف باستقبال الدكتور أحمد السيد باشا عن المرافقين ، فأجابه السفير عبدالرؤف الريدى وهو ينظر فى ورقة أمامه :  
- زوجته زهية هانم الصطفى وابنها من رجل آخر ويدعى محمد نجيب .

دون الزميل الأسماء فى ورقة وضعها فى جيبه بينما وقف كرامة وكأن سهم الله قد حل به . زهية الصطفى . محمد نجيب . اسمان ، لكنهما بالنسبة اليه يمثلان كتلة الثلج العائمة تحت الماء ، وصفحات حياته المنسية عن عمد .

التفت اليه سعادة السفير ، وسأله :

- هل تعرف الدكتور أحمد السيد باشا يكرامة ؟

أجاب كرامة وهو يخفض رأسه بكلمة واحدة :

- نعم .

أكمل السفير الريدى حديثه ، قائلا :

- الدكتور أحمد السيد باشا يذكرنى دائما بالدكتور طه حسين . ربما

لأن كلا منهما كان نابغة في مجاله وربما أيضا لعشق الدكتور أحمد للغة العربية الفصحى والحديث بها في سلامة وعذوبة لا تقل عن الدكتور طه حسين .

لم يعلق كرامة وتوجه الى مكتبه وجلس .

ارتسمت على وجه كرامة سرحان السقا تقطبية فظيعة طوال النهار بينما كانت تدهمه ضحكة مجنونة من وقت الى آخر عندما يتذكر قول سعادة السفير عبدالرؤوف الريدى لزميله : "محمد نجيب ، ابنها من رجل آخر" . ويقول لنفسه : أنا هذا الآخر .

كلمة الآخر توجع كرامة دائما ، لأسباب ضاربة بعيدا في نفسه ، ففي بعض الأحيان يتوه في مسالك الحياة ، ولا يعرف هل هو المستشار بوزارة الخارجية زوج الأميرة جويدان أم كرامة ابن سرحان سقا عزبة عويس الذى كان يدور فى العزبة بالجلباب و"البلغة" أم شخص ثالث آخر لم تتشكل ملامحه بعد ؟

على العشاء كان كرامة صامتا - كعادته - لكنه كان منقبضا الى حد الموت هذه الليلة ، وللنساء قرون استشعار خفيه ، وسألته الأميرة جويدان فى ود :

- ماذا بك ياكرامة ؟

أجابها فى قرف ظاهر :

- كتفى تؤلمنى .

قالت الأميرة بنت الامراء مهونة الأمر :

- برد الشتاء ياعزيزى .

وعادت الى صمتها فأراحتة من الحديث ، وكانت ابنتهما ابسنت تجلس فى مواجهته ، ويبدو ان صمت والديها ضايقها ، فقالت :

- دادى . سوف أدلك لك كتفك بمرهم يزيل آثار البرد .

توقف كرامة سرحان عن الطعام ، وكان الصمت والحديث يضايقانه ، وتقلصت أمنياته كلها وتضاءلت فى رغبة واحدة : الانفجار .



لكنه من جانب آخر كان مدركا لوضعيته ، فمن لم يزاول متعة الانفجار في شبابه لن يخرج عن المؤلف في كبره ، أو في سنوات نضجه كما يقولون ، فهو لن يقوم مستقلا أول طائفة عائدا الى عزبة عويس ليرتدى الجلاب الأبيض ويجلس على حافة التربة .  
وكان ذلك أيضا يؤلمه .

الدبلوماسية وحسن الأدب يعنيان في المقام الأول كتمان المشاعر ورسم تلك الابتسامة الفاترة على الشفتين ، وتعلم الحديث بصوت خفيض وبكلمات واضحة أما علو الصوت وتنغيم الكلمات وصبغها بالمشاعر فيتعارض مع حسن الأدب .

ووضع كرامة ابتسامة باهتة على شفثيه ، وتوجه بالحديث إلى ابنته ، قال :

- ابسنت . هذه الآلام مرجعها حادثة قديمة .

رمقته الأميرة جويدان بنظرة ثاقبة ، وقد توجست شرا من حديثه ، ونقلت ابسنت بصرها بين والديها ثم ركنت هي الأخرى الى الصمت وتابعت الأكل .

وتضايق كرامة من صمت ابنته ، وانتظر أن تسأله في فضول عن تلك الحادثة القديمة التي تسبب له الآلام في كتفه ، لكن انتظاره طال ، وبقدر ما شعر في البداية بالراحة لكبحها فضولها وإراحته من الكلام ، بقدر ما ضايقه صمتها وترفعها عن السؤال وكأنها ليست بأبنة له من صلبه ودمه .

وهون كرامة الأمر على نفسه ، ملقيا اللوم على زوجته ، فقد تعلمت ابنته إخفاء مشاعرها - على الرغم من صغر سنها - من والدتها ، فهي دبلوماسية بطبيعتها ، وقد أخذت عنها ابنته ابسنت هذا السلوك المحبط .

انتقل كرامة الى البهو ساخطا ليدخن ، فأسرعت اليه ابنته ، وقد فرغت من طعامها ، وعرضت عليه أن تعد له كوبا من الشاي ، واقتربت منه كأنها تعتذر عن صمتها السابق . فقال لها كرامة مبتسما في وجهها :

- أرجوك يا ابسنت . شاي ثقيل . صعيدي .

ضحكت ابسننت وهى تسرع الى المطبخ .

وهذا كرامة قليلا ، غير أن هدوءه لم يدم طويلا للأسف ، فقد أقبلت عليه زوجته الأميرة جويدان ، وفى نبرة مليئة بالنقد ، قالت :  
- ربما كثرة التدخين تؤلم كتفك .

كادت ملاحظتها - التى رأها غبية - تؤدى به الى الانفجار ، لكنه تمالك نفسه ، وقال :

- فنجان شأى وقرص اسبرين ويزول الألم .

لكنها وقفت فى منتصف البهو وسرحت ، وكأنها لا تصدقه .

وكان كرامة مشغولا بوصول ابنه الى جنيف غدا ، فلم يلق بالا اليها ، والسؤال الذى يقلقه ، كيف يواجه زهية وكيف يمد يده الى الدكتور أحمد السيد باشا ، وهذه اليد قد وقعت على شكوى ديجها اليوزياشى شهدى الششتاوى بأسلوب ردىء يتهمه فيها بخطف زهية وتم رفعها الى البكباشى جمال عبدالناصر .

زهية الصفطى ، هذه أول مرة يلتفت فيها كرامة ، الى اسمها ، وفى عزبة عويس فى الزمن الغابر كان لقبها زهية العجرية أو زهية عاملة الترحيلة أو زهية الفاجرة أو غير ذلك من الألقاب الساقطة .

كيف يقابل كرامة ابنه وكيف يدبر لقاء معه ؟ وكيف توصلت زهية الى الزواج من استاذ القانون ؟ لا يعرف !!

وبعدها قال كرامة لنفسه : اذا كان كرامة ابن سقا عزبة عويس ، قد تزوج من اميرة وابنة اقطاعى سابق ، فلا بأس ان تتزوج زهية من باشا ، فالنساء لديهن اسلحة خفية .

كرامة درس وتفوق . ثابر على مكاره الجوع والفقر والحرمان . التحق بالخارجية دون واسطة أو محسوبة ، فهل درست زهية وتفوقت أيضا أم اعتمدت على انوثتها وشبابها فى الإيقاع بالرجل الذى يكبرها بأربعين عاما ؟

هذه هي ثورة ٢٣ يوليو ٥٢ التي فتحت الأبواب أمام الصعاليك الجوعى للتربع على أعلى المناصب فى الدولة ، لكن أبناء الدهماء خانوا البلد والثورة ، بسبب طموحاتهم ورغبتهم فى التسلق ، وما هزيمة ٦٧ المدوية إلا نتيجة تقاعس ، وما رحلة الرئيس السادات الى القدس الا لاستسلامنا . هكذا كان كرامة يحدث نفسه ويأخذها بالشدة .

ولم تكن كتفه تؤلمه فى حقيقة الأمر قدر الآلام التى يحملها تحت جلده الذى يلف جسده .

وضعت ابسنت الشاى أمامه ، فى اللحظة التى كان يقول فيها لنفسه ، "الحياة كذبة كبرى ياكرامة ، وأحمق من يعتقد غير ذلك" .

فجأة طلبت ابسنت منه ان يحدثها عن تلك الحادثة القديمة ، فتشاغل عنها بفنجان الشاى برهة ، ليفتش عن حكاية ملفقة يرويها لها ، كسقوط من اعلى الدرج أو وقوعه بينما يتزلج على الجليد ، لكنه نفض عنه تلك الاكاذيب وخلق قميصه ، وطلب منها ان تتأمل العلامات والخطوط السوداء على ظهره التى تمتد حتى تحيط بكتفيه .

فى هذه اللحظات الحرجة كانت الاميرة تنظر اليه فى غضب ، ونظرتها فيها من الكراهية أكثر مما فيها من دهشة .

وكما توقعت الاميرة ، سألت ابنتهما ، قالت :

- ما هذه الخطوط السوداء يادادى ؟ انها محفورة . لا بد انها تؤلمك بشدة .

وضع كرامة القميص عليه ، وقال وهو يتذكر تلك السنوات :

- هذه الخطوط من آثار ضربى بالسوط مائة جلدة فى ...

وقبل أن يكمل كرامة جملته ، سألت ابسنت فى براءة :

- من هذا المجرم الذى ضربك بالسوط يادادى ؟

لم ينطق كرامة بكلمة واحدة ، لكنه مد يده وأشار الى الصورة الكبيرة المعلقة فى الجهو .

بانث الدهشة على وجه الصغيرة ، سألت :

- جدى الجنرال عويس ؟

قال كرامة :

- نعم .

أسرعت الأميرة جويدان بالتدخل فى الحديث لإصلاح ما أفسده كرامة  
بثرثرته الفارغة مع البنث ، قالت :

- تسبب والدك فى وقوعى من فوق الحصان وكسرت قدمى . عاقبه  
والدى على فعلته .

لم تلتفت لبسنت الى قول أمها ولم تقتنع بكلامها ، ونظرت الى الصورة  
الكبيرة المعلقة ، وقالت فى أسى :

- لماذا كل هذه القسوة يا جدى ؟!

قالت زوجتى فى ثورة :

- هذه حادثة قديمة ، قديمة جدا ، لماذا ترويهما لأبسنت ، هل جننت ؟

قلت دون وعى منى :

- الماضى لا يموت باسمو الأميرة .

نظرت الى نظرة أميرة الى عبد لديها ، قالت :

- حقيقة .

أدركت فى تلك اللحظة وحدها ، أن كل ما يربطنى بجويدان قد قطع ،  
وانطلقت الى غرفتى منسحبا فى صمت ، تاركا ابنتى وأمها وحدهما .

كل الكائنات الحية تشهد فى كل لحظة عمليات هدم وبناء . تولد مرحلة

وتموت مرحلة ، الرضيع يصبح صبيا وشابا ورجلا وشيخا . هذه حقيقة

يعرفها كرامة سرحان جيدا من دراسته للفلسفة ، ويرى أنه استثناء من

هذه القاعدة ، فهو لم يمت فى داخله شىء ولم يولد فى داخله شىء ، لكنه

عبر السياج قفزا ، قائلا لنفسه :

"أنا كرامة سرحان السقا مثل المجتمعات المتخلفة ، لا شىء فيها

يموت ولا شيء يولد ، بل يبقى كل شيء على حاله ، فيما عدا طفرات بين الحين والحين ، كأن يتولى الصعاليك - أولئك الذين نطلق عليهم تأديبا ، أبناء الشعب الكادح - أرقى المناصب فيخونون الرسالة ” .

صالة كبار الزوار فى مطار جنيف كعهده بها ، هادئة الا من ضجة الدبلوماسيين ووقف بينهم صامتا ، فى انتظار وصول ابنه وزهية هانم زوجة الدكتور أحمد السيد باشا .

طلب كرامة من الوزير المفوض شكرى فؤاد أمس أن يسمح له بالحضور لاستقبال محمود بك القرشى وكيل وزارة الخارجية الذى تصل طائرته بعد طائرة الدكتور أحمد السيد باشا بعشرين دقيقة .

نظر الوزير المفوض شكرى فؤاد الى كرامة فى ود ، وقال :

- لا مانع ياسعادة المستشار .

ودعاه الى الجلوس لشرب فنجان قهوة معه .

تحدثا فى البداية حول بعض المسائل الروتينية المعروفة ، وادرك كرامة ان الوزير المفوض فى انتظار وصول القهوة ، ليفاتحه فى أمر مهم .

الوزير المفوض شكرى فؤاد رجل دمث الخلق واسع الحيلة وتيقن كرامة ان رسالته له سوف تكون بطريقة غير مباشرة ، ورشف عدة رشقات من القهوة منتظرا ، وقال الوزير المفوض بطريقة عفوية :

- أعتقد أنه لا يخفى عليك ياسعادة المستشار ان الشتاء قد حل مبكرا هذا العام .

ابتسم كرامة سرحان ، غالب الضحك ، وقد وصلت الرسالة ، فالوزير المفوض لا يدعوه الى القهوة فى مكتبه ليبلغه بحالة الجو فى سويسرا ، انما لينبئه بأن حركة الترقيات قد حلت قبل موعدها ، وقد وصلت الرسالة ، غير ان الوزير المفوض كانت لديه رسالة أخرى ، ينتظر اللحظة المناسبة ليفصح عنها ، قال :

- سعادة السفير سوف يكون فى استقبال محمود بك القرشى ، وارجو

بعد انتهاء مراسم الترحيب ان تأتى مباشرة الى البعثة ، لك عندى دراسة عاجلة .

قال كرامة على الفور :  
- حاضر .

وصلته الرسالة ، الوزير المفوض يمنعه من التوجه الى الفندق فى صحبة محمود بك القرشى وكيل وزارة الخارجية ، وان حركة الترقية سوف تعصف بأولئك الذين سخروا انفسهم لخدمة حاشية الرئيس السادات .

وهاهو ذا كرامة سرحان يقف بين زملائه صامتا ليست به رغبة فى حديث وليست به رغبة فى استقبال محمود بك القرشى ، فما قدم مبكرا الا لاستقبال ابنه .

عندما قال كرامة أمس لزوجته الأميرة جويدان :  
- الماضى لا يموت ياسمو الأميرة .

أجابته على الفور :  
- حقيقة .

وقصدت بذلك أن الأميرة تظل أميرة ، أما الصعلوك فيظل صعلوكا ، وفاتها ان حكمة البسطاء هي ان الدنيا "قلاية" ، "لا تدع الراكب راكب ولا الماشى ماشى" .

لكن هذه حكمة بسطاء الناس ، ما لنا ومالها هنا فى جنيف .

فتحت مضيفة الباب المؤدى الى فناء المطار وقد صحبت معها زميلة ، وراقبهما كرامة وهما يستقلان السيارة فى اتجاه الطائرة ، ودار فى الغرفة متابعا السيارة من وراء الزجاج حتى غابت عنه .

طائرة شركة مصر للطيران تقف دائما بعيدا ، هناك فى الجهة الأخرى من المطار ، ومن يقف فى غرفة كبار الزوار لا يلمحها . كان فى مقدوره التوجه الى الشرفة العليا لمراقبة الهابطين من الطائرة ، لكن الوقت قد

فات ، وكلها دقائق ، وتقف السيارة أمام الباب لتهبط منها زهية وفي صحبتها ابنه محمد نجيب وزوجها الدكتور أحمد السيد باشا .

ما شكل زهية ؟ ماذا ترتدى ؟ كيف تتحدث ؟

هل يتقدم منها ويمد يده لها بالسلام ؟

قال كرامة لنفسه : ابسنت تأكدت اليوم أن لها أخا ، فمهما قيل إنه من رجل آخر ، فأنا هذا الآخر .

يحتمى كرامة سرحان وراء سحابات الدخان التي ينفثها من فمه متلاحقة ، اقترب منه زميل وسأله :

- هل تعرف الدكتور أحمد السيد باشا ؟

أجابه كرامة فى اقتضاب قائلاً :

- هو من أشهر أساتذة كلية الحقوق .

وتراجع كرامة عن الباب ليقف فى عمق الغرفة ، مهموماً بثقل الثوانى عليه وليس الدقائق .

توقفت السيارة أمام الباب ، فتوقف قلب كرامة ، ونزلت سيدة أنيقة وخلفها شاب ، وفى الناحية الأخرى من السيارة لمح كرامة رأس الدكتور أحمد السيد باشا وهو يدور حول السيارة لينضم الى الركب ، ولما اقتربوا من الباب ، رآه كرامة يسير منتصباً مستنداً الى عصاه وابنه محمد نجيب يسير الى جواره ، بينما انهمكت زهية فى حديث هامس مع المضيفة السويسرية .

هتف كرامة فى قلبه ، "عمار يامصر" . عاملة الترحيلة فى عزبة عويس تضع الفراء على جسدها وتتحدث الى مضيفة سويسرية وتفتح لها قاعة كبار الزوار التى تستقبل رؤساء الدول فى جنيف ، وأكمل هتافه الصامت : لم تمت ياجمال عبدالناصر . لم تمت ياناصر . واغرورقت عيناه بدموع .

وتجمع المستقبلون فى حركة دعوية على هيئة نصف دائرة ، وضجة الاستقبال لا تسمح بالذكريات سواء كانت سعيدة أم مؤلمة ، ومد كرامة

سرحان يده الى زهية هانم ، فنظرت اليه ، واقتربتها عن ابتسامته حلوة ،  
وقالت :

- شكرا سعادة المستشار .

والتفتت الى زوجها الدكتور أحمد السيد باشا ، تقدمه اليه قائلة :  
- سعادة المستشار كرامة سرحان من بلدياتى ياباشا .

قال الدكتور أحمد السيد باشا :  
- شكرا ياابنى .

كان للدكتور أحمد السيد باشا تلاميذ من بين المستقبليين ، فانشغل  
بالحديث اليهم ، والتفتت زهية الى كرامة قائلة :  
- لى طلب عندك ياسعادة المستشار .

قال كرامة فى لهفة :

- تحت أمرك ياهانم .

كانت لهجتها وطريقة حديثها ، طريقة زهية عاملة التراحيل ، وسألته عن  
عنوان خال عباس أبوحميدة ، وأوضحت قائلة :  
- خال عباس يحضر اجتماعا فى منظمة العمل الدولية هذه الأيام .

لم تقدمه زهية الى ابنه ، لم تقل له ، هذا محمد نجيب ، رمز الثورة التى  
حللنا بها لتخلصنا من عذابات اللواء عويس وزوجته الأميرة شويكار  
رفقى .

شغلته بالبحث عن عنوان الخال عباس أبوحميدة حتى ابتعد عنهما  
محمد نجيب .

كل ما سعى كرامه إلى نسيانه يحاصرهم فى لحظة واحدة ، زهية ومحمد  
نجيب وخال عباس أبوحميدة كلهم هنا فى جنيف ، بينما هو يقف مذبوحا  
فى قاعة كبار الزوار . شريط من الذكريات أمامه ، قلعتة التى بناها لتوفر له  
الامن تنهار فجأة فى لحظات هشة ، بعد أن ظن أنه أقام الاسوار حولها  
لتي توفر له راحة البال .



سرح كرامة مشدودا الى ابنه ، الخالق الناطق ، أبوه سرحان السقا ،  
وان كانت ملامحه قد اكتسبت ملامحة زهية . بين أوراق كرامة الخاصة التي  
يحملها معه من مدينة الى أخرى ، ولا يطلع أحدا عليها ، صورة صغيرة  
لأبيه سرحان السقا . صورة صغيرة لم ترها ابنته ابسنت ، ولم تواته  
الجرأة أيضا على تكبيرها ووضعها فى الصالون أوحتى الى جوار فراشه .  
ابسنت لا تعرف سوى صور عائلة أمها .

اليوم ، سوف يطلع ابسنت على صورة والده ، يقول لها : هذا جدك  
لأبيك . كان لا يحمل سيفا أو سوطا ، لكن قرية على كتفه يوزع منها الماء  
على البيوت فى عزبة عويس التي كنا نعيش فيها كالعبيد .

إذا لم تصدقنى ابنتى اطلعتها على الخطوط السوداء المحفورة فى  
ظهرى مرة ثانية ، وقلت لها هذا دليلى ، أحمله على جسدى يا ابسنت .

لن افقد ابنتى كما فقدت ابنى ، سوف اطلعها على مكنون نفسى ، وكما  
اطلع ابنتى على الحقيقة ، يتعين على زهية ان تطلع محمد نجيب على  
الحقيقة ، ان تقول له : يامحمد ، هذا والدك ، وتشير الى .

مضت دقائق ، والملعونة لم تقدمه الى أو تعرفه بى ، بل ابتعدت به  
عنى - عن عمد - حتى صرنا نقف على هيئة مثلث ، وكلما اقتربت منها  
مقربا المسافة ، تراجع عن ابنها الى الخلف لتزيد المسافة بينه وبينى .

معها حق . هذه ليست ساعة فضائح قديمة ، وإذا كنا فى الشرق نرى  
الابن أو الابنة للفراش فان الواقع يقول إن الطفل لمن يربيه ، وهذا ابن  
الدكتور أحمد السيد باشا .

هذه هى الحقيقة .

الجميع يتأهبون لمغادرة قاعة كبار الزوار ، ورفيقى على مقربة من  
الدكتور أحمد ، احترت هل أخرج خلفهم أم ابقى فى موضوعى ، نادتنى  
زهية فتوجهت ناحيتها ، قالت :

- تحياتى الى سمو الأميرة جويدان .

قلت :

- شكرا يهانم .

سألتنى ، قالت :

- هل تقبل اليوم دعوتنا على العشاء ؟

ترددت قليلا ، وبعدها قلت :

- أحضر قبل العشاء .

قالت فى ثقة ، وكأنها ليست خائفة منى :

- كما ترى . نحن نتناول الشاي فى الساعة الخامسة والنصف .

قلت :

- هذا يناسبنى يازهىة هانم .

ابتسمت ، وبعدها سألتنى فى رجاء :

- ياليتك تحضر خال عباس معك ، هو فى منظمة العمل الدولية فى

اجتماع .

قلت :

- حاضر .

تقدمت زهىة نحو السيارة لتلحق بزوجها وابنها ، وبقيت فى موضعى أرقب هذا الموكب الذى هبط على من السماء فقلب حياتى رأسا على عقب ، زهىة الصفطى . محمد نجيب . خال عباس ابوحميدة . الأميرة جويدان . لم يعد ينقصنا هنا فى جنيف سوى حمادة ابوجبل وعكاشة وأم حبيبة ، وفجأة تذكرت ان عكاشة قد استشهد فى منطقة القتال بعد مذبحه الاسماعيلية ، فأحسست بضيق . رجفة فى عضلات القلب تبعها على الفور ضيق فى التنفس ، فنحيت عنى السيجار .

طائرة محمود بك القرشى ليست على وصول وأمامها على الأقل عشرون دقيقة ، وخطفنت رجلى على الفور الى مدخل المطار ، واشترت زجاجة كولونيا صغيرة ووضعتها فى جيب سترتى اليمين حتى يسهل على تناولها اذا دهمتنى حالة ضيق التنفس ثانية .

عدت الى قاعة كبار الزوار وأنا لا أصدق اننى التقيت بزهوة أو بابنى بعد هذا العمر الطويل ، كلمة ابنى تصيب قلبي برجفة ، وقررت ألا أذكر هذه الكلمة بينى وبين نفسى ، مكتفياً بالقول : التقيت بمحمد نجيب بعد هذا العمر الطويل .

حضرت متطوعاً لاستقبال محمود بك ، وفى مقدورى العودة الى البعثة لكننى وجدت من حسن الأدب البقاء ، فقد كنت دائماً اسرع الى استقباله فى السنوات الماضية . ولا أريد للرجل أن يعتقد اننى تخليت عن واجباتى بعد غياب الرئيس السادات .

وشى أصفر . هذا ما قاله لى الزملاء . أخرجت منديلاً وعطرته ومسحت وجهى ، وتناولت حبة منشطة ، ادعيت انها حبة لتنظيم الضغط . وارتيمت على مقعد فى عمق القاعة .

قلت لنفسى :

- الأكمة اليوم تخفى ما وراءها .

الحقيقة الوحيدة الساطعة فى هذا العالم الذى يحيط بى والذى انغمست فيه ثلاثين عاماً ، هى ظهور عباس ابوحميده وبزوغه فجأة فى هذا العالم الذى بنيته لنفسى بالوهم وعجنته بالزيف وثبته بالخداع .

كنت أود ياخال عباس ان ألقاك وأنا خالى البال . ارحب بك فى بيتى . لكن تاتى الرياح بما لا تشتهي السفن . وربما يكون خال عباس ابوحميده هو مرفأى وسلواى هذه الأيام .

ظهر يوم السبت ٢٦ يناير ١٩٥٢ صفعنى على خدى ، صفقة لا انساها وصاح بى :

- البلد تحترق . هيا معى نطفىء الحرائق ياولد .

كنا فى شارع الهرم ، وقد بدأت الحرائق تلحق بالكازينوهات وعربات الترام والسيارات ، حملت له المياه . أنقذنا اناسا حاصرتهم النيران ، وكان الحقد قد اعمى قلبى ، فاعتقدت ان اشعال الحرائق هو طريق الثورة والانتقام من اللواء عويس الذى جلدنى بسوطه مائة جلدة على ظهرى ،

ومعه عرفت ان طريق الثورة اكثر تعقيدا من اشعال الحرائق وقتل الأبرياء .

عرفت لكننى عن عمد اخترت لنفسى طرقا أسهل واقل وعورة عن السياسة وطريق الثورة . سلكت طريق التفوق فى الدراسة وان كنت بسبب انتهازيتى جعلت خطوطى تتلامس مع خطوط المسئولين .

وصل سعادة السفير عبد الرؤوف الريدى وفى صحبته الوزير المفوض شكرى فؤاد ، فقامت منتصبا وتوجهت ناحيتهما .

سألنى سعادة السفير :

- مالك ياكرامة ؟

اخذنى على جنب ، قال لى :

- لا تخف . الوضع ليس سيئا كما تتصور .

قلت :

- شكرا سعادة السفير .

لا أعرف عما يتحدث السفير ، لكن اشارة الوزير المفوض فى الصباح لى ، جعلتنى اعتقد اننى المقصود ، ربما هى حركة ترقية مفاجئة ، او هى تحقيقات فى أمور العمل .

مات الرئيس عاش الرئيس . هذا هو شعار الدول المتقدمة ليستمر سير دولاب العمل والحياة دون هزات ، اما ما خالف ذلك فهو تنطع . نعم . لقد تعاونت وعملت الى جانب حاشية الرئيس السادات ومحاسبيه من خلف رؤسائى فى وزارة الخارجية . كانت هذه هى أوامر الرئيس لى .

أمس عندما واجهتنى جويدان بتأكيدهما على ان الماضى لا يموت ، أحسست بانهييار سقف قلعتى على رأسى ، هذه القلعة التى بنيتها خلال ثلاثين عاما من الكدح ، اما الآن فى هذه اللحظة ، فاننى اشعر بانهييار الأعمدة الخرسانية والجدران أيضا ، وقد اصبحت كلها ركاما ، وكأن قلعتى قد بنيت على أرض رخوة بالطوب النئىء ودون اساسات .

اتجهت على الفور الى الزميل الذى له علاقة بالأمن ، وسألته مباشرة

عن فندق عباس ابوحميده دون لف او دوران ، فنظر الی ميتسما ، قال :  
- هذا شيوعى خطير .

ضحكت ، قلت :

- هذا قريبي .

اجابنى فى خبث ، قال :

- هو من بلدكم فقط ، من عزبة عويس ، لكنه ليس قريبا لك .

نظرت اليه نظرة نارية ، وصمت .

غير من لهجته ، قال فى ود :

- فى فندق الرون على البحيرة مباشرة غرفة ٤٦ ، ومعه اثنان من  
الشيوعيين قادمان من باريس .

اكمل قائلا :

- غريب امر هؤلاء الشيوعيين ، لا ينزلون الا فى احسن الفنادق .

قلت له :

- هذا فندق من الدرجة الثانية او الثالثة .

قال :

- انا لا اقصد عباس ابوحميده ، لكننى اقصد الوفد العمالى القادم معه  
من براغ .

ادركت ان عباس ابوحميده قد تمكن من السفر الى براغ للعمل فى  
اتحاد العمال التقدمى هناك قبل حملة الاعتقالات الشهيرة والمسعورة التى  
قام بها الرئيس السادات فى سبتمبر الماضى وعجلت بمصرعه .

قال لى زميلى :

- على كل حال ، اذا جاءتك فرصة اخبرهم ان مصر مفتوحة لابنائها وقد  
سقطت كل اوامر الاعتقال الخاصة بهم وقد افرج عن كل المعتقلين تقريبا .

نظرت اليه متأففا ، قلت :  
- هذه مسئوليتك انت .

قال غاضبا :  
- لا تصدقنى .

قلت له فى قرف :  
- طبعاً انت صادق .

ابتعدت عنه ، وقد اصبح حبلا يحيط برقبتى ، لقد حدثنى وكأنى  
صفحة مفتوحة أمام ناظره : عباس ابو حميدة من بلدكم فقط ، من عزبة  
عويس ، ليس قريبا لك .

اللجنة على بلد تتجسس على ابنائها على هذا النحو المشين .  
بيدو ان حكمة ابدية يحفظها هذا الشعب الجاهل فى قلبه تيسر له  
الحياة فى السراء والضراء . كان والدى يحمل القرية المملوءة بالمياه ،  
ويردد فى تجواله على مسمع من الجميع :  
- خدمة الغز آخرها علقه .

هؤلاء هم الغز .

هب الجميع وقوفا فى نصف دائرة ، وهل محمود بك القرشى فى صحبة  
السفير وتقدم منا محمود بك مصافحا فى لهجة ابوية .

ضغط على يدى فى حنان وتجاوزنى ، لكننى لمحت فى عينيه نظرة من  
يود الانفراد بى . هذا رجل من حكماء الوزراء وعرف بالنزاهة والتقوى  
والعلم الغزير .

اطمأن قلب كرامة قليلا .

## ( ٢ )

توجه كرامة من المطار الى مقر البعثة مباشرة ، كل ما جرى اليوم له يدور فى رأسه ويقلبه ، وربما شطح بعيدا وطمع فى عودة زهية اليه فيجتمع الشمل ، وسرعان ما يفوق الى نفسه ، قائلا لنفسه : يكفينى اينى .  
زهية . هذه المرأة معجزة . فتنتها زادت وملاحظتها بانث . عيناها فيهما جراحة وصراحة وروحها مليئة بالعزم ، وقلبها شديد الطيبة . وقال كرامة :  
هذه الفتاة معدنها طيب .

يقرا كرامة مجموعة المذكرات الخاصة بمدونة نقل التكنولوجيا من الدول المتقدمة الى الدول النامية بعينه ، يمر على الكلمات ، يعى معناها على الفور ، فالأمور واضحة ، والصراع على أشده ، وذهنه متيقظ ، وربما هذه هى المذكرة الوحيدة التى قرأها فى حياته بكيانه كله . وقال كرامة لنفسه متعجبا : كل ما يدور حول هذه المذكرة هو محور حياتى الخاصة .

المذكرات عليها توجيهات صائبة وعميقة ومدونة بخط اليد للوزير المفوض شكرى فؤاد ، وقد أغرته بالرجوع الى ملفات قديمة ، رجع اليها وكأنه يفتش فى اضايبير التاريخ : تاريخ نفسه ، وتاريخ عزبة عويس .

هذه المدونة تدور المباحثات حولها منذ سنوات فى مؤتمر التجارة والتنمية دون تقدم ملحوظ بسبب تعنت الدول العظمى ، الى درجة أن المباحثات فى هذه الدورة تركزت على مناقشة الفاصلة والنقطة وحروف الجر والعطف فى سياق الكلام .

ولم يطلبه وكيل الوزارة ، وبقي فى مكتبة يحاور الأوراق ويذاورها ، فالدول المتقدمة لن تقدم شيئا ، بل تضع قيودا شديدة على تصنيع الدول المتخلفة ، وتكبلها بالتزامات جائرة ، وعندما انتهى من تقريره النهائى فيما يخص المدونة ، كان قد استقر عزمه على ضرورة الطلاق ، فحياته مع

جويدان اصبحت لا تطاق ، وأضحت ابنته حائرة بين امها وبينه .

البيت اصبح بالنسبة الى كرامة كالكابوس المرعب ، وقد مل تلك الطقوس الفارغة ، النوم له مواعيد . الطعام بمواعيد . الحديث بمواعيد . فجويدان لا تتحدث اليه الا على مائدة الطعام فى العشاء أو عند تناول القهوة فى العشية ، وبقيّة ساعات النهار ويوما السبت والأحد تظل صامتة وترميه بنظرات مجنونة وقال كرامة : ياليتها تصرخ أو تثور أو تغضب ، لكنها منسحبة من الحياة ، ويقال إن أمها كانت تصاب بنوبات جنون متقطع ودخلت مصحات عقلية عدة مرات ، لكن جويدان ليست مجنونة ، إنها لم تعد تحبنى ، والصحيح أنها لم تحبنى فى يوم من الأيام .

حلت الساعة الثانية عشرة ونصف ظهرا ، طوى كرامة الملفات ، ومر على غرفة الملحق العمالى ، وجده جالسا ، فايقن ان اجتماعات منظمة العمل الدولية قد انتهت ، ولا بد ان خال عباس ابوحميده قد عاد الى فندقه ، وفى الطرقة الصغيرة ، التقى بزميله الذى حدثه فى الصباح عن عباس ابوحميده ، حياه مبتسما وتجاوززه الى مكتبه ، فأراحه من الحديث ، وان كانت تلك البسمة التى ارتسمت على شفثيه ، قد أثارت غيظ كرامة ، نظر الزميل اليه وكأنه يقول له : اننى أعرف لماذا اقتربت من مكتب الملحق العمالى ولم تدخل وتسال مباشرة عن عباس ابوحميده ؟

قال كرامة مهونا الأمر على نفسه : الزميل يؤدى عمله . ونسيت الابتسامة التى رسمها الزميل على شفثيه ، غير أننى تنبته بعدها الى المأزق الذى سوف أضع فيه الدكتور أحمد السيد باشا وزهية وابنى اذا صحبت معنى اليهم عباس ابوحميده . ضربت رأسى بيدي ، وندت عنى صرخة مكتومة : أخ ، ابنى محمد نجيب .

حقيقة زهية حدثتني قائلة : الخال عباس ، وخاطبتنى كما كانت تخاطبنى فى عزبة عويس منذ ثلاثين عاما وكأنها عاملة تراحيل تبحث عن كبير لها فى الغربة لتطمئن اليه ، ولكن لماذا تسعى لمقابلة عباس ابوحميده ، وزوجها الدكتور أحمد السيد باشا خارج لتوه من المعتقل الذى وضعه فيه الرئيس السادات فى سبتمبر الماضى ؟ الا تدرك مخاطر ذلك ،



بعد أن نجح عباس أبوحميدة فى الهروب من مصر قبل حملة الاعتقالات  
التعيسة التى عجلت باغتيال السادات ؟

آخ . ابنى أصبحت تحيط به المخاطر وهامى ذى المرأة التى ربته  
وحافظت عليه وضحت بشبابها من أجله تسلمه الى المهالك دون ان تدرى .

التاريخ يعيد نفسه وهأنذا أجد نفسى مرة أخرى فى مفترق طرق .

فى صغرى كنت انتهازيا وهربت من كل المعارك ، لكن ابنى ما ذنبه ؟

لن أسمح لزهية ان تفقدنى ابنى مرة ثانية ، ويكفينى ما فعلته بى طوال  
تلك السنين وهى تخفى ابنى عنى ، لكننى بأى حق أتدخل فى شئونها ،  
فهذا ابنها من رجل آخر ، وأنا لست هذا الآخر الا اذا كشفت اوراقى كلها ،  
وتعريت . قلت لنفسى ساخرا وفى انتهازية واضحة : برودة الجو فى  
سويسرا لا تسمح بخلع الملابس مرة واحدة . واقنعت نفسى وأنا أغادر  
باب البعثة متجها الى فندق الخال عباس أبوحميدة أن أخلع ملابسى قطعة  
قطعة - كفتاة الاستربيتيز المحترفة - وليس مرة واحدة .

اقتربت من سيارتى ، أدرت الموتور ، فى حالات توترى اتحاشى قيادة  
السيارة بنفسى وترددت ، لكننى وجدت نفسى اندفع بها ، وانطلق فى  
الطريق المزدحم - شارع لوزان - حيث تصبح القيادة آلية فى مسارات  
محددة ، ووفقا لسرعة اندفاع السيارات الأخرى ، وهذه مهارات آلية  
تكتسب بالمران .

كرامة سرحان السقا أراه هناك على الرياح وأشجار المانجو الباسقة  
تحيط بقصر اللواء عويس وزهية تهول بين الحقول فى جلبابها الطويل  
الواسع الممزق على ركبتها وذراعيها وعلى رأسها البلاص وهى تتمايل  
ويأتينى صوتها مغردا باللحن الحزين وهى تفرش الكون بصوتها شاكية من  
الظلم الأبدى :

يا بهية خبرينى      على قتل ياسين  
وعد ومكتوب على      ومسطر على الجبين  
وأنا كل ما أقول التوبة  
ترمينى المقادير .

كان المذيع مغلقا وكذلك جهاز الكاسيت ، والغناء الشجى يلفنى ويغرق شارع لوزان وفتحت نافذة السيارة فأنتنى ضجة الطريق عالية وأغلقتها والغناء يغرقتى والكلمات تنساب على لسانى متدفقة وصوت زهية الشجى يلفنى : وأنا كل ما أقول التوبة ترمينى المقادير .

عجبنى من نفسى ومن تذكرى لهذه الكلمات بعد كل هذه السنين وحاولت تذكر شىء من شعر البيوت الذى أمضيت سنوات دراستى فى حفظه وتحليله فخاننتنى مطالع القصائد الا قصيدة الأرض الخراب . وهى القصيدة التى كنت أدور فى أزقة عزبة عويس وأنا أرددها لنفسى متعاليا على خلق الله حتى فاجأنى مرة خال عباس بأنه يعرفها وقال لى : لا تتحمس كثيرا لهذا الشاعر فالأرض عامرة بخلق الله .

وكان ذلك درسا لى .

غرفة رقم ٤٦ ، وقبل ان أصل الى موظف الاستعلامات ، وأنطق برقم الغرفة ، وجدت خال عباس أبوجميدة يقف وسط مجموعة من رفاقه ، يعطينى ظهره ، لكننى عرفته من طريقة وقفته حيث يميل برأسه الى اليمين وكأنه يريحها على كتفه بين الحين والحين .

كان يرتدى بدلة واسعة ويمسك بيده حقيبة صغيرة ، ولا يقف ساكنا ولكنه يغير وقفته وهو يتحدث الى الآخرين ، متأملا البهو الواسع ، ومدخل الفندق .

ووقفت منتظرا ان يواجهنى ، وحتى ينتهى من الحديث ، وماهى الا ثوان معدودات ، حتى غير وقفته ١٨٠ درجة ، واصبح فى مواجهتى تماما . لمحنى فى اللحظة التى كنت أتأمل وجهه وقد مال قليلا الى السمنة ، ابتسم . هز رأسه . قدم لى ، فتح ذراعيه مرحبا . أخذنى بالحضن . ربت على . قال :

- أهلا سعادة المستشار . فرحتى كبيرة .

مد يده وربت على يقرينى اليه . وقال :

- فرحتى كبيرة . فرحتى كبيرة .

أخذ يدي تحت باطه . قال :  
- قرب منى ياوحدى . قرب . اعذرني ياسعادة المستشار . هذا سلام  
فلاحين . سار بي الى مائدة خالية فى ركن الجهور ، قال :  
- كيف حالك ؟

قلت :

- الحمد لله ياخال عباس .

نظر اللى . كنت ساهما . سألنى . قال :  
- كيف حال سمو الاميرة جويدان والاميرة الصغيرة ؟

قلت :

- بخير .

وبعدها سألته ، قلت :

- كيف حال خالة نفوسة بنت الشامى ؟

فارقته ابتسامته ، قال :

- مريضة وقلبها مكسور .

توقفت عن سؤاله عن المزيد ، قلت :

- هيا بنا . نتغدى . ما رأيك فى مطعم صينى أو يابانى ؟

تردد قليلا ، وبعدها ، قال :

- تعمل لى طيبيا ، اذا عرفتنى على مطعم شامى أو مصرى . اشتقت الى

الفول والطعمية . والباذنجان المقلى .

قلت على الفور :

- بسيطة . هيا .

رمى رأسه على كتفه ، قال :

- فى براغ لا يقصرون معنا . لكنك تعرف "النفس دائما بطالة" .

قلت :

- لا تشغل بالك بمشكلة الطعام . سوف تصلك علب الطعمية والفول

والعدس أبو جبة فى براغ .

نظر اللى فى دهشة حقيقية ، وقد ارتسمت على وجهه سعادة الدنيا .  
قال :

- هذا كله متوافر هنا ؟

قلت :

- هيا بنا . السيارة على بعد خطوات من الفندق .

قمنا معا .

لا أصدق أننى فى صحبة خال عباس أبوحميدة ، نفسه فى قرص طعمية  
وطبق فول بالزيت ، وأنا أيضا نفسى فى هذه الأشياء والفرق بين هذه  
اللحظة وستواتى السابقة أننى أقبل على الطعام فى مواعيد ثابتة وليس بعد  
أن يعضنى الجوع ويهرى بدنى واترنج من الإعياء .

خال عباس أبوحميدة وصلت الى جنيف فى هذه الساعات التى أنا  
أحوج فيها الى المساعدة أكثر من اى وقت مضى . أنت مرفأى ، وكما  
صفعتنى على وجهى ظهر يوم السبت الحزين فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ فأنقذتنى  
من السجن بينما والدى سجن ومات فى السجن ولم يجد من ينقذه . اذا  
أردت توبيخى ولومى وصفعى على وجهى افعل ولا تتردد فأنا أعرف ما  
يغضبك منى وعلى استعداد لإصلاح ما أفسدته بطمعى واستماعى الى  
زوجتى وعمها حمدى بك اننى أعرف ما يدور بذهنك من ناحيتى ياخال فأنا  
فلاح وكما سرت حافيا على الترفة جائعا تعلمت أيضا الحديث دون كلمات  
ومعرفة العيب والواجب ناحية الأهل .

هـ .

قلت لصاحب المطعم وقد أتى مرحبا بى وبضيفى :

- مائدة شرقية ، على مزاجك .

قال وهو ينحنى :

- شكرا .

تلفت خال عباس حوله وبعد فترة ، قال :  
- هذا مطعم سويسرى . ما له والفول والطعمية !؟

قلت ضاحكا :

- الخواجات لا يتركون لأولاد العرب شيئا . هذا سويسرى عاش فى لبنان ٢٠ عاما ولما ساءت أحوال بيروت انتقل الى جنيف ، هذا أفضل مطعم شرقى ربما فى أوروبا .

كان صاحب المطعم يعرفنى ، ولما أقول له على مزاجك ، يعنى الاهتمام بنوعية الطعام وزيادة الكميات عن المعتاد .

قلت :

- زهية بنت الصطفى هنا . وسألتنى عنك .

قال :

- زهية هانم .

أكملت قولى مصححا نفسى بنعتها بزهية بنت الصطفى ، قلت :  
- زهية هانم وزوجها الدكتور أحمد السيد باشا وابنها محمد نجيب .

تحاشيت القول ابنها محمد نجيب من رجل آخر لسبب بسيط هو أننى هذا الآخر الذى يجلس فى حضرة خال عباس أبوحميدة كبير عزبة عويس وزينة رجالها .

قال :

- زهية هانم سيدة مجتهدة ، علمت نفسها ودرست حتى حصلت على بكالوريوس فى العلوم السياسية والاقتصادية من جامعة القاهرة . درست مع ابنها سنة بسنة من الحضانة الى الجامعة .

قلت :

- لايد ان الفضل فى ذلك الى زوجها الدكتور أحمد السيد باشا ؟

قال :

- الفضل للدكتور أحمد ولابنته المرحومة الدكتورة أوديت التى تبنت

زهية وابنها .

الدكتورة أوديت ، سمعت هذا الاسم يتردد على السنة النسوة فى عزبة عويس وقد احيط بهالة من الألغاز فى سنة ١٩٥٢ ، وقيل ان الدكتورة أوديت اختبأت فى زى فلاحه لعدة أشهر فى العزبة .

ما أشد حماقتى وجهلى وكيف سولت لى نفسى كتابة شكوى ضدها هى ووالدها الدكتور أحمد السيد باشا واتهامهما بخطف زهية .

لا بد ان الخال عباس يعرف قصة هذه الشكوى لكنه لا يواجهنى بها من فرط كرم أخلاقه .

جاء الجرسونات فى زيهم المعهود المميز ، وأحدهم يدفع أمامه عربية صغيرة عليها الصوانى والأطباق .

زوجان من الحمام المحشو بالفريك وثمانية اسياخ من الكباب وأطباق الطعمية والفول والباذنجان المخلل والطرشى وعلى رأسها الطحينة الى جانب قرعة كبيرة من عرقى البلج .

تأمل خال عباس أبوحميدة المائدة وقد امتلأت بالأطباق ، قال :  
- هذا حلم ولا علم يا ولدى !!؟

قلت :

- تفضل .

قال :

- والله نفوسة بنت الشامى زوجتى لو طلبت منها اعداد هذه الأطباق لعجزت . حمام محشو من عند الدهان أو ابوشقرة الكبابجى . طيب . والفول والطعمية من عند الدمياطى . توكلنا . باسم الله .

يأكل فى تودة كعادة الفلاح الاصيل ، وهذه هى أول مرة أشارك الخال عباس أبوحميدة لقمة وان كانت داره فى عزبة عويس دائما مفتوحة للغرباء ، ويمسك بالشوكة والسكين كأحد أبناء ارستقراطية عريقة .

ليست بى شهية ونفسى تعاف رائحة الأكل لكن جلوس خال عباس

أبوحميدة على المائدة أمامي آثار في لوعة الجوع والحرمان من الطعام ،  
وهي ذكريات اليمة تقفز فجأة فتصيح الكون بمسحة من الحزن والشجن  
العميق ، تعجبت من نفسي وأنا أنقض على الطعام ويبدو أن انغماسي في  
الماضي قد جعلني أنسى نفسي وأنا أمزق وأمضغ وأبلع وأتلمظ .

كنت أشجع ضيفي على تناول الطعام ، لكنه كان يقضم قضمات صغيرة  
ويحرص على اغلاق فمه وهو يلوك الطعام في تودة ، وكأنه يعاني من الام  
في أسنانه تمنعه من المضغ .

سألني فجأة ، قال :

- هل دونت مذكرات يا حضرة المستشار ؟ أنت حياتك ثرية وفيها خبرة .

تلقت حولى في دهشة ، كان خال عباس ابوحميدة جادا ، قلت :  
- العمل في الخارجية لا يسمح لى بالكتابة .

كنت أود أن أقول له إنى سعيت كثيرا للعيش فى الحاضر وقد أسدلت  
ستائر كثيفة على أيام زمان ، لكننى ترددت فى مصارحته بما دار فى  
خاطرى للتو واللحظة .

عزمت عليه بفردة حمام أخرى ، قال :

- حياة الإنسان صفحات مهمة وأنت كنت متفوقا دائما . هذه عبرة  
للأجيال الجديدة .

كادت ضحكة تفلت منى ، داريتها بابتسامة صفراء ، وصمت ، لكنه  
أكمل حديثه لى ، قائلا :

- ياليتنى كنت أمتلك موهبة الكتابة لكتبت ملحمة "عزبة عويس" طوال  
الخمسين سنة الأخيرة ، وقصة أناسها ونضالهم وهم يتحايلون على لقمة  
العيش عندما كان يحجز عنهم الأميرلاى عويس باشا الأعرج وابنه اللواء  
عويس باشا المياه ويبيعها لهم بالرية .

وبعدها توقف برهة ، وكأنه يحسب وقع كلماته على ، ثم أكمل قائلا :  
- اعذرني ياسعادة المستشار ، انتم نسائب الآن ، ولكن ذلك تاريخ  
يجب ان يكتب .

قلت مكملًا :

- إننى لا أنسى تعليقى الى شجرة الجميز وضربه لى بالسوط .

لا تزال آثار الضرب على كفتى ، كان يضربنى بقسوة ووحشية حتى تأكدت أننى مقضى على لا محالة ، وفجأة ، لمحت الخال عباس أبوحميدة قادمًا نحونا يهرول ، فألقى السلام على الباشا ليشغله ، ومد يده وتناول منه السوط الذى مزق ظهرى وصدري ، قال له :

- سلمت يداك ياباشا لمحاربة الأعداء .

لن أنسى تلك اللحظات التى تمنيت فيها الموت ، وتوسلت الى عزرائيل أن يقبض روحى ويريحنى من تلك العذابات ، لكن الموت - ذلك الذى نصادفه كثيرًا فى حياتنا - خاصمنى . تركنى لحالى ، والباشا يضرب ، واحد ، اثنان ، ويعد حتى اقترب من المائة .

كان الفلاح الذى ربطنى الى شجرة الجميز لم يشدنى اليها ، حتى يخفف من وقع الضربات ، وكنت أدور حول الشجرة تارة اتلقى الضربات على صدري وتارة اتلقاها على ظهرى ، وعلى لسانى تتردد كلمات طلب العفو .

مت مرتين . مرة عندما صرخت وتأوهت من شدة الألم ومرة أخرى عندما انطلقت أطلب السماح والعفو فى كلمات ذليلة .

وجه الخال عباس أبوحميدة الأسمر قد امتلأ قليلاً وخفت سمرة ، وتلك البسمة الحلوة تزيهه ، وعيناه الناقدتان تشعان بالفطنة ، وقد منح الله حسن البصيرة .

قال لى بعدها :

- هذا صراع تاريخى يا ولدى .

كنت وقتها فى التوجيهية ولم ادرك ابعاد قوله لى ، لكننى فهمت انه يواسينى فى محنتى وان الصراع بين رجال الإقطاع وبين الفقراء وما جرى لى ليس حادثًا فرديًا .

كلماته رطبت قلبى فى تلك الأيام التعيسة .



هل يطلب منى خال عباس أبوحميدة أن أدون هذه الأحداث وأنشرها أم هو يؤنّبني لزواجى من الأميرة جويدان ابنة اللواء عويس باشا ؟  
هؤلاء الفلاحون يتكلمون بالإشارات والرموز . هذه عادة متأصلة فيهم ،  
فما هى مقاصد خال عباس ؟

لا تكن قاسيا معى يارجل فى هذه الساعة .

تحاشينا الحديث فى السياسة ولم ترد سيرة اغتيال الرئيس السادات على لسانه أو لسانى ، لكننى كنت أرى أن حديثه كله ليس بعيدا عن السياسة فى مفهومها الواسع العريض .

رعتنى زهية فى تلك الأيام واحتضنتنى كطفل لها طوال فترة رقودى وتفجر الدماء من جسدى عندما وسدونى حشية فى بيت الحاج عمران زوج عمتى حتى تطيب جروحى ولا تتسمم . كانت صببية يافعة وتكسب قوت يومها بالخدمة فى الحقول .

ابنتى ابسنت عندما أريتها آثار الضرب عشية أمس ، قالت جملة واحدة قطعت قلبى ، قالتها فى براءة وعفوية :  
- لماذا كل هذه القسوة يا جدى ؟

تلك العفوية مست قلبى وأحسست أننى كنت قاسيا معها الى درجة الوحشية فقد صويت رصاصا الى قلبها الغض ووضعت إسفيناً بينها وبين أمها .

تناولت قرص طعمية ، قضمته ، قلت لنفسى : اللقمة الهنية لا تطيب ابدا فى أفواه المعذبين .

قررت أن أتخلص من هذه الأحزان وأن التقت الى ضيفى ، قلت :  
- اليس من الواجب السؤال عن زهية هانم وزوجها ؟

وبعدها أضفت قائلا :

- دعتنا معا على العشاء لكننى اعتذرت ووعدت باصطحابك معى على الشاى بين الخامسة والسادسة .

قال :

- هذا واجب علينا ياسعادة المستشار .

قلت فرحا :

- اتفقنا .

سألنى عن محل اقامتها ، أجبته ، قلت :

- فندق انتركونتيننتال .

هذا حسن . هذا الفندق قريب من منظمة العمل الدولية . بعد الجلسة

سوف اتوجه الى الفندق وانتظر فى البهو .

عرضت عليه ان احضر اليه فى المنظمة لأصحابه الى الفندق ، لكنه

رفض ، قال :

- لا تشغل نفسك بى ياسعادة المستشار . شكرا .

لم ألع عليه ، وربما يود الحديث الى زهية على انفراد ، وتركته على

حريته ، فالفندق على بعد دقائق من المنظمة .

كنا قد انتهينا من القهوة ، ونظر الى ساعته ، قال :

- لقد أخذت من وقتك الكثير اليوم ياسعادة المستشار .

ادركت انه يود القيام ، سألته عن موعد الجلسة القادمة ، قال :

- بعد نصف ساعة .

قلت مطمئنا :

- أمانا وقت . المسافة من هنا الى المنظمة قصيرة جدا . دقائق

بالسيارة .

قال :

- بارك الله فيك ياسعادة المستشار .

كان الخال عباس أبوحميدة يدخن كثيرا ، وكنت أعتقد انه ليس مدخنا ،

سألته عن السبب ، قال :

- الوحدة ياوالدى .

وبعدها ، قال :

- أنا اعتبر نفسي لست مدخنا ، لكننى فى فترات الهروب الطويلة كنت عادة ما ألقأ الى التدخين ، ومن الغريب اننى فى براغ أحس بوحدة شديدة على الرغم من حفاوة الرفاق .

وبعدها أضاف قائلاً :

- الغربية بطالة ، ونحن بشر .

رنت فى أذنى كلماته كالنفير الناقق فى مقطوعة موسيقية مليئة بالشجن : الغربية بطالة .

امضيت عمرى كله متغربا . طحنتنى الغربية فى عزبة عويس بين أهلى وناسى . وفى الغربية الحقيقية تجرعت كأس الوحدة الحقيقية حتى الثمالة وفى بيتى أعيش منفردا لا يؤنس وحدتى الا ابنتى ابسنت وخوفى عليها من أمها التى سوف تطبعها بطباعها .

الخال عباس ابوحميذة يدخن بسبب الغربية . ترك العقلانى المادية الجدلية ولجأ الى وهم السيجارة لمعالجة وضعية الغربية ، ما احلى كلماتك ياخال عباس : نحن بشر .

قلت من قلبى :

- كلماتك حلوة ياخال عباس والحديث بيتنا له شجون .

سحب نفسا عميقا من سيجارته ونفثه وقال وهو ينظر الى البعيد غير المرئى ، وكأنه يحدث نفسه :

- ابنتى كسرت قلبى وكسرت قلب امها .

قلت له :

- تزوجت ..

قاطعنى ، قال :

- تحجبت ..

قلت ضاحكا :

- هذه ليست مصيبة .

اجابنى حزيناً :

- الحجاب الخارجى لا يشغلنى . امها محجبة . ما يشغلنى هو انشغالها  
بالسياسة بين تنظيمات مسلحة . يساعد المستشار هذه قصة اخرى .  
قمنا .

كان الطريق مليئاً بالسيارات المندفعة امامنا وجلس الى جوارى  
صامتاً .

ابنة الخال عباس ابوجميدة الوحيدة سارت على طريق معاكس له ،  
تمرداً ؟ ام ازمة روحية حلت بالبلد دفعت الناس الى التطرف يمينا  
ويسارا ؟ ام هو اليأس والقنوط ؟

قلت لنفسى :

- نحن بشر .

على مقربة من منظمة العمل الدولية ، غادر عباس ابوجميدة السيارة بعد  
التواعد على اللقاء فى فندق انتركونتيننتال .

( ٣ )

اكفهرت السماء فجأة وزمجرت وفتحت ينابيعها فتساقط المطر ثقيلًا كالحجارة فى لحظات قليلة .

كانت السيارة تندفع بكرامة والمساحتان تعملان فى همة وكأنهما تمسحان دموعه الداخلية التى لا تسيل ، وخطوط البرق تتراقص أمامه فى دوائر ، والانفجارات المدوية فى السماء تصله وهو حبيس السيارة المندفعة فى طريقه الى فندق الانتركونتيننتال وفقا لموعده مع زهية هانم .

هى عاصفة رعديّة لن تستغرق سوى دقائق فهذه امطار الغضب التى لا تستمر طويلا ولكنها دقائق كافية بالقضاء على مساحات واسعة من المزروعات كما انها تصيب السيارات بإصابات بالغة . ويعدها تصفو السماء ويعتدل الجو .

كنت على مقربة من ميدان السلام أمام الأمم المتحدة عندما لمحت رهطا من السيارات التى اصطدم بعضها ببعض . تشاءمت وتابعت طريقى حذرا . كان البوليس واقفا وعربات الاسعاف جاهزة فلم اتوقف واندفعت بعيدا وقد قدرت أن بعض العربات المحطمة تخص بعثات افريقية وعربية وذلك من رؤيتى لوجوه السائقين وبعض العلامات الدبلوماسية التى لمحتها سريعا فى اندفاعى .

قلت لى نفسى : الاصابات لحقت بالسيارات وليس بالركاب والأمر لا يتطلب وقوفى للسؤال . كما اننى اود اللحاق بموعدى على مقربة امتاز .

ابنى ؟

كيف حالك ؟ هل يبادلك الدكتور احمد باشا السيد الأبوة ويفرغك بمشاعر الحنان التى اغرقنى بها ابى سرحان السقا . كان ابى من معدمى

عزبة عويس ويخصنى بحبه وعاملنى ايضا بقسوة متناهية ليجعل منى رجلا . حقيقة الفقراء لا يعرفون الرحمة أو الحنان الخالصين ومشاعرهم مزيج من الحنان والعنف فى فوضى لا مثيل لها .

لكنى احببتك يا أبى بقدر كراهيتى لك . وكسر قلبى لما جاءنى نبأ وفاتك فى السجن بعد اصابتك بالعمى . تكفل خال عباس بالمأتم وبكتك زهية أكثر من امى اما زوج عمى الحاج عمران فنعاك على طريقته الخاصة وقال للمعزين :

- فاسق انتقل الى رحاب الله . ونحن نطلب له الرحمة والغفران من رب العباد . واذا كان سرحان السقا سبقنا فى الذهاب فدورنا أت .

وكف عن سهرة الخميس وقال لرجاله :  
- موت سرحان السقا كسر قلبى .

كان ابى رغم فقره الشديد رجلا صاحب مزاج يتمتع بلف سيجارة ويغازل الصبية المليحة ويوقع بالمرأة الجميلة التى هجرها زوجها ويدخل البيوت من ابوابها الواسعة وقربة الماء الثقيلة على كتفه وفى المساء يتجرع أرخص انواع الخمر مع قطعة لحم صغيرة تدسها له امرأة من المعبجات بفحولته قائلة :  
رم عضمك ياسرحان .

كنا نعرف انه يتذوق اللحم خلسة طوال ايام الأسبوع من ورائنا ، اما نحن فكنا نتذوق اللحم والتقلية كل خميس . تذهب امى الى السوق وتبيع شيئا من البيض والجبنه القريش وعدة قوالب زبد وتشتري قطعة اللحم .

تلك كانت ايامى ، اما ابنى محمد نجيب فقد تربى فى بيت الدكتور أحمد السيد باشا فى المعادى وربما لم يسمع بعزبة عويس فى حياته .

لن ينقذنى من هذا الجنون سوى خال عباس ابوحميده . هذا رجل عركته الأيام وعجنته وصفته فجعلته كالذهب الخالص دون شوائب .

درت بالسيارة ولمحت ذلك الصهيونى الملعون الذى سوف يتحرش بى فى لزلجة وضعة تترقنى . قلت لنفسى :

- الرئيس مبارك لن يزور إسرائيل الا فى اللحظة المناسبة وقد انتهت  
ايام اللقاء السرية لبيع البترول .  
وقررت الابتعاد عنه .

اندفعت بالسيارة إلى آخر طابق بالجراح ونزلت السلالم على قدمي  
وكأئننى اهبط لمواجهة مصيرى فى هاوية لا قاع لها .

ماذا اقول لأبنى ؟

فى البهو رأيتهما امامى . زهية فى ثوب قشيب فاخر وابنى فى حلة  
داكنة . بمفردهما جالسان واقتربت منهما لأضع مصيرى بين ايديهما .  
اقدام لهما رقبتى لا لأتحدث اليهما فقد مضى وقت الحديث .

هبت زهية واقفة وقبلتني قبلة خفيفة وهى تقول :

- أهلا سعادة المستشار .

قربت وجهها منى ولامست وجنتها خدى لكن شفقتها لم تلمسانى كما  
اننى لم ألمسها بشفتى .

محمد نجيب مد لى يده قائلا :

- أهلا سعادة المستشار .

وبعدها اضاف :

- الدكتور أحمد ينتظرك وسوف اخبره .

لم يقل أبى او دادى . استراح قلبى . تنفست بقوة وأنا أتأمل عيني  
زهية الواسعتين وقد اصبح وجهها يميل الى البياض وقد فارقتك تلك  
السمره القاسية من العمل فى الحقول .

حذاء فاخر يزين قدميها وقد جلست معتدلة وعقد على جيدها وقطعة من  
البلاتين على صدرها البارز .

سيدة مجتمع . اميرة ارستقراطية فى جلستها الهادئة . القيت عليها  
نظرة من قدمها الى قمة رأسها وتوقفت عند عينيها لعلى اقرأ فيهما شيئا .

هذا الهدوء لابد أنه يخفى وراءه ألما فظيعة وينابيع من الغضب .  
هاهى لحظة الحساب قد حلت وأنا أول من يعرف قدر جرمى فى حقها ،  
سألتنى :

- كيف حال سمو الأميرة جويدان ؟  
قلت :

- ليست سعيدة فى جنيف وتحس بوحدة شديدة .  
سألتنى :

- عندك اطفال ؟

قلت :

- ابنة واحدة ابسنت .

قالت :

- رينا يخليها لك .

قال ابنى وهو يقوم انه سوف يصعد لصحبة الدكتور أحمد . وقام  
مستئذنا منا فى أدب جم .

دخلت فى الموضوع مباشرة . قلت :

- هاهى تحققت امنيتك . محمد نجيب اصبح رجلا .

تجاوزت عن كلماتى ، قالت :

- الدكتور أحمد يصر على ضرورة استكمال له دراسة القانون فى فرنسا  
ويود منه دراسة القانون الدولى الى جانب العلوم السياسية والقانونية بينما  
هو يتعجل العمل فى وزارة الخارجية .

قلت لها دون روية :

- الدكتور أحمد على حق .

سألتنى :

- وأنت ما رأيك ؟

صمت وأنا أبلع ريقى .



كان سؤالها مفاجئاً . تسألنى رأبى فى مستقبلى محمد نجيب ؟ وضعتنى فى بؤرة الأحداث مباشرة بطريقة حذرة . قلت لها :

- رأبى من رأبى الدكتور أحمد . العمل فى وزارة الخارجية شاق والتخصص فى القانون الدولى مكمل لدراسة العلوم السياسية والاقتصادية .

حل خال عباس أبوحميدة ، قمنا لاستقباله . وقفت زهية وحضنته فى شوق وهى تأخذه بين ذراعيها . اعتذر الرجل عن التأخير بسبب المطر وقال ضاحكا :

- هدومى بلى بينما الشمسية فى يدى .

وقال مصححا :

- أسف .. المظلة .

قالت زهية مكملة :

- أنا لا أجد استخدام المظلة مع كثرة رحلاتى الى اوربا .

رمقتها بنظرات خفية .

تحدث عن رحلاتها الى اوربا كأميرة ارستقراطية . غبت عنهما لحظة ورأيتها وقدهاها غارقتان فى الطين وصوتها ينطلق بالغناء وله رنين فى الحقول لا يزال طنينه فى اذنى حتى هذه اللحظة بل اننى سمعته لتوى :

ياباجور الساعة اتناشر  
يامقبل عالصعيد

رأيت العزبة واناسها ودوابها وحالة الفقر التى تعيشها وتلك الحالة الروحية التى تسيطر على اجوائها فصدرت عنى آنة مكتومة وارتعش وجهى ويدي فسالتنى زهية :

- هل أنت على مايرام ؟

هذه عادة تصاحبنى اذا سرحت وانشغلت بشىء حميم ويبدو اننى ورثتها عن ابى . يهتز نصف وجهى ويدي . قلت :

- نعم . نعم .

قالت زهية :

- لم تتغير بإسعادة المستشار .

فاتنى قصدها ، قلت حزينا وتقطبية على وجهى أحسها ولا اراها :  
- كلنا تغيرنا يازهىة هانم .

غيرت جلستها وضمت ساقها ومالت ناحيتى . قالت :  
- ربما .

وارتسمت على شفيتها ابتسامة حلوة زادت من طلاوتها غمزة عينها وهى  
تمد يدها لتسوى خصلة من الشعر سقطت على جبينها . شعر اسود غزير .

قلت لها مستدركا :

- لقد زادتك الايام ، يازهىة هانم ، جمالا على جمال .

ضحكت من قلبها . التفتت الى خال عباس برأسها . قالت :  
- كرامة كان دائما يعاكسنى فى صباى وأنا كنت أحبه . أول حب لى .

قلت لها متبسطا :

- الله يجازى شيطانك يازهىة .

أسقطنا التحفظ بيننا . قالت كرامة وقلت لها زهىة .

نظرت فى عيني ضاحكة .

قلت لنفسى :

- قطعنا نصف الطريق فى لحظة .

قال خال عباس :

- تلك كانت ايام ..

صمت خال عباس عن الكلام ولم يكمل جملته ، نقلت عيني عن زهىة  
والتفت اليه . كان ينظر متطلعا الى البهو ويستعد للقيام . نظرت . الدكتور  
أحمد قادم . يسير فى تؤدة . محمد نجيب الى جواره . وقفنا جميعا .

يسير فى بطء لكنه معتدل القامة مرفوع الرأس ولا ينكب على عصاه  
محنى الظهر .

يتقدمان منا . وحانت منى نظرة الى البهو - وكنت منذ قدومي وجلوسى الى زهية لا أرى حولى سوى بيوت عزبة عويس وطينها وحقولها . وفى اذنى غناء زهية وطلاوة صوتها .

افسحنا مكانا للدكتور أحمد الى جوار زهية وجلس محمد نجيب على مقربة من . خال عباس وظلت زهية فى جلستها على مقربة منى .

صوت الدكتور أحمد قوى وكلماته واضحة ومحددة ومن يسمعه متحدثا تصيبه الدهشة فكيف لهذا الجسد الضعيف ان يخرج صوتا قويا مثل هذا الصوت .

لم يكن الدكتور أحمد السيد باشا فى شبابه مترهل الجسد ولكنه كان رشيقا مع قامة فارعة واصبح الآن جلدا على عظم والبدلة الواسعة عليه تخفى نحافته الشديدة لكنه يقطع خطواته فى ثبات ويجلس مفرودا وصوته يغمر المكان .

رحب بى قائلا :

- أهلا سعادة المستشار .

وكان محمد نجيب يمسك مجلدا فى يده فى حرص فتناوله الدكتور أحمد وفر صفحاته ، وقدمه الى خال عباس ، قال :

- هذه مذكرات ابنتى الدكتورة اوديت . ضمنيتها المرحومة آراءها فى الحركة الشيوعية فى مصر منذ انشغالها بالعمل السرى وسردت فيها قصص الوحدة والخلافات بين القيادات المثقفة والعمالية - وكانت المرحومة مهمومة بالوحدة وفى كثير من الأحيان نفذت سياسات تكتيكية مخالفة لقناعاتها حرصا على الوحدة .

لقد حققت هذه المذكرات التى كانت تكتبها يوميا ووضعت لها عدة هوامش توضح الأحداث وفصلت الهوامش عن المتن .

وأكمل الدكتور أحمد قائلا :

- لا اعتقد ان هناك ما يمنع حاليا من نشر هذه المذكرات فقد مضى عليها اكثر من ربع قرن ولن تسيء الى احد وأنا على استعداد لنشرها على

حسابى فى لندن أو باريس . هذه امانة .

كان خال عباس ابوجميدة يستمع ويهز رأسه ولا يعلق .

لا ادرى ماذا كان يدور فى ذهنه ؟ فقد طوح رأسه الى اليمين واستغرق فى تفكير عميق وهو يستمع الى الدكتور أحمد .

كنت أظن ان خال عباس سوف يقول شيئاً يعبر عن تلهفه لنشر هذه المذكرات لكنه فضل الصمت . ماذا جرى ياخال عباس ؟ هذه مذكرات ثمينة . قطعة من تاريخ مصر وصاحبها ماتت مقتولة كما يقال فى غمرة الصراع على السلطة بين جمال عبدالناصر واللواء محمد نجيب .

من صمت خال عباس ابوجميدة أدركت ان الأمر ليس سهلاً على نفسه وان الرجل له حسابات معقدة تمنعه من الاندفاع أو القبول دون شروط .

هب الدكتور أحمد السيد باشا واقفا ، قال :

- هيا بنا . مائدة محجوزة لنا فى المطعم .

قمنا جميعاً .

تقدمنا ناحية المطعم . يعرف طريقه وكأنه قد حل بهذا الفندق عشرات المرات . سرنا خلفه . هو فى المقدمة والى جواره زهية من ناحية وأبنى محمد نجيب من ناحية وفى الخلف على بعد خطوتين عباس ابوجميدة وأنا .

كانت المائدة محجوزة وجلسنا كما اراد . زهية الى جوارى ومحمد نجيب - ابنى - بينى وبينه والى جواره من الناحية الأخرى خال عباس ابوجميدة .

ودخل الدكتور أحمد باشا فى موضوع مذكرات الدكتورة اوديت مباشرة دون لف أو دوران ، وسأل عباس ابوجميدة عن سبب تحفظه على النشر . قال :

- أود أن اعرف تحفظاتك على النشر؟

خال عباس ابوجميدة حتى تلك اللحظة كان مستمعاً ولكن الباشا الأريب

ادرك أن للرجل تحفظات .

قال خال عباس :

- تاريخ النشر جزء من كتابة المذكرات . وربع قرن من الزمان ليس بالزمان الطويل .

افصح خال عباس صراحة انه يرفض النشر فى هذه الآونة . بينما المذكرات فى يده .

ضحك الباشا ، قال :

- الا توافقنى يارفيق عباس على ان الحقيقة لها الأولوية والأفضلية وان الايديولوجية دائما ناقصة .

قال خال عباس على الفور ضاحكا هو الآخر :

- الحقيقة نسبية ياباشا .

اجاب الباشا قائلا :

- معك حق يازفيق .

كنت أتابع حديثهما فى لهفة وقد عجزت عن سبر أغوار خال عباس ومعرفة سبب رفضه للنشر وكنت اظنه سوف يطير فرحا بالنشر . هذه من اسرار الحركة اليسارية فى مصر .

اعد الجرسونات المائدة . اباريق الشاى والقهوة والحلويات وكذلك بعض الكحوليات الخفيفة الفاخرة . كما أن اطباق الفاكهة كانت تزين المائدة الى جانب الساندويتشات الصغيرة .

سألتنى زهية ، قالت :

- قهوة أم شاى يساعدان المستشار؟

قلت :

- قهوة من فضلك .

بيدين مدربتين ، صببت لى القهوة . ثم صببت الشاى لخال عباس

ابوحميدة دون سؤاله وكأنها تعرف عاداته . اما الباشا فقد تناول عصير الليمون وبعدها صبت لمحمد نجيب ولها القهوة .

يذاها قويتان . تزينهما الخواتم والغوايش . لكنهما توحيان بأنهما لفلاحة وليست اميرة . يدان عرفتا مسك الفأس والجاروف وليس الملاعق الذهبية . وكانت قبضة يدها اليمنى عروقتها بارزة ونافرة على نحو ظاهري وكذلك بقعة سوداء لامعة كالوحمة على كفها لم ألمحها عليها من قبل .

قلت لنفسى لم أر هذه الوحمة بسبب الطين الذين كان يلوث كل شىء فى عزبة عويس كما ان جلدها فى السابق كان يميل الى السمرة اما الآن فقد اصبحت بشرتها تميل الى البياض .

أعدت لى القهوة كما تعدها زوجتى الاميرة جويدان ففقدت القهوة مذاقها ونكهتها فى فمى .

كنت اطمع فى أول لقاء لى مع زهية ان تقدم لى القهوة من كنكة صغيرة وهى جالسة متربعة على الأرض بين قدمى .

لكننا تغيرنا .

هى ليست زهية عاملة التراحيل فى عزبة عويس وأنا لست كرامة بن سرحان السقا . وجنيف ليست عزبة عويس .

مع رشقات القهوة سرحت بعيدا ، أخذنى الماضى عنهم ولفحتنى شمس الحارقة . وغرقت فى همومى الصغيرة التى تعذبنى . ابنى جالس الى جوارى واحس بانفاسه وارى نفسى سارحا فى الحقول كالمجنون بالجلباب الواسع من حوض الى حوض منقززا من كل ما يصادقنى ناقما على التراب والطين ومياه الرياح العطنة ووجوه الناس الكالحة حائما حول قصر اللواء عويس مبتهجا بأريج شجر المانجو متملسا فيه انفاس الاميرة جويدان ضاربا فى الأرض فى وحدة وهمساتهم تصلنى ساخرة ولد سرحان السقا "مخاوى" جنية لحست عقله وتسوقنى قدمائى من ناحية الى اخرى وصوت الكون له ازيز يدفئنى للسير والجلوس على شجرة ميتة فى مواجهة شرفة الاميرة جويدان .

كانت زهية تسخر منى وتقول لى اميرتك حوضها لا يتسع لفأر وصدورها  
لا يرضع بعوضة وهامى ذى الأميرة أصبحت زوجتى وزهية أصبحت زوجة  
الدكتور احمد باشا السيد وتصب لى القهوة بيديها .

جاءنى صوت زهية فى اللحظة التى كنت اتسلق فيها شجرة الجميز  
الميتة لأجلس بين اغصانها فى وقت الظهيرة ، قالت :  
- ما رأى سعادة المستشار؟

كانت عيناي متعلقتين بأبريق القهوة ، فتطلعت اليها متسائلا وعلى فمى  
دهشة ، ويبدو انها ادركت شرودى ، فأكملت قائلة :  
- تنشر المذكرات بالفرنسية أولا وبعد ذلك بالعربية .

وشغلت نفسها وشغلتنى بصب القهوة لى فاعطتنى فرصة لترتيب  
افكارى .

كانت الانظار تتعلق بى ، وارتدت مجاملة الدكتور أحمد باشا ، فقلت :  
- اعتقد انه من الأفضل نشر المذكرات باللغتين الفرنسية والعربية فى  
وقت واحد .

ابتسم الدكتور أحمد باشا السيد اما خال عباس ابوحميده فقد طوح  
رقبته ورأسه وغرق فى التأمل ولم يظهر لوما لأننى خذلتة .

كان ابنى محمد نجيب يتابعنا صامتا .

اشتقت لسماع صوته ، توجهت له بالسؤال ، قلت :  
- ما رأى الجيل الجديد ؟

قال ابنى :

- مع احترامى الشديد لرأى خال عباس فان الباشا على حق ففى هذه  
المذكرات اجابات شافية على كثير من التساؤلات وتكشف بدقة دورهنرى  
كوريل وتلقى ضوءا على اسباب الانقسامات المتلاحقة التى عانت منها  
الحركة اليسارية فى مصر كما ان هذه المذكرات تلوم اليسار بسبب موقفه  
فى ازمة مارس ١٩٥٤ وهذا تاريخ من المستحسن قراءته هذه الايام .

طلالت هامتى حتى مس رأسى سقف المطعم من الفرحة . هذا ابنى  
وكدت اقفز من جلستى لأقبله . وحانت منى نظرة الى زهية فوجدتها تبتسم  
لى وكأنها تقول لى الملعونة .  
- انظر . كيف انشأته وربيتة .

صوته هادىء . افكاره مرتبة . تحدث فى دبلوماسية . وتوقفت عند قوله  
”خال عباس“ وتساءلت بينى وبين نفسى : هل يقلد أمه ؟ أم يتردد عليهم  
خال عباس وقد اقنعتة زهية بأنه فى مرتبة خاله . كما انه يخاطب الدكتور  
أحمد السيد بالباشا ولا يقول له : ابى أو دادى أو اونكل !!  
هذا سر .

لأدع قضية المذكرات تشغلهم ولأتفرغ لشأنى ، فهذا ولى وقد وجدته  
وإذا كنت قد تخليت عنه فى الماضى هو وامه فالحاضر يجبرنى على  
احتضانه وأخذه الى صفى .

تفتت ذهنى عن خطة جهنمية وعزمت على تنفيذها على الفور . قررت  
دعوة ابنتى ابسنت لتلتقى بأخيها محمد نجيب وإن أترك لرابطة الدم  
تحطيم حواجز الصمت والرياء .

ابسنت تصغره باكثر من خمسة عشر عاما لكنها ”عفريئة“ اذا دعاها  
للرقص انهكت قواه وسبرت اغواره فى دقائق .

كانت جلستنا قد طالت ورأيت الارهاق على وجه الباشا وان كان صوته  
قويا ونبراته عميقة وكلماته متلاحقة خالية من التردد أو التلعثم ومن يسمعه  
ولا يراه ربما يظن انه رجل فى الأربعين من عمره .

هذا الرجل حنجرة شابة وحبال صوتية متينة مركبة على مجموعة من  
العظام التى يكسوها قليل من اللحم والى جانب الحنجرة ذاكرة قوية  
ولماحية وانشغال بالقضايا العامة .

اعادت زهية اليه شبابه أو على الأقل حافظت له عليه .

كنت أود ان أسأله عن فترة اعتقاله فى حملة سبتمبر الشهيرة التى



أودت بحياة السادات وكيف تحملها وهو فى هذه السن لكننى لم اتعجل  
السؤال الى جانب انه لم تكن هناك مناسبة لإثارته .

عرفت ابنته المرحومة الدكتورة اوديت المعتقلات فى شبابها وقد لحق  
الرجل بها فى اكتساب هذه الخبرة فى شيخوخته المتأخرة وكأنه قد عز  
عليه مفارقة هذه الدنيا الفانية قبل ان يحصل خبرة المعتقل .

يبدو ان خال عباس قد أعمل فكره فقال :  
- اذا كانت هذه رغبة الباشا فسوف أعمل على نشر المذكرات فى بيروت  
وفى باريس ولن يستغرق الأمر اكثر من ثلاثة أشهر .

قال الباشا متهللا :  
- بارك الله فىك يارفيق .

امسك خال عباس ابوحميده بالمذكرات ووضعها على المائدة ، قال :  
- هذه الأوراق فيها رائحة الحبايب وهى فى عيني .

كان من الواضح لى ان خال عباس ابوحميده لم يتنازل عن رأيه من  
الناحية السياسية لكنه غلب الناحية الإنسانية على الدوافع السياسية  
بسبب ظروف الرجل الصحية وكبر سنه ورأى ان يحقق له امنيته ربما  
تقديرًا لدوره وربما تقديرًا لدور ابنته الدكتور اوديت .  
قلبك كبير ياخال عباس .

لاشك لدى ان هذه المذكرات سوف تثير زوبعة بين اليساريين وتأتى  
اليهم كطعنة من الخلف من واحدة من المناضلات اللاتي رحلن وعباس ابو  
حميدة يشفق على الحركة من تبادل الاتهامات .

التاريخ لا يرحم .

ابنى يؤيد نشر هذه المذكرات بحثًا عن الحقيقة لكنه لا يعرف أن دماء  
قد سفكت وعائلات قد شردت وخال عباس يحرص على سمعة الموتى منهم  
قبل الأحياء .

كنت أتأمل زهية بعينين مفتوحتين ، لكن حواسى كلها مع ابنى الجالس

الى جوارى لا أرى وجهه وهو يحادثنى الا اذا التفت اليه لكننى احس بثقل جسمه واكاد اسمع دقات قلبه وهى تتجاوب مع الحان خافته ويتابعها بدقة او دقتين بأصابعه على المائدة أو بحركة حذائه اسفل المائدة تفضح فرحته بالحياة وبفتوته وشبابه .

الحقيقة لها الأولوية على الأيدولوجية . قلتها يادكتور أحمد السيد باشا وانت استاذ قانون شهير . قلتها "بعظمة" لسانك .

ليس من حقى أنا ايضا ان اقول على الملا بالفم "المليان" ان رابطة الدم لها الأولوية على العلاقات الطبقيه والاجتماعية وان الإسلام قد حرم التبنى لحكمة الهية .

رأيت من الحكمة القيام ، فأنا غريب بينهم ، وربما لديهم ما يشغلهم ، وهبت زهية واقفة تودعنى وتحملنى سلاماتها الى زوجتى الاميرة جويدان والى ابنتى ابسنت .

وصممت على دعوتنا على العشاء وتجرات وطلبت من محمد نجيب ان يزورنى فى مكتبى لصحبته الى مبنى الأمم المتحدة للتعرف على طبيعة العمل .

ايدنى الدكتور أحمد باشا السيد ، قائلا :  
- نعم . هذه فكرة طيبة .

قلت فى أدب :

- اذا اذن الباشا .

قال الرجل فى ثقة :

- هذا ابك . خذه معك غدا .

التفت الى زهية وجدتها تجاهد لتتماسك وقد سمعت ما سمعته . سحنتها تغيرت وصوتها ضاع وانشغلت بتوديع خال عباس وقد احتضننى وهو يربت على ظهرى قائلا :

- بارك الله فيك ياسعادة المستشار .

اما محمد نجيب فقد ودعنى فى ثبات على وعد بالقدوم الى البيعة فى الساعة العاشرة صباحا . وفتحت زهية حقيبتها وقدمت لى لفافة قاتلة :  
- هذه هدية صغيرة للعروسة . وهذه هدية للأميرة جويدان .

تناولتهما منها شاكرا وأنا انظر فى عينيها . كانت كالفرخة المذبوحة تفرفر . يدها ترتعش . رأيت فى داخلها الفلاحة المسكينة المكسورة الجناح .

وقررت الذهاب على عجل قبل ان تنهار قواى ، واعترف .

وخيل الى اننى اسمع صوتها ينادينى ، لكننى لم التفت الى الوراء وتابعت سيرى فى الطين بعيدا عن شجرة الجميز اليابسة ورمحت حتى الرياح ودرت عائدا ووجدتنى امام دار أم حبيبة زوجة الشهيد عكاشة ونهق حمار نهيقا افزعنى وغيب عنى صوت زهية وهى تتوسل الى بالبقاء وضربت فى طريقي بعيدا حتى وجدتنى داخل سيارتى ، فانطلقت عائدا الى بيتى .

( ٤ )

دق جرس التليفون فمزق صمت الليل وقمت متكاسلا . جاءنى صوت  
ابنى فى كلمات متلاحقة فى ثبات لكن رنة الفزع فيها ، قال :  
- أسف على الإزعاج فى هذا الوقت . لكن الأمر عاجل ياسعادة  
المستشار . أمى فى المستشفى فى حالة خطرة للغاية والباشا كلفنى  
بالاتصال بحضرتك .

كتبت اسم المستشفى على عجل ، وسألته عما جرى ؟  
اصيبت بنزيف حاد ، وطبيب الفندق حولها الى هنا ، وفصيلا دمها غير  
متوافرة .

طمأنته . قلت له :  
- سوف احضر حالا .

تحققت مخاوفى . رأيتها كالفرخة المذبوحة فى العشية وسمعت صوتها  
وهى تنادىنى لكننى تغاضيت عنها وتابعت طريقى .

ارتديت ملابسى ، واسرعت الى التليفون ، واخطرت خال عباس  
ابوحميده فى كلمات قليلة ، وقد ساورنى يقين ان فصيلا دمها لن تتوافر الا  
فى ابناء عذبة عويس .

شمرت ذراعى والقيت نظرة على عروقى ثم وضعت الجاكت وهرولت  
خارجا وفى طريقى الى المستشفى مررت على فندق خال عباس فوجدته  
ينتظرنى فى البهو والى جواره ثلاثة من العمال كلهم على استعداد للتبرع  
بدمائهم .

كانوا جماعة ، قلت :  
- هيا بنا .

نبهنى خال عباس ابوحميده الى ان الصليب الاحمر الدولى به بنك للدم  
وقد أحسست بالحرج لأن خال عباس ايقظ الوفد العمالى فى هذه الساعة  
وقلت له :

- البعثة مليئة بالشباب ولن يتأخر واحد منهم عن التبرع .

قلت لنفسى : سعادة السفير عبدالرؤف الريدى سوف يكون أول  
المتبرعين وندمت لأننى لم اصحب زوجتى معى فى هذه الساعة .

غدا اطلب من الاميرة جلبهار ان تطلب من المترجمين المصريين فى  
الأمم المتحدة التبرع بدمهم .

مشكلة الدم لم تكن تقلقنى ، فنحن فى جنيف ويمكن استيراد الفصيلة  
المطلوبة من لندن وباريس بالطائرات ، وما يقلقنى : هو ماذا جرى لها ؟

رأيتها أمس كالفرسة فى قوتها وخيلائها فماذا اصابها ؟

كنت أود ان انفرد بخال ابوحميده لسؤاله لكن الرفاق منعونى من  
الحديث . وبعد قليل وبينما السيارة تندفع بنا ، قال خال عباس ابوحميده :  
- هذه ليست أول مرة يصيبها النزيف . مسكينة .

وعاد الى صمته ولم يفصح .

انتابتنى كل الهواجس والمخاوف عليها . هل هو السرطان اللعين ام انها  
صدمة عصبية فجرت الشرايين والأوردة فى جسدها ؟

كنت أعتقد ان حالة زوجها الدكتور أحمد باشا هى الخطيرة لكن اتضح  
لى الآن انها مريضة بمرض مزمن وفى حاجة الى علاج مستمر وربما سبب  
ترديدها على جنيف لهذا الغرض .

نادتنى أمس . سمعت صوتها لكن الطنين فى رأسى منعنى من الالتفات  
الى الوراء . جاعنى صوتها ضعيفا كصوت النداهة فأسرعت الخطى بعيدا  
عنها . قدرى ان أهرب منها فى اللحظة التى تحتاجنى فيها عن غير قصد .  
قوة خفية تفصل بينى وبينها ولا تجعل سبلنا تتقابل وفى كل مرة هربت منها  
تعذبت بعدها سنوات طوالا .

السماح والمغفرة ياربى فاننا لست شريرا الى هذا الحد .

حجزونا فى غرفة استقبال على مقربة من الباب الخارجى . الدكتور احمد باشا يجلس ساهما ووجهه قسماته ميتة . اقتربت منه فحاول القيام فرجوته الجلوس ، قال :

- أسف ياسعادة المستشار .

سألته مباشرة عما حدث ، قال :

- قامت لتلحق بك أمس ، وسمعتها تناديك وهى تصرخ فطلبت من محمد نجيب ان يتطلع الأمر ، فوجدها تتجه الى الاستعلامات وتطلب ان يزورها طبيب الفندق فى غرفتها . وصحبها محمد نجيب الى غرفتها وعاد الينا . ادركت ان الأزمة قد عاودتها . اجرى لها الطبيب الإسعافات الأولية وطلب تحويلها الى المستشفى على الفور ونقلتها عربة اسعاف . وهنا ساعت حالتها حتى اوشكت على الوفاة ولا تزال حالتها خطيرة وحرجة للغاية .

ادركت ان الأمر يتجاوز مسألة نقص فى فصيلة دمائها وان خال عباس قد اخفى عنى شيئا فقد كان على علم بما وقع لها .

قلت شيئا للدكتور أحمد باشا السيد من قبيل تمنياتى لها بسرعة الشفاء واسرعت الى خال عباس استوضحه ما خفى عنى . قلت له :

- ماهى الحكاية بالضبط ياخال عباس ؟

قال الرجل بسماحته المعهودة :

- ربنا يجعل العواقب سليمة .

خال عباس يعرف ولا يفصح ، الفلاح يفضل الصمت على الكلام وبدت لى الحادثة باكملها كقصة انتحار من قصص السينما المصرية الخائبة ، وكنت انوى اخطار سعادة السفير عبدالرؤف الريدى فأجلت قرارى .

ماذا جرى لزهية لحظة خروجى ؟ ومتى غادر خال عباس ابوجميدة الفندق ؟ ساورتنى شكوك كثيرة .

توجهت الى ابنى محمد نجيب ، وجدته مضطربا والهلع فى عينيه ، سألته :

- ماذا جرى ؟

قال :

- هبوط بالقلب مع نزيف حاد . وهذه ليست أول مرة .

سألته :

- وهل كانت تتناول ادوية معينة ؟

قال :

- كنا جميعا نعتقد انها شفيت تماما بعد ثلاثة اعوام من العلاج .

سألته :

- هل كانت تنوى اجراء فحوصات طبية فى جنيف ؟

أجابنى ، قائلا :

- هذا سبب حضورنا الى جنيف وبعد غد عندها موعد مع طبيب

متخصص .

حادثتى ابنى دون مراوغة واسترحت الى حديثه .

بعد ساعة نزل الينا طبيب واخطرنا بايجاز بحالتها الصحية وسمح  
لشخص واحد بزيارتها مدة خمس دقائق ، فاقترح الباشا ان يصعد اليها  
محمد نجيب .

قال الباشا :

- لا يقوى قلب الام غير رؤية الابن .

وجاءنا على الفور موظف حسابات فانشغل الباشا بكتابة عدة شيكات له  
تحت الحساب .

الساعة تقترب من الحادية عشرة ليلا وجلست الى جانب خال عباس ابو  
حميدة ورفاقه وتحديثنا قليلا حتى نزل الينا محمد نجيب . توجه الى الباشا  
وبقينا فى جلستنا .

رأيت علامات الأرتياح على وجه الباشا فى جلسته ، اطمأن قلبى قليلا ،

قال :

- الحمد لله ياربالة . وان كان الأمر يتطلب جراحة غدا أو بعد غد .

اسرع اليه خال عباس وأنا خلفه ، قال لنا الباشا :

- يجب إزالة الرحم .

- خفق قلبي .

قلت لنفسى : أبناء الفقراء يسقطون قبل الاوان . تهدم الرحلة الى  
المجد وتقرى اكبادهم وتخصى رجالهم وتمزق جدران ارحام النسوة دون  
حمل او ولادة .

الباشا اذا جلس جلس معتدلا واذا وقف وقف منتصبا وزهية التى فى  
عمر ابنته رحمها ينزف دما وقد هدتها الرحلة من السفح الى القمة .

قال لى خال عباس :

- مسكينة . تعبت فى حياتها . هدتها الغربية .

- نظرت اليه مستفسرا ، اكمل :

- عاشت غربية وبعيدة عن طين عزبة عويس . الطين له رائحة وملمس  
والخضرة فيها رحيق الحياة ومن يحرم من هذه النعمة يصبح كالشجرة  
اليابسة .

كان يحدثنى كفلاح ، قلت له :

- معك حق ياخال .

استرحت الى حديثه ، قال :

- أنا فلاح وافهم سر الوجود . العزبة حياة متجددة .

وابتسم . غمز لى بعينه . رأيت اسنانه تلمع . قال :

- هذا هو التطور الخالق ياسعادة المستشار .

ضحكت وقد تذكرته عندما وبخنى بسبب قولى له : الأرض خراب .

أحسست انه يحدثنى عن نفسى وانه يرمى الى شىء بحديثه عن غربة  
النفس فانا ايضا تركت العزبة وقطعت صلتي بها بعد وفاة والدتى وتزوجت  
ابنة الاقطاعى السابق وياوران الملك فاروق وغربت وشرقت وغرقت فى مياه  
أسنة .



تنبتهت وخال عباس يقول لى همسا :

- الرئيس السادات رحمه الله وغفر له عرف السر وحرص على العيش  
وسط الحقول فى عزية ميت ابوالكوم وفى القناطر الخيرية لكنه صنع ريفا  
مزيفا . ديكورا . كانت تطلعاته ونزعة الخيلاء فى اعماقه أقوى من فطرته .  
رحمه الله ، خرب الريف فى عهده وجاع . بارت الأرض و ....

بعدها قال خال عباس متألما :

- هذه اوجاعى ياسعادة المستشار . اعذرنى .

استمعت اليه صامتا .

طلب الباشا منا التوجه الى النوم ، قال :

- بارك الله فيكم جميعا .

عرضت ان ابقى معه او اصحبه الى الفندق ، قال :

- سوف انتظر ساعة اخرى ، ربما يسمح لى بالصعود اليها .

سألت خال عباس :

- ما الرأى ؟

اجابنى خال عباس ، قال :

- الباشا على حق . وجودنا الآن لا فائدة منه .

اشار لرفاقه بالقيام فقاموا . عرضت عليه ان اصحبهم بالسيارة الى

الفندق ، لكنهم رفضوا .

قلت :

- حتى ميدان المحطة .

قال عباس أبوحميدة :

- الجو منعش . والهواء ليس باردا والتمشية على الأقدام محبوبة .

تمسكت بدعوتى لهم ، مخى عاجز عن التفكير ، ووجدت فى الحديث

اليهم ما يشغلنى عما يدور حولى ، فزهية راقدة فى سريرها وزوجها

ينتظرها هو وابنها ووجودى فى المستشفى قد يسىء اليها ويثير شكوكا

لدى زوجها وهذه ليست ساعة فضائح قديمة مضى عليها اكثر من ربع قرن .

بى رغبة قوية فى سؤال خال عباس ابوحميده عما حدث لحظة خروجي ولماذا هرولت زهية خلفى ونادتنى ؟

داخل العربة تحدثنا عن الجو بينما عاد عباس ابوحميده الى صمته ورفض الإفصاح عما جرى فى الفندق فى اللحظات التالية لمغادرتى لهم ، وقال لى ردا على اسئلتى :

- ياسعادة المستشار ربنا يجعل العواقب سليمة ؟

ماذا يقصد ؟

هذا الصمت يضايقنى ، والرجل فيما يبدو لى يعرف شيئا ، وأنا ليس فى وسعى كشف أوراقى أمامه بعد أن أخفيت السر لمدة ربع قرن أو يزيد .

قلت له فجأة :

- محمد نجيب يذكرنى بشبابى وحيرتى فى اختيار وظيفة .

نظر اللى بجانب وجهه ، وبعد فترة ، قال :

- محمد نجيب يدير مكتب الباشا وقد حصل على عدة دبلومات فى القانون ويود التفرغ للمكتب بعيدا عن قيود العمل فى وزارة الخارجية .  
وعاد الرجل الى صمته .

وصلنا الى الفندق ولم أحصل على غايتى منه فدعوته الى فنجان شاي فى بهو الفندق وجلسنا بمفردنا وقد سعد رفاقه الى غرفهم .

هى لحظة فاصلة بين حياتين ، وقد فانتنى تلك اللحظة عندما نادى على زهية وهرولت خلفى فتركتها وصممت اذنى عنها وتابعت طريقى لا أعرف فى ردهات الفندق ام فى أزقة وغيطان عزبة عويس . تفجرت ايامى فجأة امامى فنقلتنى من الحاضر الى الماضى وحجبت عن مسامعى صوتها ودبيب قدميها .

تركت ابنى لها فخسرت الماضى وهانذا اخسر مستقبلى ايضا بسبب

حماقتى وربما نذالتي .

ولفحنى الهواء الحار والطنين ولفنى صوتها الرنان وهى تغنى قائلة :  
يا بهية خبرينى .. على قتل ياسين  
وعد ومكتوب على .. ومسطر عالجبين  
وانا كل مقول التوبة  
ترمينى المقادير .

لعبت المقادير لعبتها وسهلت لى الزواج من الاميرة جويدان وهامى ذى  
تلعب لعبتها مرة اخرى وتفرق بينى وبين ابنى بعد ان جاءت زهية الى  
جنيف بنفسها وسهلت لى اللقاء بابنى ، ماهو مصيرى اذا قضت زهية  
فجأة ولم تبح لأحد بالسر فساعتها لن يصدقنى أحد .

صراعى مع المقادير ، وقد امضيت حياتى كلها عاشا فى الوهم ، وعلى  
ان امسك بأطراف الحقيقة لأبنى لحياتى عالما آخر أشد صلابة ورسوخا  
غير ان قدرى ان اعيش فى محاربة طواحين الهواء وكلما اقتربت من بغيتى  
رمتنى المقادير بعيدا وطوحت بى فى اليم .

قال الدكتور أحمد السيد باشا :

- خذ هذا ابنك .

وفى هذه اللحظة تجرى زهية خلفى وتصرخ وتنادينى لكننى اصم اذنى  
عنها وأولى مدبراً كالحصان الهائج فى طريقى .

سرى فى جعبة هذا الرجل الجالس أمامى ولا يفصح ، وكيف لى أن  
أشد الكلمات من فمه شدا ؟

طلبت لنفسى كأسا من الويسكى ، وتناول خال عباس ابوحميده مياها  
مغذية ، قال :

- هذه المياها لا أجدها فى براغ . هناك اصناف اخرى متوافرة بكثرة  
لكنها لا تروقنى ، فهذه المياها تفتت حصو الكلى ولها فعل عصير القصب  
فى تفتت الحصو وإدار البول .

سألته اذا كان فى حاجة الى فحوصات طبية ، قال :  
- من هذه الناحية الرفاق فى براغ يقومون بالواجب ، شكرا .

كانت مذكرات الدكتورة أوديت على المائدة ، وتبينت ان خال عباس  
أبوحميدة قد أخذها فى يده عند ذهابنا الى المستشفى لسبب غامض وقلت  
لنفسى ، خاف ان يتركها فى الفندق .

هذه جنيف ياخال وليست عزبة عويس أو براغ حيث تمتد ايدى  
المخبرين للأوراق الخاصة ، وقلت لنفسى ربما يخاف من رفاقه ، كما انه  
ربما ليس وحيدا فى الغرفة .

لعنة الله على الخوف .

شربت كأسى ونظراتى زائفة وأحس بصداع شديد ، قلت :  
- رأيتك ياخال مترددا فى مسألة نشر هذه المذكرات .

اجابنى ، قال :

- ياولدى هذه مسألة معقدة وأنا فلاح أبا عن جد ولست مؤرخا .

قلت له ضاحكا :

- ياخال أنت الخير والبركة .

من إجابته تأكدت ان الرجل يبادلنى الحب كواحد من عزبة عويس لكنه  
لا يبادلنى الثقة ولا يدلى لى برأيه بل يحجب عنى أيضا ما يعرفه ويهمنى .

هؤلاء الشيوعيون لديهم لوتة هى السرية والشك فى الآخر على الرغم  
من ان جوهر مذهبهم هو تجميع الناس . يفتح لى قلبه ويأخذنى بالأحضان  
لكنه لا يقربنى منه ويطلعنى على مشاغله الحقيقية .

هذا عيب لمستة فى بعض الشيوعيين الذين التقيت بهم فى سنوات  
الدراسة وفى الحياة وتلامست خطوطى بهم عن قرب .

ها . ويدعون انهم سوف يخرجون الجماهير العريضة عن صمتها  
ويدخلون بها التاريخ .

طلبت كأسا ثالثة من الويسكى ، قلت :

- ماهى حكاية ابنتك ؟

أخذ نفسا عميقا وكأنه يعد نفسه للبوح بأخطر أسرار حياته ، قال :  
- ياسعادة المستشار . ابنتى كسرت قلبى . عذابى فى الدنيا والآخرة .  
سامحها الله . التحقت بأشد الجماعات الإسلامية تطرفا لإسقاط نظام  
الحكم بالقوة المسلحة . تدريب على السلاح وأضححت أشد تطرفا من  
رفاقها من الشباب . وسخرت ما تعلمته منى ومن أمها فى التنظير ونشر  
أفكار سلفية ذات بريق كاذب لتبرير عمليات العنف . القتل والاعتداء على  
الآخرين اصبح لديها كشراب الماء .

أضاف خال عباس وقد انطفأت لمعة عينية ، قال :  
- حكايات مؤسفة اذا رويتها لك . تملأ مجلدات .

سألته متعجبا ، قلت :

- وكيف جرى ذلك كله ؟

قال الرجل حزينا :

- جرى فى غيبتى . فى سنوات الاعتقال التى طالت عن الحد وفى  
سنوات هروبى المتلاحقة . رأتنى فى طفولتها وهم يعتقلوننى ودائما يعد  
منتصف الليل وكذلك رأتنى فى صباها وشبابها المبكر فامتلا قلبها بالحقد  
وبحثت عن ملاذ يوفر لها الأمان النفسى وفى الجامعة فى سنوات السادات  
الأولى اقتربت من تلك الجماعات .

قلت له مواسيا :

- هذا ثمن باهظ ياخال لسنوات من الكفاح .

قال الرجل :

- قلب هذه البنية كان متعلقا بى . فهى ابنتى الوحيدة ولم انجب بعدها .  
ولما رأتهم يأخذوننى منها قررت الانتقام من الجميع . منهم ومنى أيضا .  
هذا رجل آخر يبحث عن ابنته . هى حية وميئة بالنسبة اليه وقلت  
لنفسى : مصيبتك ياكرامة أخف ، فابنك محمد نجيب مسارات حياته  
معروفة لديك .

نظرت الى وجهه الباسم ، سمرته محببة ، وعيناه فيهما بريق نفاذ وان  
كانت تلك اللمعة الزاهية قد انطفأت وقد مال جسده الى السمنة قليلا :  
ياخال عباس . أنت لم تشرخك سنوات الاعتقال المريرة المتلاحقة ولكن  
كسرت قلبك ابنتك الوحيدة .

أشفقت عليه ، قلت :

- هذه نوية وسرعان ما تعود الى رشدها .

كنت أود أن اقول له أن الشباب قد فقد القدوة في عصر السادات لكننى  
أحجمت . بلعت الكلمات عن قصد ، فقد خجلت ان انتقد الرئيس السادات  
بعد موته ، بعد ان كنت معجبا به طوال حياته . كما ان منصبى يمنعنى من  
الثرة في هذه الأمور ، فالحيطان لها أذان .

هه . هذه أيامنا ياخال عباس وقد ضاع العمر في أحزان متلاحقة  
وأحلام لم تتحقق وكأننا عشنا كذبة كبرى رويناها بدمائنا وجرينا وراءها  
وصدقناها حتى بانث الحقيقة فجأة فانسحبنا داخل ذواتنا نجرجر أذيال  
الخبية .

الرجل يجلس أمامى صامتا ليس عن الكلام ولكن عن الحركة وكان  
الأيام قد هدته . قلت لنفسى ربما هى حكمة الزمان فى أواخر العمر التى  
تجعله هادئا فى جلسته محتفظا بأحزانه داخل جوانحه .

قال فجأة وعلى غير انتظار :

- ارهقتنى الغربية ياوحدى . أنا قلاح من المبتدى الى المنتهى . والعمل  
فى براغ دوامة لا تنتهى وكاننى عجل وربطوه فى ساقية .

وبعدها ضحك قائلا :

- الرفاق هناك مشغولون بقضايا عفى عليها الزمن ولهم ولع بترديد  
الشعارات الجوفاء وكأننا نعيش فى الربيع الأول من هذا القرن .

وبعدها أكمل قائلا :

- نحن فى مصر أول ضحية للحرب الباردة : هذه حرب طاحنة بين  
الشرق والغرب ولا ناقة لنا فيها ولا جمل .

يساورنى إحساس بأن الرئيس جمال عبدالناصر رحمه الله قد راهن على الحصان الخاسر وان الغرب لم يكن عادلا فى معاملة مصر طوال حكمه ، وهاهو ذا شيوعى من قمة رأسه الى أخمص قدميه يرى رأى .

كنت أود ان أفضض وأثرثر معه لكن طبيعتى الدبلوماسية وخوفى المتأصل منعانى من الكلام وفضلت الاستماع ، قال بعدها :  
- الكتلة الشرقية بأكملها فى طريقها الى التفكك . الدودة الآن فى جذر الشجرة .

هل يطاوعنى الرجل ويأخذنى على هواى ويخصنى بما يرضينى أم أننى صفحة مفتوحة أمام ناظره يغرف منها ويسقينى .

قلت لنفسى : أنت ياكرامة فعالك تفضحك . تركت العزبة وعملت بالخارجية دون واسطة فى عهد الرئيس جمال عبدالناصر عندما فتحت الخارجية ابوابها لأبناء الشعب المعدمين ، وبعدها اتصلت بالأميرة جويدان وجاهدت حتى أوقعت بها وألت اليك ثروتها . وفى عهد السادات سبحت به وحمدت متخلياً عما كان . هذه حقائق لا تغيب عن رجل عجنته السياسة .

الساعة تقارب منتصف الليل وما جئت لمعرفة من خال عباس أبو حميدة حجه عن قصد ، فما جئت معه فى هذه الساعة لمناقشة أبعاد السياسة الدولية ومستقبل الكتلة الاشتراكية وموقف مصر من الصراع الدائر ، اذن فالذهاب قد وجب .

قلت :

- سوف أعود الى المستشفى قربما الباشا فى حاجة ولزيادة الاطمئنان على حالة زهية .

أجابنى على الفور قائلاً :

- بارك الله فيك . والله هذا واجب .

شجعنى على الذهاب ، فقمتم . وودعنى قائلاً :

- الله يجعل العواقب سليمة .

نظرت اليه مستفسرا عن مقصده ، فربت على كتفى مطمئنا ، على باب  
الفندق قال لي :  
- زهية هانم تعبت في حياتها والبدن ياولدى تهده السنون .  
قلت له وأنا اتوجه الى عربتى ، معك حق .



فى طريقى الى المستشفى تبينت فجأة أننى لم أواجه الموت مواجهة حقيقية فى حياتى ، فقد قضى أبى فى السجن ، وماتت أمى وأنا بعيد عنها وحمدت الله على نعمته ورحمته بى .

حقيقة اذا كانت النفوس كبارا تعبت فى مرادها الأبدان - كيف خطر على بالى هذا البيت من الشعر؟ لا أعرف . ربما هو الليل والهدوء وقد سبحت أضواء الطريق فى غلالات ضبابية فضية اكسبتها مسحة ملائكية غامضة .

منذ التحاقى بالخارجية انشغلت بالأمور السياسية والاقتصادية وهجرت الشعر ونسيت أيامه ولياليه وكانت شغلته هى سلوى حياتى .

زوجتى لا تنتهى من رواية أدبية الا لتبدأ فى قراءة أخرى بالاضافة الى سقط المتاع من الكتب التاريخية والمذكرات وقد بدأت تتقمص الشخصيات الخيالية وتستشهد بأقوالهم وكأن الجن قد تلبسها .

هزل جسدها ورق صوتها وأصبحت على لسانها أقوال مثل قضى الأمر . الاحباط يؤدى الى الاستسلام وعدم الاكتراث لكنها زادت عنادا وشراسة وفتحت شهيتها للتمسك بتلك الطقوس الزائفة لتعديبى وتعذيب نفسها .

أحبيبتها وتعلقت بها فى شبابى ومازلت أحبها فى رجولتى واعتبرها الملاك الذى دخل حياتى فأسعدنى والنجمة التى أضاعت طريقى .

الحب له سبعة وجوه وقد عرفت منه وجهين طوال حياتى التى تجاوزت نصف قرن - وهذا ليس كثيرا على ولا أحس بندم أو تائب ضمير . نعم . تعلقت بزهوة وذبت تلهفا عليها عندما كانت عاملة تراحيل لا تملك شيئا فى حياتها الا جسدها العفى وقلبها الكبير وقد منحنتى الاثنىن معا . اما

زوجتى الأميرة فلم تمنحنى فى شبابى سوى طلعة بهية كنت أراها من  
وقفى فوق الشجرة وعندما حادثتها هناك على مقربة من الأهرامات  
وسمعت صوتها لأول مرة تغيرت سبل حياتى . سحرتنى . وأصبحت هائما  
بها على الرغم من اننى ضربت بالسوط على ظهرى بسبب سقوطها من فوق  
الحصان وكسر قدمها .

هاهى ذى زهية ترقد فى المستشفى وربما تجرى لها جراحة لإزالة  
الرحم قبل الأوان .  
مسكينة .

يخلق من الشبه اربعين وللحب سبعة وجوه ومن حق الرجل الحصول  
على مائتين وثمانين امرأة لحل تلك المعادلة البسيطة وبذلك تكتمل رجولته  
وخبراته ويابخت من تزوج واحدة من أولئك النسوة . هذا رجل دعت له أمه  
فى ساعة كانت فيها أبواب السماء مفتوحة فاستجيب لدعوتها .

كنا نسميه ملك الفسوق والعهر فى المدينة الجامعية وكان يتهمنا بالكذب  
والنفاق ، قائلا :  
- يأمة من الكذابين .

لم يكن متفوقا فى دراسته مثلى لكنه كان دوما من الناجحين . وكان  
يسمى الأشياء بأسمائها العارية دون مواربة . كان يقول لى مازحا :  
- أنت بالكذب عجنت ياكرامة . حياتك كلها كذبة كبيرة . تود التفوق ،  
لماذا ؟ لتبدل حياتك بحياة أخرى وتتسلق السلم الاجتماعى لكك سوف  
تخسر نفسك فور وصولك الى القمة ، مالها معيشة الفلاحين ؟ حلوة .  
وكان يفخر بأنه لن يعمل بعد تخرجه سوى بالتدريس - ويحبذا فى  
مدرسة بنات - وتعليم البنين والبنات الصدق قبل حشورعوسهم بالمعلومات  
الخائبة .

نسيته فى زحمة الحياة ، وفجأة تذكرته فأضاء لى طريق لوزان .  
ركنت سيارتى على مقربة من المستشفى ، وتسلت الى غرفة الاستقبال

فوجدت الباشا قد وضع بطانية على قدميه وكأنه لم يبدل جلسته منذ غادرتنا .

رحب بى قائلا :

- لماذا حضرت ياسعادة المستشار ؟

قلت :

- للاطمئنان .

درت بعيني فى الغرفة ، رأيت محمد نجيب فى الغرفة الزجاجية يتحدث الى فتيات الاستقبال ، ابتسمت .

قال الباشا :

- سمح لنا بالصعود الى المدام لمدة عشر دقائق . زيارة استثنائية ، فانت تعرف النظام هنا ، لكننى صعبت على الطبيب المناوب ، ويبدو انها طلبت رؤيتنا فور يقظتها .

سألته متعجلا :

- وكيف حالتها ؟

اجابنى ، قائلا :

- حالتها الصحية فى تقدم ، هذا ما اوضحه لى الأطباء ، ولكن نفسيتها ليست على ما يرام .

وقعت كلماته غريبة على مسامعى فى البداية وبعدها أحسست بالمخاطر التى تحيط بى .

هانحن أولاء تركنا عالم الطب والفيزياء الملموس لنطوف فى عالم النفس الرحب الغامض ، ومن وجه سهام مسمومة الى قلبها فأصابه فى مقتل غير كرامة ابن سرحان السقا ، ذلك الآخر ، الذى هو أنا .

قلت للباشا :

- ربما الهانم تشعر بخوف .

ضحك الباشا ، قال :

- قلب زوجتى لا يعرف الخوف ، وقد تبينت ذلك وتأكدت منه اثناء فترة اعتقالى التى استمرت عدة اشهر فى اواخر ايام الرئيس السادات ، فقد تعرضت لضغوط كثيرة من قبل اجهزة الأمن ، لكنها وقفت فى صلابة ، بل كانت تزورنى بصفة مستمرة .

وبعدها توقف الباشا عن الحديث ، قال :

- هذه قصة اخرى ياسعادة المستشار ، وليس من حقى ازعاجك بها ، ولكنها كانت اياما سوداء . واعذرنى ياسعادة المستشار فمن فى عمري هوايته الثرثرة ، وليس امامه بديل عن العمل سوى الكلام .

وفجأة اضاف قائلا :

- على كل حال ، الهانم من بلدكم وأنت قد عايشتها فى طفولتها وربما ادرى بها منى .

تسربت بالصمت .

أرى نفسى قد استدرجت الى بؤرة الأحداث ولم أعد على هامشها دون قصد منى ، وعلى ان انسحب .

درت فى الغرفة مهموما ، وعينائى لا تفارقان الباشا أو محمد نجيب . الباشا فى جلسته يقظ وأحسست به يصارحنى بأشياء ليرمى القفاز فى وجهى ويسألنى عن زهية فى صباها وشبابها المبكر جدا .

ما عرفته من زهية وسمعته عنها لا يقال ولا يروى وابنى الواقف هناك يداعب فتيات الاستقبال دليل معرفتى بها ، تلك المعرفة الحقيقية وليس المعرفة السطحية أو الخارجية .

عقدت العزم على الذهاب والانسحاب ، فزهية الآن نائمة فى فراشها ومهما وقع لها لن يسمح لنا بالصعود اليها .

نظرت فى ساعتى ، وبعدها قلت :

- بما رأى الباشا فى العودة الى الفندق والقدم فى الصباح ؟

هز الباشا رأسه موافقا ، قال :  
- معك حق ياسعادة المستشار .

قام من جلسته بمفرده ، وكنت اظنه فى حاجة الى مساعدة ، واقبل علينا  
محمد نجيب ، قائلا :  
- هيا بنا يا باشا .

تناول الباشا عصاه بينما تشاغل عنا محمد نجيب بتحية الفتيات والغمز  
بعينه لواحدة منهن شقراء لها طلعة جميلة وشفتان ممثلتان وذات قد  
فارغ . وأحسست بقلبي يقع ، لحظة غائمة لفتنى ، تذكرنى بنفسى ،  
وعندما توقفت عن الحديث الى نفسى ، وقلت كان ذلك فى شبابه وسنوات  
حرمانى ، وابنى من حقه القيام بما فاتنى ، فقد جمع المخد من اطرافه ،  
ولد بعد ثورة ١٩٥٢ ، وتربى فى كنف باشا ، فلم يعرف الحرمان .  
قسمات وجهى فضحتنى وكشفت عما يدور فى رأسى ، فتقدم منى ابنى  
قائلا :

- هذه فتاة سويدية ياسعادة المستشار . عاشت فى مصر فترة من  
الزمان لدراسة العربية والتاريخ الحديث للمنطقة . وكانت تحدثنى  
بالعربية .

التفت الى الغرفة الزجاجية بطريقة عفوية ، والقيت عليها نظرة ،  
فحيتنى بهزة خفيفة من رأسها ، وعند خروجنا ، وجدتها فى انتظارنا ،  
تحدثت الينا بعربية سليمة متمنية للمريضة الشفاء العاجل . بعدها  
انشغلت بابنى قالت :

- محمد . سوف اتصل بك فى الساعة السابعة والنصف صباحا .

قال ابنى لها :

- من فضلك يامارينا . لا تنسى .

ضحكت الفتاة وهى تسوى شعرها ، قالت :

- يامحمد انا لا انسى . لقد سجلت اسمك الى جوار اسماء المرضى

الذين يتعين على ايقاظهم قبل انتهاء نوبتى .

قال ابني ضاحكا وهو يضع يده على قلبه :  
- أنا مريض بالقلب يامارينا . لا تنسى .

احاطته ببديها وقيلته ، وقالت :  
- اذهب لتنام يامحمد .

قلت لنفسي : ابن الحرام .  
خرجنا .

قال الباشا مبتسما :  
- يامحمد اذا اردت العمل بالخارجية فى يوم ما عليك الابتعاد عن  
الأجنيبات .

قال محمد نجيب ضاحكا :  
- لقد ذهبت بعيدا جدا ياباشا .

كانت عربتى على مبعده خطوات ، والسماء قد امتلأت بغلالة كثيفة من  
الضباب الفضى المعتم ، والشارع تغرقه اضاءة قلقة رمادية تفسد مشاعر  
الحب .

هذه لحظة ترتعش فيها الموجودات ، وتصيبنى بكآبة داخلية ، وانتظرت  
حتى استوى الباشا فى جلسته ، فى الخلف ، اما ابني محمد نجيب فقد  
رأى من حسن الأدب الجلوس الى جوارى .

انطلقت بالسيارة فى طريقى الى الفندق ، قال الباشا :  
- شكرا ياسعادة المستشار .

تحاشيت الطرق المؤدية الى البحيرة عن عمد فى طريقى الى الفندق  
بسبب تلك الكومة من الضباب الراضحة على المدينة كالكابوس والمنبعثة من  
البحيرة كأنفاس شرييرة .

كنت فى اليومين الماضيين مشغولا بكيفية مواجهة الواقع ، وكشف  
اوراقى والمطالبة بابنى محمد نجيب غير ان دهاء زهية قد اوقعننى فى شبكة

متصلة من المشاكل حيث كل مشكلة تجر الاخرى وتسلم الى مشكلة جديدة .

فى البداية جمعتنى بعباس ابوحميده والباشا وابنى وشغلتنا بقضية نشر مذكرات الدكتوراة اوديت . ثم مرضت ورمت القفاز فى وجهى لتجبرنى على البقاء فى اروقة المستشفى حتى منتصف الليل .

نظرت الى ساعتى دون قصد او رغبة فى معرفة الوقت ، قال ابنى الجالس الى جوارى فى العربة :  
- اتعيناك معنا ياسعادة المستشار .

وبعدما اكمل قائلا :

- على كل حال والدتى من بلدكم وقد حدثتنى كثيرا عن حضرتك .

آه . هاهى ذى سطور الكتاب المغلق تتساقط . والحكيم من يجمع الكلمات ويعيد لضمها .

قلت :

- زهية هانم امرأة عظيمة .

يبدو لى ان لهجتى المتحفظة لم تعجبه ، فقال :

- ألم تكن امى صديقتك ، هى تقول إن أول حب لها كان مع تلميذ فى العزبة اسمه كرامة ؟

قلت :

- شقاوة عيال .

قال ابنى :

- يبدو ان امى فى صباها كانت متعلقة بك الى حد الجنون .

تحولت سيارتى فجأة الى محكمة لى ، حانت منى نظرة الى الباشا فى

المرأة ، فوجدت ابتسامة على شفقيه ، قال :

- ياسعادة المستشار هذا جيل جديد . الأبناء يحاكمون الآباء . خذنى

محاميا لك فى هذه القضية .

عشت حياتى حذرا ، لا أضع نفسى فى خية أومصيدة لكننى منذ قدوم زهية الى جنيف أحس بان مئات الخيوط تلتف حول عنقى ، خيوط ناعمة تشدنى الى هاوية لا قرار لها .

كلماتهم منمقة وإخالهم جميعا يعرفون السر .

وصلنا الفندق ، نزلنا جميعا ، قلت :

- ليلتكم سعيدة .

انصرفت . لم احدد موعدا للقاء ، وقد تحاشيت اظهار قلقى على زهية وبخلت عليها بالسلام والتمنيات الطيبة ، لم اقل شيئا .

هربت ، دخلت داخل جلدى ، قدت سيارتى "طيارة" عائدا قبل انفجار شريان فى رأسى .

رجال الضبطية والمحققون يهتمون بالتوافه من الامور وخبرتهم تتركز فى رؤية البصمات والأتربة وجمع ادلة من بقايا الثياب والمأكولات والاكواب الفارغة اما الدبلوماسية فخبرته تتركز فى معرفة القضايا والعوامل الرئيسية فى أية مسألة وعزل العوامل الرئيسية عن العوامل الثانوية .

المذكرة التى كتبها ممثل السفارة البريطانية فى سنوات الأربعينيات يسخر فيها من سياسى مصرى قائلًا إنه اذا عرضت عليه قضية تتضمن ثلاثة عوامل رئيسية وعاملين ثانويين ، توقف عند العوامل الثانوية ، وفاتته العوامل الرئيسية ولم تلتفت نظره .

أساتذة الدبلوماسية فى المعهد كانوا يلفتون نظرنا الى هذه المذكرة كدرس فى الفهم الصحيح ، وأنا الآن مثل ذلك الرجل ، لا ادرى بداية من نهاية . زهية وابنها محمد نجيب يلعبان بى . عباس ابو حميدة لا يفصح . ربما الوحيد الذى يتعاطف معى هو الباشا . لم يدع ابوته لمحمد نجيب طوال تلك السنوات بينما الشاب يغرى بالتبنى خاصة فى نهاية العمر . رياه بصفته ابنا لزوجته من رجل آخر ، والمصيبة هى اننى ذلك الآخر



لكننى لم اكن زوجا شرعيا لزهية فى يوم ما .

أين الأساسى من الثانوى فى هذه المسألة ؟ قلت لنفسى فى لهجة  
خطابية مبتذلة : هذه هى القضية .

وقلت مقلدا عباس ابوحميذة :

- ربنا يجعل العواقب سليمة .

( ٦ )

يوم الأميرة جويدان ثقيل ، دقائقه طويلة ، وثوانيه متوقفة عن الجرى ، وإذا كان الزمن السائر الى أمام يقاس بالثوانى والدقائق فحاضر الأميرة ساعاته مضطربة غير مضبوطة واللحظة الراهنة لها ثقل غير مرئى عليها .

الوقت هو المقصلة التى تضع الأميرة رقبتها تحت نصلها مع الشهيق والزفير ، وقد تحايلت الأميرة على نهارها وقسمته لتقصف عمر ذلك السكون الممطوط ، قائلة :

- فى الساعة السابعة والنصف ، الافطار ، فى الساعة الثانية عشرة والنصف الغداء ، فى الساعة السابعة مساء العشاء .

وبعدها تستعد الأميرة لاستقبال ساعات الليل الطويلة والاندماج فى كوابيسها ، وهى تردد لنفسها : حياتى ورائى ، فى الزمن الذى ضاع منى وانفلت الى رحم الماضى .

العزلة هى نصيبها ، والعزلة إحساس داخلى ، فالقصر به خدم وحشم ووصيفات ، لكنها تنأى بنفسها عن الكلام ، وإذا جاء لها الكلام ، نأت بنفسها عن السمع .

لم يعد لها سوى ابنتها ابسنت وهى مشغولة دوما عنها بمدرستها نهارا وبواجبات يومها عند عودتها ، وكذلك قريبتها الأميرة جلبهار ، وهى مشغولة بعملها فى الأمم المتحدة ك مترجمة قورية . أما كرامة زوجها فقد رمت طوبته منذ سنوات .

الأحاديث السريعة العابرة مع ابسنت أو قريبتها جلبهار تمددها بطاقة روحية لمقاومة تكاسل زمنها عن الدوران . التليفون هو الشريان الذى يجعل

قلبا ينبض . عيناها عليه ، تنتظر دقاته ، ترقبه بأذنيها ، تنتظر رنينه ،  
وإذا صمت ، حنت اليه ، وداعبت ارقامه بأصابع مضطربة ، حتى أصبحت  
لها مكالمة يومية ، مع جلبهار ، في فترة راحتها من العمل .

أمس طلبت الأميرة جلبهار ، واشتكت لها من كرامة ، قالت لها :  
- كرامة تغير كثيرا ، تخلى عن دبلوماسيته ورجع الى أصله .

فأجابتها الأميرة جلبهار على الفور ، ساخرة منها :  
- هذا أفضل ياسمو الأميرة .

طلبت منها في غضب ان تكف عن عبثها وتقدر مشاعرها ، بكت ، قالت :  
- لم يعد أمامي سوى الطلاق . من حسن الحظ العصمة في يدي .

الأميرة جويدان تدرك انها تتقل على قريبتها بمشاكلها اليومية ، وفي كل  
صباح تعقد العزم على الكف عن مضايقتها ، لكنها تظل في انتظار مكالمة  
فاذا طال انتظارها ، اسرعت الى التليفون وأدارت القرص .

اليوم ، رن التليفون ، وكانت قريبتها على الخط ، فاعفتها من القلق  
النفسى ، حيث عادة ما تطلبها وتندم بعد ذلك على تسرعها واعمالها  
الطائشة . قالت جلبهار :

- جويدان . ما رأيك نلتقى على الغداء اليوم ؟

رحبت الأميرة على الفور بهذه الدعوة ، وأكملت جلبهار ، قائلة :  
- في الساعة الواحدة والنصف ، سوف احجز مائدة في صالة فندق  
كوت دى أزور ، في الناحية الأخرى من المدينة ، ما رأيك ؟

قالت الأميرة جويدان :  
- موافقة .

واختتمت جلبهار المكالمة ، قائلة :  
- الى اللقاء .

الأميرة جلبهار دائما في عجلة ، نهارها تقضيه في العمل ، وبعض

لياليها فى واجبات اجتماعية وسهرات ، شغلت نفسها ، وصنعت لنفسها اسما فى عالم الترجمة ، تعمل من أجل العمل ، ففى مقدورها العيش مثل بقية الأميرات اللاتي خرجن من التاريخ ، وانغمسن فى حياة اللهو والمتعة ، لكنها عملت بنصيحة والدى لها قبل وفاته ، قال لها :

- ياسمو الأميرة ، العمل قبل الزواج .

اجابته ، قائلة :

- سوف اعمل مترجمة قورية ، واذا فشلت سوف اعمل كمصممة أزياء .

وبعدها ضحكت ضحكة خليعة ، قائلة :

- واذا فشلت كمصممة أزياء ، عملت كموديل ، فأنا جميلة ، وربما كممثلة سينما .

كان والدى قد وقع فى غرامها وشاعت قصة غرامه بها بين الأميرات والعائلة المالكة ، ولما قامت حركة الجيش ، كان والدى مخمورا فى قصرها ، وتوجها معا الى قيادة الجيش ، فقبض عليهما ، واكتملت الفضيحة .

ولما أصيب والدى بالشلل كنت أدعوها الى القصر من وراء أمى ، وكانت رؤيته لها تسعده ، وفى آخر زيارة لنا ، نصحتها والدى بالعمل ، وقضى سعيدا ، قبل مغادرتها العزية .

عرف والدى أن ساعته قد قربت ، فألح عليها بالذهاب ، لم يرض لها أن تشهده فى لحظاته الأخيرة من حياته ، وهى من جانبها أحست بقرب فراقه ، فبكت عند خروجها ، وعجزت عن قيادة سيارتها .

كنت بمفردى فى القصر ، فارسلت الى الطبيب ، وأرسلت من لحق بها على الطريق ، وعادت لى ، وهى تقول :

- كنت أعرف أن هذا آخر لقاء لنا .

وتحولت كراهيتى لها مع الأيام الى ود شديد ، ففى البداية ، فور عودتها من باريس عام ١٩٤٩ ، وتعلق والدى بها ، كنت أعاملها باحتقار شديد ،

وأرى فيها فتاة طائشة لعبوا ، هوايتها خطف الرجال ، وبعد وفاة والدى اشقت عليها ، ووقفت هى بجانبى قدر طاقتها ، ولما حلت بجنيف لم يعد لى سواها .

أيام غنية ذهبى الى رحم الماضى ، ولم يتبق لنا سوى لحظات هذا الحاضر الثقيلة ، فى انتظار ذهاب حاضرننا ليلحق بماضينا .

جلست الأميرة جويدان فى البهو ، تحصى الساعات ، حتى يحين وقت ذهابها للقاء قريبتها ، ليست بها رغبة فى شىء ، سوى الجلوس الى قريبتها وتذكر الماضى .

رفضت فى الشهر الماضى وظيفة تتناسب مع دراستها ، وأخذت فى عيظ تقدر خسائرها المالية من جراء الصفقات الفاشلة التى قامت بها فى السنوات الأخيرة ، وأعترفت بينها وبين نفسها ، أن كرامة لم ينتقدها أو يعاتبها ، على تلك الخسائر ، لكنه ترك لها حرية واسعة ، فى تعلم أصول التجارة ، وإن كان من وقت الى آخر ينصحها بضرورة طلب مشورة عمها حمدى بك ، فهو من كبار رجال الأعمال .

ضحك عليها لصوص الانفتاح فى مصر . الخسائر المادية محتملة أما احساسها بالفشل وخروجها من المولد على هذا النحو فيقتلها قتلا . الروح فيها ماتت ، أو تحجرت ، وتحس بروحها فوق البطن .

كل شىء حولها فى ثبات وسكون ، فارقتها الرغبة ، واستسلمت لثقل الفراغ ، ولأن ثقل الفراغ من ثقل الكون ، أضحت عاجزة عن التمنى .

أمامها ساعتان قبل الخروج ، وأخذت تقدر الأعباء التى تنتظرها ، فوضع بنسة فى شعرها ، يرهقها ، وعليها أن تغير ملابسها ، وتضع زينتها ، وتختار زيا يناسبها ، و"تلم" شعرها فى كعكة ، وترتدى جوربا ، وحذاء ، وتضع على كتفيها البالطو ، ونظارة على عينيها لتخفى دموعها ، ومضت تقدر الأحوال التى تنتظرها بسبب تلك الأعمال الصغيرة ، المتتالية والمترابطة ، وتمنت ان تضع "الروب" عليها وتخرج .

صاحت ، طلبت من الوصيفة ، البحث عن مفتاح السيارة ، ولما اطمانت الى وجوده ، نظرت اليها فى توسل ان تعاونها فى تعديل ملابسها وان تسعفها بالأشياء الصغيرة ، كأن تفك لها أزرار الفستان ، وتشد لها كم البلوزة ، وتضع الروج لها على شففتيها ، وتفتح لها زجاجة العطر ، وتعد لها حقيبة اليد المناسبة - تفتحها وتفرغها أمامها - ثم تضع فيها حاجياتها الصغيرة ، عدة مناديل ، اصبع الروج ، علبة البودرة ، اوراق السيارة ، حافظة نقود بها عملات متنوعة معدنية واوراق مالية متعددة القيمة ، وكروت السحب الألى من البنوك ، دفتر الشيكات ، سألت الأميرة جويدان الوصيفة :

- ماذا ينقصنى ؟

اجابت الوصيفة :

- لا شىء ياسمو الأميرة .

نظرت اليها غاضبة ، وهى تجهد ذاكرتها لتتذكر شيئاً ما ينقصها ويقلقها غيايه عن تناول يدها ، وبعدها ، قالت :

- الدواء .

قالت الوصيفة :

- لا داعى له .

نظرت اليها الأميرة غاضبة ، وقد اربكت هذه النظرة الوصيفة ، لكنها لم ترشدها عن الدواء المطلوب ، ففوق "الكومودينو" عشرات الأدوية ، ودخلت الوصيفة غرفة نوم الأميرة وخرجت منها وعادت اليها وفتحت الأدرج وقفلتها ولم تحضر الدواء المطلوب .

هدأت الأميرة جويدان قليلا ، وقد شغلت بزينتها ، لكنها فجأة تذكرت حقيبتها والدواء ، فسألت الوصيفة عنه .

قالت الوصيفة :

- أيهما ياسمو الأميرة ؟

أجابتها الأميرة ، قائلة :

- خارفة داخلة و ...

صممت جويدان ولم تكمل جملةا ، فقد تبيننا أنها تحدث الى الوصيفة كما يتحدث إليها كرامة عندما يلومها على ترددنا ، وتناولنا الدواء ووضعنا فى حقبيتنا وقد ازداا ثقل الحجر الذى يشد روحنا الى أسفل .  
هل تثقل على قريبتنا بمشاغلنا ، وأصابنا نوبة قنوط قبل خروجنا حتى تمننا البقاء فى القصر بمفرنا ؟

( ٧ )

عندما تتراكم السحب الباردة وتدفعها الرياح بقوة ، لا مفر من وقوع  
الواقعة : صدام . زمجرة . رعد . برق . وأخيرا هطول المطر .

ربما يسقط المطر فوق هذا الحى أوداك ، لكن الرعد والبرق يأتیان عن  
بعد ، يفرشان الكون ، وتلمع العين خطوط البرق المتلألئة ثم تلحق بها  
الأذن فى التقاط دقات طبول السماء ، ذلك الطنين الكونى الأجوف :  
الرعد .

كان كرامة - منذ مصرع الرئيس السادات - يعرف ان تلك اللحظة قادمة  
لا محالة ، ولا يهيم اذا وقعت الواقعة فى جنيف أو فى القاهرة فالمكان ليس  
مهما بالنسبة اليه قدر الزمان .

هامى ذى قد وقعت فى اللحظة الآنية غير المواتية .

فى كلمات طيبة للغاية ، دعاه محمود بك القرشى وكيل الوزارة للمرور  
عليه فى الفندق ، قال له :

- على كل حال أنت تتردد على الفندق كل ليلة تقريبا بسبب وجود  
أستاذنا الدكتور أحمد السيد باشا .

أجاب كرامة على الفور :

- فى أى وقت تطلبنى يا أفندم . أحضر .

أجاب محمود بك القرشى فى لهجة أبوية ، قال :

- أنا لن أغادر الفندق بعد الظهر ، مرعلّى فى الخامسة ، وبعدها نتوجه  
الى الدكتور السيد باشا .

قال كرامة :



- حاضر .

فى الساعة الخامسة بعد الظهر ، كان كرامة سرحان فى بهو الفندق يتصل بمحمود بك القرشى ، قال له :  
- انتظرنى فى الكافيتريا . اختر مائدة هادئة . سوف انزل بعد عشر دقائق .

حدثه فى لهجة حاسمة كوكيل للوزارة ، هذه المرة ، وفهم كرامة الرسالة . ألقى نظرة فاحصة على البهو ، والمطعم ، والبار ، ثم توجه الى الكافيتريا . اختار آخر مائدة ، وجلس معطيا ظهره للداخلين ، وترك الكرسى المقابل لمحمود بك القرشى ، فهو وجه غير معروف فى جنيف ، وقال كرامة لنفسه : سوف يلمحنى محمود القرشى ، من ظهرى الضخم العريض ، ويتقدم نحو المائدة .

فى البداية سأل محمود بك القرشى كرامة عن أحواله ، وانتقل بعدها الى السؤال عن زوجته الأميرة جويدان ، قال :  
- هل ترتبط المدام بعمل ما أو دراسة أكاديمية فى جنيف ؟

نفى كرامة ذلك ولكنه أشار الى انها تعاني من متاعب صحية وتحت اشراف طبي .

سأل محمود بك القرشى عن ابنته ونوعية دراستها ، أجاب كرامة ،  
قال :

- تتابع دراستها باللغتين الفرنسية والانجليزية وتستعد لدخول الجامعة وتنوى التخصص فى اللغات السلافية والصربية الى جانب التركية .

قال محمود بك القرشى كلمة طيبة فى هذا التخصص ، وأضاف :  
- شبه جزيرة البلقان برميل بارود فى وسط أوروبا وهذا تخصص نادر فى مصر .

هذه الأسئلة تكشف عن نية فى نقل كرامة من جنيف الى موقع آخر قبل حركة التنقلات السنوية فى آخر الصيف ، ولم يكن ذلك غائبا عن فطنته .

ولم يسأل كرامة شيئاً بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، كأن الأمر لا يتعلق به .

انتهيا من القهوة ، قال محمود بك القرشى :  
- سعادة السفير الريدى امتدحك كثيرا واثنى على جهدك فى العمل ،  
وأنا أرجو أن تكون قد اكتسبت خبرة منه ، فهو من رجال الخارجية  
المرموقين وأصحاب المبادئ .

وصلتنى الرسالة ، فحديته عن السفير الريدى على هذا النحو يعنى أن  
مسألة نقلى من جنيف قد تقرر ، والتنفيذ خلال أيام ، قلت :  
- أنا تحت الأمر يا أفندم .

استمعت اليه وكأنه يحدثنى عن رجل غريب ، أعرفه ، ولا يهمنى أمره ،  
فأنا كرامة سرحان السقا ممزق بين ابنى وأمه زهية هانم من ناحية وبين  
زوجتى الاميرة جويدان وابنتى ابسنت من ناحية أخرى .

المرأتان اللتان تربطنى صلة بهما مريضتان ، إحداهما راقدة فى البيت  
كخيال المآتة ، والأخرى راقدة فى المستشفى . ابنى محمد نجيب ينادينى  
قائلا : ياسعادة المستشار . والرجل الذى تزوج زهية وربى ابنى يعاملنى  
فى رفق يخجلنى من نفسى ، ويسد أمامى كل طريق .

قطع محمود بك القرشى الصمت ، قال :  
- ياسعادة المستشار أمامك موقعان . نيودلهى ، وهناك سفيرنا الدكتور  
نبيل العربى وهو كفاءة متميزة ، وأنت لاشك تعرف ظروف نقله بسبب  
تحامل الرئيس السادات عليه فى نوبة غضب ، أما الموقع الآخر فهو بنين ،  
والحركة سوف تصدر خلال أسبوع .

قال كرامة لنفسه :  
- الهند أو بنين ، كل المواضع متساوية ، ولا مكان أفضل من مكان فى  
هذا العالم ، فهل أسعدتنى جنيف ؟

ولم يكن كرامة فى يوم من الأيام مقامرا بسبب خوف متأصل فى نفسه ،  
بل مترددا ويحسب مواقع خطواته ، فأجاب بطريقة تلقائية :

- شكرا يا أفندم . سوف أفكر وأخطر سيادتكم .

من جلسة محمود بك القرشى ادرك كرامة ان الرجل فى جعبته المزيد الذى لم يكشف عنه بعد ، فاشعل سيجارا ، وطلب قهوة لهما ، وترك مشاغله الخاصة ، ومسألة نقله على هذا النحو الفريد فى حركة تنقلات استثنائية ، والتفت الى محدثه ، منتظرا أوامره ، وفى لحظة خاطفة ، خلت فيها الموائد القرية منهما ، قال محمود بك القرشى همسا :  
- وصلت برفية عاجلة تخص الدكتور السيد باشا ، وقد اخبرنى السفير أنك ترافقه .

قال كرامة على الفور :

- سوف ادبر لقاء معه خلال ساعة أو بعض الساعة .

اكمل محمود بك القرشى محذرا :

- اسمع يا كرامة . هذه البرقية سرية للغاية ، ولا تحدثه بشأنها فى التليفون . العيون الإسرائيلية تحيط بى منذ قدومى الى جنيف .

قال كرامة :

- مفهوم يا أفندم .

محمود بك القرشى يطلعنى على مسألة نقلى ويكلفنى بالأعباء ولا يترك لى فرصة للتفكير أو الاختيار . لم يقل لى تحدث مع زوجتك . دبر حالك . هذا جيل كلماته كحد السيف .

صوت فى داخلى يرفض النقل ويزين لى الاستقالة ، فى نيتى ان اربط مصيرى بمصير ابنى محمد نجيب ، اذا بقى فى القاهرة بقيت الى جواره ، واذا سافر الى الخارج سافرت معه .

مسكينة زوجتى ، كيف تتلقى نبأ مغادرتنا جنيف ، الى نيودلهى أو بنين !!

أعود اليها الليلة لأقول لها ، نيودلهى أم بنين ؟

لا أدرى لماذا داعبني فى هذه اللحظة الجادة ، المثل الشعبى القائل :

- "ياما جاب الغراب لامه" .

إذا لطمت الأميرة خديها ، وسودت شعرها بالنيلة ، وقالت :  
- طلقني .

عذرتها . تفهمت دوافعها . فقد تلطمت معي .

الهند تناسبني ، بل ربما هي أقرب البلدان الى قلبي ، فهناك يكتمل هروبي ، وإذا كانت الأحداث قد شدتني الى بورتها ، وكانت التعليمات تصدر لي في السابق من الرئيس السادات أو معاونيه مباشرة ، فقد جرى ذلك كله بالمصادفة ، ورغما عن طبيعتي .

كل غريب راحل ياكرامة .

وأحس كرامة ان حديث محمود بك القرشي اليه قد فرغ ، فاستعد للقيام .

رتب كرامة لقاء محمود بك القرشي بالدكتور أحمد السيد باشا بعدها ، وفقا لتعليمات البك وكيل الوزارة ، وتركهما ، وانصرف الى حاله .

( ٨ )

يبدو ان لقاءات وكيل الوزارة محمود بك القرشى بالدكتور أحمد السيد باشا قد تكررت من ورائى بسبب تلك البرقية العاجلة التى لم يكشف عن مضمونها أمامى أو يشر إليها مرة أخرى .

وكان سعادة السفير عبدالرغوف الريدى قد كلفنى بمهمة الاتصال بالدكتور جورج ابى صعب فى نيويورك وأخطاره بالعودة فورا الى القاهرة عن طريق سفيرنا لدى الأمم المتحدة السيد عمرو موسى .

وقد نجحت فى الاتصال بالدكتور جورج ابى صعب لحظة دخوله الفندق وأخبرته بالرسالة ، قال :

- أنا قادم من المطار الآن ، لم افتح حقائبى أو استرح .

قلت سعادة ، السفير عمرو موسى سوف يوفر وسيلة السفر الى القاهرة سواء عن طريق جنيف أو اية عاصمة أوروبية .

سألنى عن سبب هذه العجلة ، قلت :

- لا أعرف ، لكن الاستدعاء بناء على طلب وزير الدولة الدكتور بطرس غالى .

قال :

- غريبة .

تمنيت له رحلة طيبة فى العودة الى القاهرة ، قال :

- أنا فى حاجة الى ساعتين ، ابدل ملابسى ، وأخذ حماما ، وسوف

انتظر فى غرفتى حتى يتصل بى سعادة السفير عمرو موسى .

الدكتور جورج ابى صعب رجل سمح ، رأيتة مرة واحدة فى جنيف ،

وهو من كبار العاملين فى مجال القانون الدولى بحكم استاذيته فى معهد الدراسات الدولية العليا فى جامعة جنيف .

وكما قال الدكتور جورج ابي صعب على التليفون معى : غربية ، قلت انا لنفسى ايضا غربية ، فوكيل الوزارة محمود بك القرشى يتصل بالدكتور احمد السيد باشا ويأتى الى جنيف خصيصا لمقابلته ، وهو استاذ اساتذة القانون الدولى فى مصر ، ووزير الخارجية يستدعى الدكتور جورج ابي صعب على هذا النحو المفاجيء الى القاهرة ، وهو استاذ قانون دولى ، فماذا جرى فى القاهرة ؟

لم امحص فى الأمر ولم ادقق ، فقد قمت بعملى مثل ساعى البريد ، ولم اسأل سعادة السفير عبدالرؤف الريدى ، كما اننى لم اتعمد الريط بين الأمور ، واكتفيت بما قمت به ، وارتحت ضميرى .

السؤال الذى يشغلنى منذ يومين ، هو الهند أم بنين ؟ لكننى كنت قد وقعت فريسة لمجموعة اخرى من الأسئلة اشد غموضا وحساسية ، واذا كان يتعين على اجابة محمود بك القرشى فى بحر عدة ايام حول العاصمة التى انقل اليها فان بقية الأسئلة على الإجابة عليها بينى وبين نفسى وبعضها عاجل وبعضها يمكن تأجيله ايضا .

حدثتني زوجتى أمس الاول عن الإسكندرية وفتحت معى قضية قصر اللواء عويس والدها فى عزية عويس وضرورة استرداده من برائن وزارة التربية هو والأراضى الملحقة به وفقا للقوانين التى اصدرها الرئيس الراحل أنور السادات وافاضت فى موضوع القضية .

استمعت اليها مصغيا ومن حين الى آخر كنت استوضحها شيئا لكننى لم ادخل معها فى مناقشة حادة أو غير حادة وقد ابتعدت عن الأقوال القاطعة أو الوعود وقد لجأت الى كلمات مثل : ” طيب . وجب برضه . حاضر .

سألتنى فجأة عن شاعر الإسكندرية اليونانى كفافيس ، نصحتها بالحصول على دواوينه من مكتبة جنيف ، قالت :  
- طيب .

أخفيت عنها موضوع نقلى العاجل ، تركت هذا السؤال معلقا ، بينى وبين نفسى ، فأمامى مجموعة أخرى من الأسئلة تتعلق بزهية وابنى محمد نجيب ، وقد بدأت تلح على فكرة الاستقالة من العمل ، والتفرغ لابنى . الى جانب عملى فى البعثة ومتابعة الأمور العاجلة كنت اتابع دورة المفاوضات حول مدونة نقل التكنولوجيا من الدول المتقدمة الى الدول النامية .

كان الوزير المفوض شكرى فؤاد يتابع هذه المفاوضات فى عمق ويؤودنى بنصائحه ويراجع معى التقارير والبرقيات العاجلة التى تزود وزارة الخارجية بها .

كنت أحس بعبث المناقشات وانها تدور دون طائل فقد كانت مقاومة الدولة الصناعية المتقدمة شديدة الى درجة ان ساعات طويلة قد امضيت فى جدل عنيف وحاد حول الفاصلة والنقطة ومراجعة حروف الجر فى الفصل الأول من مشروع المدونة .

من الواضح لى منذ البداية ان الدول الصناعية ترفض المدونة ولكنها امام اصرار الدول النامية ودعم دول الكتلة الاشتراكية لها تراجعت عن الرفض المباشر الفج ولجأت الى دفن القضية بإثارة اعتراضات اجرائية وشكلية .

قلت لنفسى ساخطا :

- هذا عبث ومضيعة للوقت .

مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية من منجزات الرئيس الراحل جمال عبدالناصر وقد انشأ هذا المؤتمر بعد خطاب الرئيس عبدالناصر فى الجمعية العامة سنة ١٩٦٤ وترأسه الاقتصادى البارز المصرى الدكتور عبدالمنعم القيسونى فى أول انعقاد له تقديراً لدور مصر وهامى ذى مرت السنون وأضحت الولايات المتحدة الأمريكية تهدد بالمطالبة بنقل المؤتمر من جنيف الى فيينا وتهدد ميزانيته وتقليل اجتماعاته وتوفير نفقات الترجمة وطباعة الدراسات وطرد الباحثين والخبراء وذلك بدعوى انه لم يحقق زيادة فى تجارة الدول النامية ولم يحقق لها التنمية .

انتهت الجلسة قبل الأخيرة ، فأسرعت الى التليفون ، وقلت للوزير  
المفوض شكرى فؤاد :  
- المواقف ثابتة والجمود يحيط بالمباحثات .

استمع لى ، قال :  
- طيب . فى انتظار التقرير .

عرجت على الكافيتريا القريبة من التليفون التى يطلق عليها "السربنت"  
وتوجهت على الفور الى البار وتناولت قهوتى وقد عبرت القاعة الواسعة على  
عجل واتخذت ركنا لى بعيدا عن الزحام وعلى مقربة من الجدار الزجاجى  
الذى يطل على الحديقة الواسعة .

كان الجو غائما والشمس غائبة وقبعت فى جلستى ولم تكن بى رغبة فى  
تبادل الحديث مع أحد فتوجهت بناظرى الى الحديقة بعيدا عن حشود  
الدبلوماسيين فى الكافيتريا .

يوم بارد ، وتلك الإضاءة الكونية الخافتة التى تلف كل شىء ثقيلة الوطء  
وتثير فى احساسا بالسكون يدفعنى لترك الأمور حتى تجرفنى فى طريقها  
وأغرق .

ارسلت فى الأيام الماضية باقتى زهور الى زهية متمنيا لها سرعة  
الشفاء باسم زوجتى وابنتى وأنا . كنت اود مخابرتها تليفونيا لكن شجاعتى  
لم تسعفنى . امسكت بالسماعة وادرت قرص التليفون لكننى توقفت قبل  
الرقم الأخير ووضعت السماعة .

اخبرنى الدكتور أحمد السيد باشا ، قال :  
- الجراحة نجحت لكن حالتها النفسية ليست على مايرام .  
استمعت اليه ودورت كلامه فى رأسى وصمت .

شيئان فى حياتى جاهدت فى سبيلهما حتى النهاية ، وهما : الدراسة  
وزواجى من الأميرة جويدان ، اما بقية امور حياتى فكنت اتركها للمصادفة  
أو اتوقف قبل إدارة الرقم الأخير ، حتى عملى بالخارجية جاء بالمصادفة  
البحثة ، ولم تكن لى واسطة أو معارف . اجترت مجموعة من الامتحانات  
فتغير مصير حياتى .



رأيته هناك واقفا وجهاز التسجيل فى يده يتلفت يسارا ويمينا ، قصير القامة زائغ العينين ، هذه وقفته المفضلة ، وابتسمت ، من يراه يظن انه فى عجلة من امره ، لكنه يقف ويدير اشياء كثيرة فى رأسه ، وكأنه يكتب مقالاته واقفا .

حديثه موجز ويعجبني فيه عدم الإلحاح فى الأسئلة وكأنه ليس صحافيا . لا يتابع أو يكتب الا ما يروقه من احداث ومدونة نقل التكنولوجيا من اهتماماته ومن حسن حظى انه يقصر اتصالاته بشأنها على السفير الريدى .

اذا قدم نحوى ، سوف أقوم ، مشاغلى لا تسمح لى بالحديث أو التثرثرة ، هذه ايام حرجة والتصريحات الصحافية مغبتها قاسية ، والصمت أفضل من الكلام .

نحيت وجهى بعيدا وانشغلت بالنظر الى الحديقة وقد سكن الهواء وبقت الأغصان العارية واقفة وكأنها محروقة بفعل البرودة الشديدة .

اسئلة متلاحقة فى رأسى ، ورغبة قوية تدفعنى للارتباط بابنى محمد نجيب ، لكننى أخاف الفضيحة .

قالت لى ابسنت فور عودتها والسرور على وجهها جملة واحدة ادارت رأسى ، قالت فى براءة :

- دادى . محمد نجيب يشبهك تماما .

قفزت من جلستى ، سألتها :

- كيف ؟

دخلت الى غرفتها ، وجاءنى صوتها ، قالت :

- لا أعرف !؟

ناديتها ، قالت :

- ابدل ملابسى .

بعد فترة خرجت الى فى منامتها ، قبلتنى ، قالت :

- تصبح على خير يادادى .

امسكت بيدها ، سألتها :  
- كيف يشبهنى محمد نجيب ؟

قالت ابنتى :  
- طريقة كلامه ونظراته وسرحانه ، تشبهك تماما يادادى . عيناه وجانب وجهه عندما يدير رأسه هى أنت .

وبعدها سألتنى ، قالت :  
- ماهى الحكاية يادادى بالضبط ؟ هل هو قريينا ؟

قلت لها :  
- نعم .

وتوجهت الى غرفتى .

كلما تأملت قول ابنتى ، "محمد نجيب يشبهك تماما" ، سارت فى غروقى دماء جديدة ، دماء حمراء فيها سخونة ، فيها دفء ، رفعت يدى وتأملت اصابعى ، وجدتها كما هى ، يد سمينة ، متبلدة .

ابنتى بفطرتها كشفت سرى ، وربما اذا التقت زوجتى جويدان بزهوة او محمد نجيب مرة واحدة ، لاطلعت على عذاباتى ، وقالت لى هذه المرأة كانت عشيقتك ، وهذا ابنك منها .

هذه هى ايامى الاخيرة فى جنيف ، وعلى الرحيل الى بنين أو الهند وهناك سوف ابتعد بجسدى وروحى عن هذه الهموم اما زوجتى فتود العودة الى الإسكندرية .

أحسست بحلقات تضيق حول عنقى حلقة وراء حلقة فاذا هربت من اسار واحدة ضاقت اخرى وكادت تخنقنى ، اذا صارحت زهوة برغبتى فى اعلان ابوتى لمحمد نجيب فكيف اسافر الى الهند ولمن اتركه ، وهل من العدل تحطيم قلب الدكتور أحمد السيد باشا وهو فى نهاية العمر !!

اذا استقلت من العمل وعدت الى القاهرة فهل اذهب الى عزبة عويس واتفرغ للزراعة التى لم اتقنها يوما وقد نشأت فى العزبة بصفتى "افنديا"

ولم تكن لدينا اطميان فى حاجة الى رعاية . اللواء عويس رحمه الله كان فلاحا حقيقيا وقد شغلته الارض وملأت حياته وافنى عمره فيها حتى ساعاته الأخيرة وبعد توزيعها على المعدمين . اما أنا فكاليد النجسة البطالة التى لم ترو شجرة ولم تقلم غصنا .

هـ .

المسألة اكثر تعقيدا ، فى استقالتي ربما طلاقى ، وخروجى من المولد بلا حمص ، اللهم كما خلقتنى .

هاهى ذى الحسابات تطل برأسها لتغطى على المشاعر ، فأنا فقير ، أما زوجتى فهى ، ثرية ، وابنتى ، وخفق قلبى . فى طلاقى خسارتى لابنتى كما خسرت من قبل ابنى ، فماذا يتبقى لى فى حياتى !!؟

رأيت الأميرة جلبهار فى نهاية القاعة تتحدث الى كارين المتحدثة باسم الأونكتاد ، تقفان ، فيهما شبه كبير وكأنهما أختان على الرغم من فارق العمر الكبير بينهما ، فكارين ، شابة ، صغيرة السن ، وجلبهار تستعد للخروج إلى المعاش .

شقراوان ، ملاحظتهما أسرة فى عدوانيتها ، فجمالهما صريح ، وفتنتهما تكشف عن نفسها ، تتحدثان ، وتضحكان همسا ، والعيون ترقيبهما فى فضول .

الأميرة جلبهار ترى شبابها فى كارين ، وتقول عنها :

- ابنتى .

كسبت الأميرة حياتها بخروجها الى العمل فى المحافل الدولية . لم تلجأ الى حياة الأمراء الفارغة ولم تعتمد على ثروتها ولم تربط نفسها برجل . عاشت حرة ، وهذا سر شبابها المتجدد وتلك الحيوية فى جسدها الفائز وقوامها المفروود .

اقترب منهما ذلك الصحفى القصير ، انحنت كارين انحناء كبيرة لتقبله فى خبءه بسبب قصر قامته وطول قامتها الفارع ، ضحكت فى سرى ، أما

الأميرة جلبهار فرحبت به ووضعت يدها على كتفه ، وانسحبت ، تركتهما ،  
وقدمت نحوى .

لوحث لها بيدي وقمت لأحضر لها القهوة ، هى دائما فى عجلة ، راحتها  
نصف ساعة فقط ، تقضيها فى شرب عدة فناجين قهوة ، جلست الى  
مائدتى ، وعدت اليها والقهوة فى يدي ، قالت :  
- شكرا سعادة المستشار .

انشغلت عنى بقهوتها وقد أخذت ترشفها فى صمت ، وكأنها قد تعبت  
من الكلام فى الكابينة الى حد الموت . بعدها أخذت نفسا عميقا ، وحركت  
كتفيها ومدت صدرها البارز الى الأمام واعتدلت فى جلستها ، قالت :  
- كيف حالك ياابن البلد ؟

قلت لها ضاحكا :

- لا يسر .

اجابتنى ، قالت :

- أعرف .

هاهى ذى تدخل فى الموضوع مباشرة دون لف أو دوران ، وما اعتبره  
سرا حتى الآن سوف تتناقله الألسن بعد ايام ، قالت :  
- غريب أمركم ايها الرجال ، الواحد منكم يهمل زوجته طويلا ، حتى  
تطالبه بالطلاق فيحرن .

التفت اليها مصغيا ، انها تحدثنى عن طلاق ، وتتهمنى بإهمال زوجتى  
جويدان ، سألتها ، قلت :  
- هل هذه رغبة الأميرة جويدان ؟

قالت لى محذرة :

- لا تنس ان العصمة فى يدها .

وصلتنى الرسالة ، زوجتى لن تطلب الطلاق ، ولكنها ، سوف تطلقنى فى  
صمت وهدوء ، لن تكون بيننا مناقشات ، وابنتى ، ما مصيرها ؟

هبيت واقفا ، قمت ، لكننى لم أعرف لى وجهة اذهب اليها ، فجلست  
ثانية .

قالت لى :

- اهدأ .

وبعدها ضحكت ، وقد غاظنى ضحكها ، وأحسست بتعاسة ، سألتها  
غاضبا ، قلت :

- ماذا يضحك فى الأمر يا جلبهار ؟

اجابتنى ، قالت :

- ما يضحكنى لن يضحك ، هاأنذا قد صمت . هل يعجبك صمتى ؟

كنت اودها أن تحدثنى عما تعرف ، ان تنصحنى ، ان تقول لى شيئا  
يريحنى ، سألتها ، قلت :

- ماذا افعل ؟

قالت لى على الفور :

- خذ زوجتك وارحل عن جنيف ، بلاد الله واسعة ، على شريطة ألا  
تتركها تعيش فى الإسكندرية بمفردها ، هذه هى اللعنة .

أجبتها ، قلت :

- مسألة نقلنى أصبحت واردة ، ما رأيك فى الهند ؟

ضحكت ، قالت :

- سوف تنغمس جويدان فى اليوجا هناك وينصلح حالها .

حذرتنى الأميرة جلبهار قريبة زوجتى من العودة الى الإسكندرية بطريقة  
غامضة اثارى ريبتى ، وتذكرت على الفور ان جويدان سألتنى أول أمس  
عن اشعار كفافيس وقالت انها تود الإقامة فى الإسكندرية وسوف تجد  
سعادتها فى جوها الدافئ المعتدل .

قلت لنفسى : نزوة جديدة من نزواتها .

شياء هذا العام صقيع أوربى مبكر وزوجتى فى حاجة الى دفء غير ان

جو الهند مشبع برطوبة قاتلة تزيد من حالة الاختناق التي تدهمها من وقت الى آخر .

سألتنى الاميرة جلبهار قالت :

- لماذا لا تستقيل ياسعادة المستشار وتتفرغ للأعمال الخاصة ؟

ضحكت ، قلت :

- الدبلوماسيون يستقيلون للعمل بالمحاماة اما أنا فتخصصى اللغة الإنجليزية أنتى تؤهلنى للتدريس .

قالت :

- الأعمال التجارية ، الاميرة جويدان لها ولع شديد بالتجارة .

ضحكت ، قلت :

- لتخسر بقية نقودها !!؟

قالت فى جدية شديدة :

- كلا . سوف تضاعفها وتشغل وقتها . هى فى حاجة الى عمل .

قلت :

- معك حق يا جلبهار .

سألتنى ، قالت :

- ماهى حكاية الهند ، ولماذا الهند ؟

قلت :

- هذا تخمين منى .

فى دقائق قليلة وقبل ان تنتهى من فنجان قهوتها صارحتها بأسرارى ، وتضايقت من اندفاعى فى الحديث معها ، فقامت لأحضر لها فنجانا آخر من القهوة .

سرت فى بطء وكأئننى احمل اثقالا على كتفى وقد بدت تظهر فى مخيلتى ثلاث نقاط منفصلة : جنيف . عزبة عويس . نيودلهى . هذه ليست مواقع معيشة لى ، ليست سقفا ابيت تحته فى الليل وعملا ارتزق منه ولكنها مسارات حياة ، مسارات حياتى أنا . اذا بقيت فى جنيف على ان اقدم

استقالتى من العمل لأبقى الى جوار ابنتى وزوجتى ، واذا عدت الى عزية عويس على الاستقالة والانشغال بأعمال جويدان التجارية الفاشلة وان اتابع تسرب اموالنا واطياننا قطعة قطعة لكننى سوف اكون الى جوار ابنى محمد نجيب وأمه زهية هانم الصفتى اما اذا سافرت الى الهند كسبت حياتى وربما زوجتى وخسرت ابنى .  
اختيارات كلها ملعونة .

عدت بالقهوة ، وضعتها أمامها ، سألتها ، قلت :  
- ما رأيك يا جليهار ؟

ضحكت ، واعتدلت فى جلستها وانحسر الثوب عن ساقها ، قالت :  
- كف يا سعادة المستشار عن الحديث الى نفسك ، افتح قلبك للأخرين ،  
فضفض يا حبيبي .  
ضبطتتى .

تحدثت الى نفسى ثم طلبت رأيها ، ما أغبانى !! وما أثقلنى أيضا .  
قلت :

- ما رأيك فى مسألة الطلاق ؟

سوت الفستان على ساقها ، قالت :  
- جويدان تمر بأزمة روحية ، وأنت المسئول .

هزرت رأسى ، قلت :  
- ربما .

نظرت الىّ فى غضب بعينيها الواسعتين وقد ارتسمت على وجهها  
تقطيية قاسية ، قالت :

- لا تنس اننى قد سهلت لك الزواج من جويدان واننى اعتبرها ابنتى  
وليست قريبة لى فقط .

قلت :

- لا أنسى يا جليهار .

قالت :

- شكرا .

بعدها التفتت الیّ فی ود ، مدت يدها واحاطتها بكتفى ، قالت :  
- اسمع ياكرامة ، ماذا تود من الدنيا اكثر من الحفاظ على عائلتك ، كن  
ياأخى شجاعا مرة فى حياتك ولن تندم ابدا ، تخلص من تأثير استاذك  
رحمه الله الدكتور رشاد رشدى ، أرض خراب ايه ؟ الخراب فى مخه ،  
رحمه الله .

قلت لها معترفا بالجميل :

- هو الذى قدمنى الى الرئيس السادات رحمه الله ، قال له ، كلمة طيبة  
عنى ، ففتحت امامى ابواب رئاسة الجمهورية .

قالت :

- كن أنت . وسوف تفتح امامك ليس ابواب رئاسة جمهورية ولكن ابواب  
الجنة .

قلت :

- معك حق .

كانت الأوراق الخاصة بمدونة نقل التكنولوجيا على المائدة المستديرة  
بيننا تطلعت اليها جلبهار فى قرف قالت :  
- كلام فى كلام . الدول النامية ليست فى حاجة الى تكنولوجيا لكنها فى  
حاجة الى أناس الى بنى آدمين .

هذه آخر مهمة لى ، ونظرت الى الأوراق فى أسى ، نظرت الى جلبهار  
متضرعا ان ترجمنى من سخريتها اللاذعة وان تكف عن تأنيبى .

تأملتنى ، قالت فى عطف :

- لن ألومك ثانية .

وتركتنى وقامت . ذهبت وغابت فى أروقة الأمم المتحدة بينما بقيت على  
حالى جالسا .



ضجة رهيبية على الرغم من صمت الدبلوماسيين بسبب الحركة الدائبة في الكافيتريا الصادرة عن هزات الرعوس ومصافحة الأيدي ، لا صوت حقيقة ، لكنها ضجة تؤذي العينين ، طنين ضخم يسمع بالعينين وليس بالأذنين ، هذا هو عالم الدبلوماسية السرى ، كل نظرة لها مغزى ، ومصافحة الأيدي لها معنى .

قلت لنفسى : كن شجاعا مرة واحدة وادر الرقم حتى النهاية ، حتى تسمع كلمة ، ألو على الطرف الآخر .

توجهت على الفور الى كابينة التليفون ، وأدرت القرص وانتظرت ، قالت زهية :

- ألو .

قلت لها بصوت قلق :

- كيف الحال يا زهية هانم ؟

اجابتنى على الفور ، قائلة :

- الحقنى ياكرامة .

فى صوتها لهفة وهلع ، قلت :

- ماذا جرى يا زهية هانم ؟

بكت ، قالت :

- سوف افقد محمد نجيب ، سوف افقد ابنى .

طلبت منها الهدوء ، سألتها :

- اين الدكتور السيد باشا ؟

قالت فى اسى :

- شغل عنى . عنده عمل طوال اليوم . تعال اللى ياكرامة - ارجوك .

قلت لها :

- حاضر .

ثم سألتها ، قلت :

- اود الأطمئنان . ماذا جرى لمحمد نجيب ؟

قالت وقد عادت الى البكاء :

- يستعد للسفر الى السويد .

سألتها ، قلت :

- لماذا ؟

قالت غاضبة :

- مع فتاة . تعرف عليها فى المستشفى فأكلت عقله .

قلت مطمئنا :

- هذه نزوة .

انفجرت فى بكاء حار وتدمت لقولى نزوة وكأننى فتحت جرحا قديما

قلت :

- مسافة الطريق :

قالت :

- شكرا ياسعادة المستشار .

لم تعد المشكلة بالنسبة لى مسألة الهند او بنين او جنيف فهاهو ذا ابنى يقرر الهروب الى المجهول ، هناك ، فى السويد فى صحبة تلك الفاتنة الشقراء ، قلت لنفسى : معه حق .

كانت الأوراق فى يدى ، فتوجهت الى الجراج ، حيث سيارتى ، ربما هذه هى أول مرة استجيب فيها لنداء زهية لى فى ساعة حاجة ، راودنى احساس بأننى أسير على طريق جديد لم أطرقه من بعد ، تنادينى زهية ولا أخذلها ، استمع اليها واقول حاضر .

دلقت الى سيارتى خائفا من طريقى فهذه ساعة تتريص بى فيها الأقدار لتدفعنى دفعا الى سبل لا قبل لى بها ، ولكن بارادتى أو هكذا خيل لى وأنا ادير السيارة .

لم يعد ينقصنى الا تلك السويدية الشقراء لتخطف ابنى فى اللحظة  
الحرجة وقبل ان أعلن ابوتى له ، ماذا فعل ؟

اعلنها ام اتريث ؟

اندفعت بى السيارة ، لا ادرى هل اقودها ام هى تسير بى بمفردها ،  
قلت لنفسى : السويد دفعة واحدة يابنى !! ومتى ؟ فى هذه الأيام التى  
تلعب فيها بنا الأقدار .

( ٩ )

هرول كرامة الى المستشفى فى حسن نية ملبيا نداء زهية . هذه أول مرة تستغيث به فيسرع اليها ، وجدها فى انتظاره فى صالون مرفق بغرفتها . وحيدة . الخوف فى عينيها .

ترتدى ملابس انيقة بسيطة ، لكن الملابس لا تخفى الخوف الظاهر فى لفتاتها المذعورة وحركات يدها القلقة . رعشة واضحة فى صوتها . هذه هى أول زيارة له لها فى المستشفى وان كانت ابنته ابسنت قد حضرت مرتين فى صحبة محمد نجيب .

دعته ، فقدم على عجل ، لم يتريث ولم يفكر . لم يدع الماضى يشده ويفصله عنها ، لم يخذلها ، لكنها خائفة ، هل هى خائفة منه ؟

هذه هى أول مرة يرى كرامة فيها زهية خائفة . عندما بانث عليها علامات الحمل فى عزبة عويس ، لم تكن خائفة ، وواجهته قائلة :  
- هذا طفلى ، ولد ، لن أسقطه ، أهرب من العزبة وأربيه .

فى هدوء ، سأل كرامة ، قال :

- ماذا جرى يا زهية ؟

اجابته فى أسى ، قالت :

- محمد نجيب يود السفر والعيش بعيدا عنى .

قال كرامة دون ترو :

- هذه ليست أول مرة يسافر فيها بمفرده .

هبت زهية واقفة . ظن كرامة أنها تنوى عمل شيئا ما ، كأن تتناول

شيئا ، أو تلقى نظرة على المرأة ، أو تضع شيئا من المساحيق على بشرتها ، وتابعها بعينيه ، لكنها ظلت واقفة في منتصف الغرفة ، صامتا .

استراح كرامة قليلا ، قال لنفسه راضيا : هي تفكر في قولى لها .

هذه هي أول مرة منذ ثلاثين عاما يجتمعان في غرفة واحدة بمفردهما ، تحت سقف واحد وحدهما ، ففي السابق كان يفرد بها في الحقول ، أو تحت شجرة وارفة في الظل في الليل .

هذه ليست زهية عاملة الترحيلة الغجرية ولكنها زهية هانم التي صنعها الدكتور أحمد السيد باشا وثورة يوليو ٥٢ ، وسألت نفسها ، هل تتمرد على صانعها وتتكر له وتقع في غرامى مرة أخرى ؟ مدت يدها لى بالسلام وسحبتهما ، ولم تدعنى أضغط عليها ، فكيف يتطرق قلبها بى ؟

قلت لنفسى : كل شيء مضى ، دهسته الأيام .

سألتنى فجأة وهى تواجهنى وتنظر فى عيني وتفتحهما على آخرهما وكأنها تأكلنى بعينيها . نظراتها كانت فيها كراهية ، قالت :  
- التقيت أمس ياسعادة المستشار بالخال عباس ؟

أجبتها ، قلت :

- نعم .

قالت غاضبة :

- طيب .

دعكت يديها ، فركتهما . تدق الأرض بقدمها ، كأنها "تدبب" وقد سرحت عنى . قلت لنفسى : هي تفكر . نسيتهى .

سألتنى ، قالت :

- ماذا قال لك الخال عباس ، ياسعادة المستشار ؟

قلت لها :

- تحدثنا حول هزيمة ١٩٦٧ وحرب أكتوبر ٧٣ ومقتل الرئيس

السادات .

وأضفت قائلاً :

- كانت دردمة سريعة .

سألتنى هذه المرة بشكل مباشر :

- هل حدثك خال عباس عن محمد نجيب ؟ عن ابنى ؟

أخذتنى النداهة عنها ، وغاصت بى فى الوحل البعيد وطين السنين ، فأجبتها دون روية :

- كنا نتحدث عن ابنته التى انضمت الى الجماعات التى قتلت الرئيس يوم ٦ أكتوبر ، وبعدها قال شيئاً عن محمد نجيب .

سألتنى وقد بدأ صوتها يعلو ، قالت :

- ماذا قال لك خال عباس عن ابنى ؟

اجبتها ، قلت :

- روى لى شيئاً عادياً عنه فى معرض حديثنا عن هزيمة ٦٧ ولم اعد اذكره .

وبعدها تنبهت ، سألتها ، قلت : هل كان الخال عباس يحمل لى رسالة ؟

زجرتنى بنظرة غاضبة ، قالت :

- ياخسارة ياكرامة ياابن بلدى كنت اظنك اشد حصافة .

ندت عنها صرخة عالية وكان سكيناً رشقت فى صدرها ، أرتبكت فى جلستى ، طلبت منها الهدوء ، خوفاً من قدوم الممرضات ، ثارت فى وجهى ، قالت :

- اخرج . اخرج ياسعادة المستشار . اتركنى .

تشبثت فى جلستى خوفاً من القيام . تطردنى . صرخت فى وجهى وقد تقلصت عضلات وجهها وبدأ قبيحا للغاية ، اشارت بيدها الى الباب ، قالت فى غضب شديد :

- اخرج .

خفت من تهورها ورأيها تبخث عن شىء لتضربنى به ، قمت .

اتجهت نحو الباب . تحاشيت النظر اليها ، وكنت اظنها سوف تطلق رصاصات علىّ ، اجهشت بالبكاء وسمعتها تأن قائلة :  
- ياخسارتك يا مصر .

هذه آخر كلمات سمعتها من زهية وأنا فى طريقى الى الدرج . تصرفت معى كعاملة ترحيلة أو غسالة وظهرت على حقيقتها وغالبنى الضحك وأنا ا تذكر قولها لى : كنت اظنك أشد حصافة .

قلت لنفسى تعلمت شيئاً من الدكتور أحمد السيد باشا ، لكنها لم تتعلم منه آداب الحديث ، وتركت نفسها لنوبة غضب - لا أعرف سرها - وسوف تندم عليها فيما بعد ، وهذه هى اخلاق السوقة يرفعون اصواتهم ومن اقواهم تخرج الكلمات الساقطة ثم يعتذرون .

لكن هيهات ، لن أقبل اعتذارا .

ظهرت زهية بنت الصطفى على حقيقتها . ونزلت الدرج نادما على قدومى .

وقفت فى نهاية الدرج فى الطابق السفلى متأذيا من مسلكها معى ، قدمت اليها بحسن نية لأصلح أخطاء الماضى كلها دفعة واحدة ، لكنها لم تتح لى الفرصة وصرخت فى وجهى : أخرج ياسعادة المستشار .

بير السلم كهوة واسعة فوق رأسى تنفث سما فى صدرى . هواؤها ثقيل وله قوة ضغط طاردة ترمينى الى الخارج وصوتها يلاحقنى : ياخسارتك يا مصر .

مصر . مصر . كل الناس تتحدث عن مصر بمناسبة وغير مناسبة . قلت لنفسى : مالها مصر ووقوع ابنها أو ابنى فى غرام فتاة سويدية ؟

أفقت على صوت خطوى الى خارج المبنى ، وتبينت فجأة ، أنها سبتنى بقولها ياخسارتك يا مصر . فهى تقصد ياخسارة التعليم فيك ياكرامة ياابن عزية عويس ويامصيبتك يا مصر بتولى مثلك هذا المنصب .

: زهية بنت الصطفى العجرية عاملة الترحيلة التى لا يعرف أحد أهلالها

تعايرنى بأصلى وفصلى .

خرجت من باب البهو الخارجى فلفحنى هواء بارد متجمد . شددت  
القلنسوة التى أخفى بها صلعتى على أذنى وصفير الرياح يلطمنى .  
أدرت السيارة وكففت عن التفكير وتركت نفسى لسيل من الذكريات التى  
غزتنى بقوة وأحاطت بى حتى أغرقتنى فى طين عزبة عويس وهوائها  
الراكد .

دخلت الى البعثة منهكا خائر القوى فوجدت ثلاث رسائل فى انتظارى .  
تكليف من سعادة السفير الريدى بالتوجه الى فندق الأنتركونتننتال على  
عجل لمقابلة الدكتور أحمد السيد باشا وبعدها لقاء سعادة وكيل الوزارة  
محمود بك القرشى والبقاء معه الى حين وصول سعادة السفير . والرسالة  
الثانية من خال عباس ابوحميده يطلب فيها منى الاتصال به فى الفندق بين  
الساعة الواحدة والنصف والثانية لأمر عاجل ، اما الثالثة فكانت من  
الدكتور أحمد السيد باشا يطلب منى تشريفه فى الفندق .

هذه الرسائل الثلاث تصب كلها فى نهر واحد عميق يغرقتنى ، وأخذت  
أبحث حولى عن طوق نجاة ، فقد تشابكت فيها الخيوط وتلاحمت بين  
الخاص والعام وقررت ان اعزل العوامل الشخصية عن العامة ولا أخلط بين  
هزيمة ٦٧ المدوية ورغبة ابنى فى الهروب منى الى المجهول ، قلت لنفسى  
الحكمة فى عزل الأوراق ، وقررت ان التقى بالدكتور أحمد السيد باشا  
بعيدا عن محمود بك القرشى وسعادة السفير الريدى ، الخاص خاص  
والعام عام ، ولكل قضية مفتاح ولن اترك نفسى لهم لنهشها وتعريتها ، وإذا  
كنت قد خسرت ابنى محمد نجيب فابنتى ابسنت صغيرة وفى حاجة الى ،  
ولن اكسر قلبها كما كسرت قلب امها الأميرة جويدان .

قلت لنفسى وأنا فى طريقى الى الفندق ، القضية فى غاية الوضوح :  
الاستقالة أم قبول المنصب الجديد فى الهند .

تركت المعطف والقلنسوة فى سيارتى واخذت معى محفظة اوراقى وبها  
المذكرات الخاصة بمدونة نقل التكنولوجيا على أمل ان اعد تقريرى فى



البيت أو فى ساعات فراغى القليلة بين هذه اللقاءات ، فهذه هى آخر مهمة لى فى جنيف وبعدها اتفرغ لتسوية أمور الحياة العائلية من "نقل العفش" وغير ذلك .

صعدت الى بهو الفندق وأنا أحس بالهزيمة ، أحساس داخلى جارف ، وتركت نفسى للسلم وكأننى أصعد الى حبل المشنقة .

وجدت الباشا فى بهو الفندق ، فى انتظارى ، تقدمت اليه فقام مرحبا بى ، فأسرعت اليه حتى أوفر عليه جهد الوقوف .

قال لى الباشا :

- شكرا ياسعادة المستشار على المجيء .

قلت على الفور :

- العفو ياباشا .

واخترت جلستى فى مواجهته حتى يتسنى لى معرفة مكنون نفسه نحوى عندما انظر الى عينيه واتأمل تقاطيع وجهه .

بعد فترة صمت ، قال الباشا :

- شكرا ياسعادة المستشار لما قمت به مع محمد نجيب ، لقد انشغل طوال الوقت عن والدته بمدونة نقل التكنولوجيا وقام بدراسة لها فى المكتبة من وجهة نظر العلاقات الدولية السائدة حاليا بين الشرق والغرب من جانب وبينهما وبين الدول الفقيرة النامية من جانب آخر أما الجوانب القانونية فى مشروع المدونة فقد اغرقنى فيها .

وبعدها أضاف الباشا قائلا :

- الفضل فى ذلك كله لك ياسعادة المستشار .

أجبت قائلا بطريقة عفوية :

- العفو ياباشا .

رمقنى بنظرة قاحصة ، وبعدها قال :

- سمو الاميرة جويدان كسبت قضيتها ضد الدولة بخصوص عزبة عويس وقصر اللواء عويس رحمه الله .

تذكرت أنني قد دونت تاريخ اعلان الحكم فى القضية فى مفكرتى لكننى نسيت متابعته كما ان جويدان لم تخطرئى به ولا بد انها كانت تعرف أن الحكم قد صدر لصالحنا لكنها أخفته عنى عن عمد .

رأيت ان ادارى جهلى بالحكم ، قلت :  
- الفضل للقوانين التى اصدرها الرئيس السادات بإعادة الاطيان والأموال المصادرة لأصحابها الشرعيين .

هز الباشا رأسه ، ولم يعلق ، وبعدها قال :  
- هذا حكم نهائى يساعد المستشار . مبروك .

هل طردتنى زهية من غرفتها منذ أقل من ساعتين ظنا منها أنني أخفى عنها نبأ الحكم ، وأننى مازلت ادعى الفقر وأخاف من اعلان أبوتى لابنى على الرغم من ثرائى ؟

فاتحتنى زوجتى منذ عدة أيام برغبتها فى العودة الى الإسكندرية وطلبت منى دواوين الشاعر اليونانى السكندرى كفافيس فنصحتها باستعارتها من مكتبة جنيف ، فهل اتخذت قرارها بالعيش فى الإسكندرية وتصفية املاكها فى محافظة الجيزة ؟

حذرتنى قريبتها الاميرة جلبهار من ترك زوجتى فى مدينة الإسكندرية وذكرتنى بان العصمة فى يدها ، لكننى للأسف لم أخذ كلامها على محمل الجد فى زحمة العمل ، فهل كانت تعرف مقاصدها ؟

سألنى الباشا ، قال :  
- اعتقد ان القصر فى حوزة وزارة التربية وقد حولته الى مدرسة لتعليم فنون الزراعة أم أنا مخطيء فى تصوراتى ؟

أجبتة ، قلت :  
- هو كذلك يا باشا .

قال الباشا :

- أنا على استعداد ياسعادة المستشار لشراء القصر وقطعة ارض حوله لا تقل مساحتها عن اربعين فدانا بأى ثمن ترونه أما اذا كانت فى نيتكم بيع العزبة بأكملها فأنا ايضا على استعداد لشرائها فورا .

وأضاف الباشا قائلا :

- فى خلال ساعات يمكن انهاء العقد هنا فى جنيف ودفن النقود بالعمله التى تودونها بالدولار أو الفرنك السويسرى وتسجيل العقد فى القنصلية المصرية . وهذه كلها اجراءات معروفة وسهلة ، ومحمد نجيب له خبرة واسعة بهذه الأمور .

تحولت جلستى الى أحمد السيد باشا الى جلسة بيع وشراء لا يخصنى أمره ولا يشغل نفسى أو يثير فضولى فغمرنى احباط وقرف شديد من نفسى ومن وضعيتى التى لا تسمح لى بان اعيش حياتى كما أنا ولست كما يقال عنى الرجل الآخر .

على هذا المقعد فى بهو الفندق اجريت اتصالات مع إسرائيليين لعقد صفقات بيع البترول بواسطة شركة وهمية مصرية فى جنيف من خلف رؤسائى فى وزارة الخارجية بتعليمات مباشرة من الرئيس السادات ورفضت الرشاوى والعمولات والسمسرة وقمت بواجبى كموظف ودفقت فى التفاصيل ووقفت حجر عثرة أمام آخرين سال لعابهم أمام الدولارات واعتبرت نفسى محاربا فى معركة وكأنت مساومات عملائهم تقرقنى وتدفعنى الى التشدد لتعويض هزيمتنا فى عام ٦٧ .

اعتدلت فى جلستى ورسمت ابتسامة على وجهى ، وقلت :

- فى شبابى المبكرىاباشا كنت أهوى الشعر واعد نفسى لأصبح شاعرا أو على الأقل ناقدًا أدبيا لكننى فشلت وجرفتنى أمور الحياة والمعيشة بعيدا عن جنة الشعر ومريديه وأنا لا أميل بطبعى الى عقد الصفقات أو توقيع عقود وسوف اترك هذا الموضوع لزوجتى الاميرة جويدان خاصة ان القصر والاطيان تخصها وقد ورثتها عن ابيها المرحوم اللواء عويس باشا .

أجابنى الباشا ، قال :

- لنترك الأمر اذن لمحمد نجيب والأميرة جويدان وهو رجل اعمال  
ناجح .

قلت لنفسى ، جاءت المصائب من حيث لا أدرى ، جلسة واحدة مع هذا  
الشاب وتعود بعدها جويدان قائلة : هذا ابنك من امرأة اخرى . طلقنى .  
ابنتى الصغيرة قالت لى : محمد نجيب يشبهك الخالق الناطق يادادى .  
حتى الأميرة جلبهار عندما رآته لأول مرة فى الأمم المتحدة ، سألتنى عنه  
وهى تضحك .

قلت لنفسى كفلاح أصيل : وقعت الفأس فى الرأس ياكرامة . وبعدها  
أردت التفلسف فقلت لنفسى : وقد هد المعبد على رأسك .

خالجنى يقين ان زهية كانت تعرف وقد أخفت سرها عنى ، وفارقنى  
غضبى من ناحيتها فأنا آخر من يعلم بأمور حياته ومعيشته وقد تركت  
نفسى لأسبح فى بحور الاميرة وتجرفنى الأمواج كيفما أرادت .

انتهى حديثنا وبدأت استعد للقيام ، وقبل قيامنا ، قال الباشا :  
- محمد نجيب حصل على تأشيرة دخول السويد ويسافر خلال ايام  
لمقابلة عالمة آثار سويدية من معارف ابنتى المرحومة أوديت . وقد شجعته  
تلك الفتاة الشقراء التى تعرف عليها فى المستشفى على هذه الزيارة .

صمت . لم استفسر ولم اعلق . الجميع حولى على سفر وكان الحياة قد  
أصبحت قصيرة جدا ولا تحتمل بقاءهم فى موضع واحد عدة ايام اخرى .  
أنا ايضا على سفر ، ليس بحثا عن معارف قدامى ، ولكن الى المجهول .

أضاف الباشا قائلا :

- معرفة المرحومة أوديت بتلك العالمة السويدية واسمها ساندرأ  
استروهولم تعود الى يوم السبت الأسود اى يوم ٢٦ يناير ٥٢ . كانت  
أوديت هاربة من القلم السياسى فى تلك الايام ومتخفية فى زى فلاحه  
بسيطة وتقيم فى عزبة عويس عند الخال عباس ولما سمعت بخبر الحرائق  
توجهت على الفور الى شارع الهرم لاستطلاع الأمر فوجدت سائحة مصابة  
بنزف بسبب حجر اصابها فى رأسها وقد دهمتها آلام الوضع . فاتخذت  
ابنتى قرارا بالكشف عن شخصيتها وصرخت فى الجميع طبيبة وولدتها فى

صيدلية قريبة وبقت الى جوارها الى حين وصول سيارة من السفارة السويدية وحملتهما معا الى مبنى السفارة ، وتابعت ابنتى اشرافها عليها لعدة ايام فى مبنى السفارة ، حتى دبرت لنفسها موضعا آخر للاختفاء عن عيون القلم السياسى .

استمعت الى هذه الحكاية التى شدتنى الى ماض بعيد وروحى تحترق ، فى تلك الساعات كنت اجرى كالمجنون فى شارع الهرم مشعلا الحرائق فى المركبات وفى المحلات وقاذفا الناس بالحجارة .

أضاف الباشا قائلا :

- كانت ابنتى متخفية فى زى فلاحه بسيطة ، ولما رأت حالة السيدة سيئة للغاية ، كشفت ابنتى عن شخصيتها ، قائلة : طبيبة ، لم تصدقها المصابة فى البداية ، لكنها بعد دقائق وقد لمست خبرتها ومعرفتها الطبية الواسعة وثقت فيها .

كانت جروح جسدى وتسلخات جلدى قد طابت بعد ضرب اللواء عويس لى بالسوط أما جرحى الداخلى فكان فى اتساع كل يوم وقد تقيح وأفرز سموما أعمتنى وغيبت عقلى .

جاءنى صوت الباشا وهو يقول :

- قررت ابنتى الكشف عن شخصيتها وتعريض نفسها لخطر مؤكد . فأحسست به يحدثنى عن نفسى .

كل الناس يشدها المستقبل ، اما أنا فحبالى مربوطة بصخرة الماضى ، وقلت لنفسى ابناء مصر لهم ولع شديد بالآثار ، وهذا هرمى الخاص قد بنيته لأحبس روحى فى داخله .

استمر الباشا يروى لى حكاية ابنته ، قال :

- كشفت اوراق ابنتى التى دونتها فى تلك المرحلة عن صداقة حميمة نشأت بينها وبين السيدة ساندرا استروهولم فقد تبين لها ان تلك السيدة السويدية الشابة الى جانب تخصصها فى التاريخ فهى تروتسكية ، ولك يساعدة المستشار ان تتخيل عمق احاديثهما ، فابنتى " حدتاوية "

والاخرى "تروتسكاوية".

وضحك الباشا طويلا ، وبعدها قال :

- تلك كانت أياما اخرى وربما لا يعرفها ابناء هذا الجيل .

وافقته على قوله بهزة من رأسى دون ان أفتح فمى .

أكمل الباشا حديثه ، قال :

- محمد نجيب سوف يتوجه الى جامعة اوبسالا بالسويد لمقابلة الأستاذة ساندرا استرو هولم وعرض مذكرات ابنتى عليها لاستكمال بعض النقاط ولبيان وجهة نظرها فيما دونته ابنتى عن احاديثهما فهذه امانة .

وبعدها قال وهو يهز عصاه :

- الرفيق عباس ابوجميدة كان على حق فى تحفظاته على نشر المذكرات  
ياساعدة المستشار . ثلاثون عاما ليست بالفترة الطويلة .

يفتح الباشا قلبه لى ، وقد أراحنى توقف حديثنا عن البيع والشراء فمثل  
تلك الأحاديث تصيبنى بالقرف الشديد ، وقد أدرك عزوفى عن مناقشة  
موضوع القضية ، فكف عن الحديث عنها ، لكنه فتح فى قلبى جرحا  
منقيحا لم يندمل بفعل السنين بحكاياته المتنوعة .

ابنى يسافر الى السويد لاستكمال بعض صفحات فى مذكرات طبية .  
لا يعرفها وان كانت قد منحته ثروتها قبل وفاتها ، بحثا عن ماض لم يعشه  
وان كان قد تربى فى كنفه وتمتع بثمراته .

قبل قيامى لمواجهة محمود بك القرشى ، قلت لنفسى : دع الامور تأخذ  
مجراها ، ابنى يلتقى بزوجتى الاميرة جويدان لإنهاء موضوع القصر وأنا  
لن أخسر شيئا ، فسوف تنتقل ملكية القصر من زوجتى الى ابنى .

اذا سألتنى محمود بك القرشى عن وجهتى ، قلت له على الفور :  
- الهند .

هناك اعمل على مقربة من الدكتور نبيل العربى ، وهذا يريحنى .  
قمت . وسؤال معلق فى رأسى ، أخذ يقلقنى عن دوافع الدكتور وزهية

زوجته من وراء شراء قصر اللواء عويس ، هل هى صورة مبتدلة من مسرحية "زيارة السيدة العجوز" للانتقام من حمادة ابوجبل وزوجته "ستهم" ؟

غير ان اشارة الدكتور أحمد باشا السيد الى مدونة نقل التكنولوجيا عدة مرات فى حديثنا لفتت نظرى ، خاصة بعد أن أظهر معرفته باستيلاء وزارة التربية على القصر وتحويله الى مدرسة زراعة فنية واصراره على شراء اربعين فدانا محيطة بالقصر أو العزبة بأكملها .

وزارة التربية لن تتنازل عن المدرسة حتى اذا انتقلت ملكية القصر الى الباشا ، والباشا ليس سانجا ، وليس فى حاجة الى عزبة ، فهل ينوى التبرع بالقصر والأرض الى وزارة التربية ، ليطلق على المدرسة اسم زوجته : زهية الصفطى بدلا من اسمها الحالى ، مدرسة اللواء عويس ؟ قلبت لنفسى : ربما يود تسميتها باسم محمد نجيب .

استراح قلبى قليلا . وأنا فى طريقى الى محمود بك القرشى . اتصلت به من بهو الفندق ، فطلب منى ، معاودة الاتصال به بعد عشرين دقيقة قبل صعودى اليه فى جناحه .

محمود بك القرشى ليس بمفرده ، كانت رسالته واضحة وصريحة لى . توجهت الى المحل الصغير واشترت مجموعة من صحف الصباح وكان قد فاتنى الاستماع الى نشرات الأخبار كما اننى لم امكث بالبعثة طويلا ولم اطلع على البرقيات الواردة الينا من القاهرة .

اتفاق بين مصر وإسرائيل حول التحكيم حول طابا . مصر تصر على التحكيم وترفض التوفيق . مشاركة التحكيم سوف تعرض على السلطة التشريعية فى البلدين . حكم محكمة التحكيم ملزم للطرفين . مصر استعانت بخبرات ابنائها فى وضع مشاركة التحكيم . د . وحيد رافت . د . أحمد السيد باشا . د . جورج ابى صعب .

انفراجة فى مباحثات الإسكندرية بعد تعثر حول طابا . ثلاثة اجيال من خبراء القانون الدولى المصريين يضعون خبراتهم تحت تصرف وزارة الخارجية .

فردت الصحف القادمة من القاهرة أمامى وسرحت . ابتسمت . قمت من فورى الى البهو حيث ظل الدكتور أحمد السيد باشا جالسا . وضعت الصحف أمامه ، وقلت :

- مبروك ياباشا .

نظر الى مبتسما ، وبعدها قال :

- كل أدى وأجبه .

لم ين نظرة على الصحف أو يمد يده ويتناولها ، ادركت أنه يعرف الكثير ولا يود الحديث حول هذا الموضوع . وتحيرت ، ماذا قدم الدكتور أحمد السيد باشا من جنيف وهو مشغول بزوجته وينشر مذكرات ابنته الراحلة ؟

قلت لنفسى : ربما هى استشارات سريعة .

بعد فترة صمت ، قال الباشا :

- الدكتوران عصمت عبدالمجيد ويطرس غالى لعبا الأوراق المتاحة لهما فى مهارة .

وبعدها أضاف قائلا :

- هذا جيل من السياسيين المصريين ، أبعاد القضية المصرية وملفاتها على أطراف أصابعه على حد قول الكاتب الصحفى محمد حسنين هيكل . وقد استفاد جمال عبدالناصر من خبرات هذا الجيل بقدر اما الرئيس السادات رحمه الله فقد تجاهل خبرات هذا الجيل وأستند الى معارفه وقدراته الخاصة يعاونه مجموعة من الموظفين فى أمور الحرب والسلام والاقتصاد للأسف .

قلت حزينا :

- نحن نسد فاتورة هزيمة ٦٧ .

قاطعنى قائلا :

- ياسعادة المستشار وقت سداد فاتورة ٦٧ لم يحن بعد ، الفاتورة سوف تسدد فى عقد التسعينيات وعليها تراكمات الفوائد أيضا ، وبالارقام



هى فاتورة باهظة التكاليف وظالمة .

أوشكت العشرون دقيقة على الانتهاء ، فقامت مستأذنا فى الذهاب الى محمود بك القرشى ، كشفت عن نيتى هذه المرة فى صراحة ، فالرجل يحيط بأسرار الموقف بأكمله ، وقال لى الباشا مودعا :  
- الله معك .

وأحبست به يعرف سبب مجيئى الى محمود بك القرشى ، وأحسست بقلق من مقابلته . وحتى اريح نفسى من مغبة القلق وعدم راحة البال ، قلت لنفسى فى ثقة :  
- امامك طريقان ياكرامة ، الهند أو الاستقالة ، وكلاهما سوف يفتح امامك باب الجنة على حد قول الاميرة جلبهار .

كنت وأنا فى طريقى الى التليفون أخاطب نفسى وكأنى أتحدث الى رجل آخر لا يهمنى أمره ، ولما جاءنى صوت محمود بك القرشى على الجانب الآخر مرحبا بى فى جناحه ، ادركت ان ساعة رحيلى قد حلت ، ومددت يدى بطريقة عفوية الى سترتى ، ووضعتها فوق قلمى .

رحب بى محمود بك القرشى ، لكننى كنت كمن يحمل كفته بين يديه طالبا السماح ، ولما سألنى : الهند أم بنين ؟ قلت له على الفور :  
- استقالتى جاهزة .

سألنى الرجل فى ود :

- أنت متعب ياكرامة ؟

أجبتة ، قائلا :

- عندى من الأعمال الخاصة ما يشغلنى ، ومن الظروف العائلية ما يمنعنى من السفر .

سألنى ، قال :

- هل فكرت جيدا ياسعادة المستشار ؟

قلت :

- الأمور واضحة ياافندم .

رد على قائلا :

- كما ترى ، وتقبل تمنياتى الطيبة .

انتهت مقابلتنا وقد وضعت استقالتي بين يديه . كما دخلت دون واسطة وزارة الخارجية ، وعن طريق المصادفة البحتة ، فى لحظة تاريخية سمحت لابناء الدهماء باختراق السياج والحواجز ، خرجت منها مصادفة وأنا زوج للأميرة جويدان ابنة اللواء عويس ياوران الملك السابق فاروق .

مهنتى الآن دبلوماسى سابق ، وليست لى خبرة بعمل قانونى أو مالى أو تجارى . قلت لنفسى : معاشك يكفى ياكرامة . ارجع مع خال عباس ابوجميدة الى عزبة عويس وعش فى هدوء هناك .

وقفت . والدرج المتحرك ينزل بى ، يقوص بى الى أسفل ووضعت يدى استند الى حافة السلم المتحرك الذى يحملنى بعيدا عن محمود بك القرشى والدكتور أحمد السيد باشا وزهية هانم وابنى محمد نجيب .

اترك تلك الحياة الرغدة التى عشتها ولم انتسب اليها بل عمقت فى داخلى الإحساس بالغربة والضياع . حركة السلم النازلة لا تتوقف وتمنيت ان يصاب بعطل لمدة ثانية أو ثانيتين لالتقط انفاسى وأعيد حساباتى لكننى كما تركت نفسى للسلاالم الصاعدة دون روية نزل بى السلم المتحرك الى بهو فندق انتركونتنتال لأجد باب الخروج أمامى .

أخذنى الحنين ، فأخرجت سيجارا وأشعلته ولما نفثت الدخان من فمى وجدته يهفو الى أعلى ، قلت لنفسى غاضبا : عشت حياتك ياكرامة ياابن سرحان السقا تقفز الى أعلى كسحابات الدخان هذه ، لا وزن لك ولا هوية .

اتجهت الى الجراج ، وأخذت سيارتى وقد ضاقت بى الطرق ، فأسرعت الى فندق الرون حيث خال عباس ابوجميدة ، فمعه ربما أجد نفسى الضائعة .

كلما عبرت الأميرة جلبهار تلك الطريقة الزجاجية الفاصلة بين المبنيين القديم والجديد أحست بالموت يقترب منها أو بأنها تولد من جديد . احساسان متناقضان تماما يهجمان عليها ويدهمانها وكأنها طرقة مسكونة بالأرواح .

على اليمين حديقة واسعة يتوسطها تمثال معدنى يرمز الى دور الأمم المتحدة ، وعلى اليسار هضبة خضراء ترقد أسفلها السيارات متراصة فى نظام .

ويتغلب الإحساس بالموت على الأميرة جلبهار اذا كانت قادمة من المبنى القديم الى المبنى الجديد وكانت السيارات بألوانها القبيحة الى يسارها أما اذا كانت متجهة الى المبنى القديم وبحيرة جنيف الى يسارها وذلك التمثال المعدنى يتوسط الحديقة وعلم الأمم المتحدة يرفرف فوقه ، أحست براحة الميلاد .

المبنى القديم أخف على قلب الأميرة من المبنى الجديد الأسمنتى ، وللأسف أغلب ساعات العمل تقضيها فى القاعات الجديدة فى المبنى الحديث . ولهذا السبب تحرص الأميرة على الذهاب الى المبنى القديم والبقاء فى جنباته فتلك الردهات العالية المتسعة تريحها بعد حبسة الكابينة فى قاعات صغيرة مغلقة ولا نوافذ لها .

هناك فى المبنى القديم تسكع دوما الأميرة جلبهار ، واذا أسعدها الحظ بالترجمة فى مؤتمر نزع السلاح غمرتها نشوة وهى ترقب تلك اللوحة الأسبانية الجدارية التى تملأ سقف القاعة زخما وحرارة .

قاعات المبنى القديم العالية تذكرها بمدخل قصر اللواء عويس فى عربة

عويس فى الجيزة . تلك أيام مضت .

اتصلت بها الاميرة جويدان مرة أخرى واشتكت لها من كرامة ، قالت :  
- كرامة تغير ورجع الى اصله .

قالت لها جلبهار على الفور :

- هذا أفضل يا جويدان .

سمعت بكاء ، فدعتها الى الغداء .

عبرت جلبهار المبنى الجديد متجهة الى المبنى القديم ، وأحوال قريبتها جويدان أصبحت تقلقها ، سمعت صوتا يقترب من الخلف ، التفتت الى الحائط الزجاجى على يمينها ، لمحت ظله ، توقفت عن السير ، التفتت اليه ، ضاحكة ، قالت :

- لماذا كل هذه العجلة يا أنور . الدنيا بخير يا أنور .

اجابها أنور سلامة ، وهو يتجاوزها فى عجلة :

- اسمح لى ياسمو الاميرة ، ان اخالفك الرأى . الدنيا ليست بخير .  
والحياة قصيرة جدا ، وأقصر مما نتصور .

تشاءمت الاميرة من قوله الحياة أقصر مما نتصور ، تجاوزها ، نادت عليه توقف ، قالت :

- ما رأيك فى فنجان قهوة فى البار بعد عشر دقائق .

وافقها ، وتابع سيره مهولا ، ميتعدا عنها .

هى نصف ساعة تجدد فيها الاميرة جلبهار نشاطها قبل حبسة كابينة الترجمة ، فتوجهت الى مكتب البريد لشراء عدة طابع تذكارية ومرت على مكتب التليفونات ، لتخابر الاميرة جويدان ، وتطمئن عليها مرة أخرى فكانت مكالمتها السابقة لها موجزة .

فى البار ، وجدت الاميرة جلبهار زميلها أنور سلامة منتظرا ، وقد طلب لها القهوة ، وقطع البسكويت بالشيكولاتة التى تحبها .

جلست ، قالت :

- لقد سبقتنى يا أنور .

لم يلتفت أنور سلامة الى قولها ، وتابع حديثه الذى بدأه مع نفسه وهو فى طريقه الى البار ، قال :

- البيروقراطية فى هذا المبنى هى محصلة البيروقراطيات فى العالم .

قالها فى لهجة حيادية وغير غاضبة ، وكأنه يلقى بحكمة لا تقبل الرد ، وكان وجهه متجهما ، فأرادت الأميرة جلبهار مداعبته والتخفيف عنه ، فقالت :

- هذا من حسن حظنا يا أنور .

قال أنور سلامة وعلامات الكدر على وجهه .

- نعم . معك حق .

وافقنى هذه المرة دون جدال ، وادركت أن هما كبيرا يشغله ، فأنور سلامة لا يصمت عن إلقاء الحكم السائدة الا لسبب .

غير ان صمته لم يطل ، فحمدت الله على سلامته ، قال :

- نعم . من حسن حظنا - نحن الغلبة - ان هذا المبنى تحكمه

البيروقراطية ، لأنه لو امتدت اليه ايدى أولئك الذين يدعون الثورة لفسد كل شىء ، كما فسدت أمور العالم الثالث أو الرابع .

بعدها اندفع فى الحديث دون توقف الا لرشف رشفات سريعة من

فنجان القهوة ، قال :

- اسمعى يا جلبهار ، أنت أميرة ومن العائلة المالكة السابقة ، هذه

حقيقة على عينى ورأسى ، ولكننى لا أخفى عنك ، أنك كنت سوف تصبحين

أولى الذين نتخلص منهم بالإعدام أو بالضرب بالرصاص ، ليس لأنك أميرة

فقط ولكن لأنك من أولئك الذين يدعون أنهم من المثقفين ، لكن سامحه الله

وغفر له ، أقصد جمال عبدالناصر ، فقد ترك الحبل على الغارب للمثقفين

والمدعين والمرتشين ، والنتيجة كما نرى .

كان فى خطتنا الحكم بالحديد والنار لمدة سنتين فقط ، وبعد ذلك تسليم

الحكم لأصحاب البلد الحقيقيين من الفلاحين والعمال ، نقول لهم ،

تفضلوا ، هذه هي البلد نظيفة من الافات ، أمانة في ايديكم ، وعلى فكرة ،  
الفلاح لا يخون الأمانة مطلقا بل يحافظ عليها .

وبعدها أضاف ، قائلا :

- كنا عشرين ضابطا ، وعندما ضممننا الواحد والعشرين ، خائنا وأبلغ  
عنا . لقد قلت ذلك كله ، لجمال عبدالناصر في عام ١٩٥٤ بعد التخلص من  
محمد نجيب ، استمع لي ، ولم يعلق ، وبعدها وجدت نفسي مشردا  
ومطاردا .

تحسست عنقي ، قلت له ضاحكة :

- الحمد لله ان جمال عبدالناصر قبض عليكم وطردكم من الجيش  
ياأنور .

قال لي وهو ينظر في عيني :

- طبعا من حقا ، أنا أقدر المشاعر الإنسانية ، لكن التاريخ لا يرحم .  
هذه مسئولية .

قلت له :

- أهون عليك ياأنور ان تعدمني بالرصااص .

قال وهو ينظر في وجهي ودون ان يرمش له جفن :

- بيدي اذا تطلب الامر . أنا مقاتل محترف ، القتل بالنسبة لي مثل  
شرب كوب الماء ، هذه مهنتي ، ما معنى مقاتل ؟

نظر في ساعته ، قال :

- شكرا على المجيء ، الى اللقاء .

قام .

تابعته بعيني . يسير في تودة ووقار وكأنه يتأمل حديثه الى ، لا أدري  
لماذا استريح للجلوس اليه ؟ على الرغم من ان كلامه لا يعجبني ، ربما لأن  
ملامح وجهه تذكرني بوجه اللواء عويس والد الأميرة جويدان ، تلك  
التقطبية الحادة التي تقسم الوجه الى نصفين ، تثيرني ، وأجد فيها رجولة  
طاغية ، كما ان هناك سمات مشتركة تجمع بين ضباط الجيش وتأسرني

اليهم . واذا كان اللواء عويس عندما تعرفت عليه لأول مرة ، وقعت فى غرامه الى حد الهوس يكبرنى بعشرين عاما على الأقل ، فأننى أكبر أنور سلامة بخمس سنين ، ولهذا أرى نفسى فى حضرته كأم له وأنس لحديثه ، وربما ما يحببني فيه هو أنه لا يزال يعيش فى تلك السنوات المرة وقد توقف التاريخ لديه عند عام ١٩٥٢ ، وهذا هو احساسى أيضا ، وان كنا نرى الأحداث نفسها من منظورين مختلفين .

لو أراد أنور سلامة أن يطبع قبلة على خدى ، لقدمت له فمى ، تركت له شفتى ، لكنه لا ينظر الىّ ، أول أمس التقيته فى الكابينة الصغيرة ، كنا وحدنا ، قلت له :

- ألم تلحظ يا أنور أننى ارتدى فستانا جديدا ؟

قال :

- ياسمو الأميرة أنت دائما ترتدين الجديد ، ومن كان مثلى ، يتوه بين كل جديد .

راقبته ، كان يدعك راحة كفيه بعضهما ببعض ، ويتوجه بنظراته الى نقطة وهمية فى القاعة ، قلت له :

- يا بروك يا أخى .

تابع حديثه بصوت خافت ، قال :

- جلبهار أنت أميرة وربما أدنى من رأيت فى السلم الاجتماعى فى مصر مدير الدائرة ، أما أنا عندما طردت من الجيش كنت ملازما أول ، عشت بين المجندين الاميين ، دربتهم على السلاح . هم بسطاء ، نعم . جهلة ، نعم . لكن بعد ستة أشهر كنت اتحدى بهم الآخرين فى النشان وفى قيادة السيارات . اتحدى بهم الضباط . هذه هى مصر .

كنت أنظر مستمعة ، وقيل أن يبدأ فى جملة جديدة ، قلت :

- ما رأيك فى هذا الفستان ؟

قال :

- طبعا جميل . وأنت سيدة جميلة .

قاطعته قائلة :

- هذا المديح يكفينى اليوم .

قدم رئيس الجلسة الى المنصة ، فوضعت السماعات على أذنى ،  
واستغرقت فى العمل .

اللواء عويس والد الأميرة جويدان فى صحوته الأخيرة قبل وفاته ،  
سألنى :

- ماذا تتوین فعله فى حياتك ؟

أجبتة على الفور :

- سوف أخرج للعمل ، والعمل عندى قبل الزواج .

قال :

- خير ما تفعلین باسمو الأميرة .

وبعدها حملنى رسالة شفوية الى الملك فاروق وعائلته يعبر فيها عن  
كامل اخلاصه وولائه للعرش .

مات بعدها ، وفقدت بموته أبا ، وعشيقا فى آن واحد .

لا أحد يثير فى نفسى هذه الذكريات سوى أنور سلامة والأميرة  
جويدان ، الحديث اليهما يفتح جروحا قديمة لم تندمل بفعل مرور السنين .  
ويا لها من ذكريات .

الحجر فى محله ثقيل . هذا مثل لبنانى سمعته لأول مرة وأنا اجلس فى  
شرفة فندق فى منطقة الحمراء فى بيروت وكنت قد شربت عرقى بلح بطحة  
وراء بطحة وكان رفيقى لبنانيا زلق اللسان خفيف الظل ، ظل يسقيني كأسا  
وراء كأس ولما ألقى بهذا المثل أفقت من السكر فقمتم ودخلت الحمام  
وبدلت ملابسى ودعوته الى نزهة ليلية ولم أسمح له بلمس قصة من  
شعرى .

قلت له فجأة :

- اسمع يا أديب . أنت رجل ظريف . زلق اللسان . ويكفينى الليلة ما



سمعته منك . الحجر فى محله ثقيل .

ظن المسكين انه قد اغضبني واخذ يعتذر لى حتى كشف عن سماجة  
وقلة ذوق وقد خرج عن طوره فطلبت منه مغادرة جناحى على الفور  
وانتظارى فى بهو الفندق حتى انتهى من زينتى .  
طرده .

قال فى مسكنة :

- ياسمو الأميرة اننا لم نبدا سهرتنا بعد .

قلت له ضاحكة :

- سنكمل سهرتنا فى التسكع وليس فى غرفة نومى .

كان أول لقاء لى مع أديب ولا أدرى سبب انزعاجى الشديد من سماعى  
قوله الحجر فى محله ثقيل واحسست به يستخف بى بطريقة غير مباشرة  
بسبب غربتى عن مصر ويظن أننى العوبة بين يديه وأننى صيد سهل لكننى  
لقنته درسا .

قابلت أديب مرة ثانية مصادفة فى عاصمة افريقية نسيته بعد عشرين  
عاما وعرفت انه كون ثروة وشكل دارا للنشر وسألنى فور رؤيتى ، قال :  
- ياسمو الأميرة . فى جعبتى سؤال واحد يعذبنى ، هل لى بمعرفة  
جوابه ؟

ضحكت طويلا .

كان جسده قد اصبح يميل الى السمنة ونبت له شارب كك وعلى الرغم  
من رجولته وفتوته الظاهرة كنت أرى فى وجهه وحركاته لمسة انثوية تقزنى  
منه وندمت لاستطافى له .

قلت له وايتسامتى على قمى :

- لقد حذرتك وقلت لك اننى امرأة صاحبة نزوات كالبحر . انفجر فجأة  
واهدأ فجأة .

ارتسمت على وجهه علامات غضب مصطنع ، قال :

- لقد انتظرت طويلا فى بهو الفندق .

ضايقتنى فيه انه لم يكن غاضبا أو ساخطا على . قلت لنفسى : هذا رجل لا يعرف كيف يغضب ؟ لذا هو لا يعرف كيف يجب .

قلت له :

- هل تزوجت يا أديب ؟

استعد لرواية قصة لى لكننى تركته واقفا وهربت منه .

الأميرة جويدان حائرة . مهزوزة . كالحجر فى غير موضعه . حياتها مع كرامة فارغة . رفضت العمل وكان حلمها ان تعمل بالجامعة الأمريكية لكنها لم تكمل دراستها العالية وتمردت على مناهج الدراسة واستغرقت فى قراءة أخبار الملوك الذين هوت عروشهم والأميرات اللاتى ضعن ودخلن مزيلة التاريخ من أوسع الأبواب وأصبح فى جعبتها موسوعة من الحكايات المسلية والطرائف .

فقدت الحس بالتاريخ وتوقفت عند الحكايات ومآسى الأميرات وبدأت تتحدث كوالدها المرحومة شويكار رفقى عندما كانت تشتد عليها موجات الجنون وتحلم بعودة الملك فاروق وتأديب الضباط .

الأميرة جويدان نسيت دراستها للثورة الفرنسية وفهمها للتحويلات الاجتماعية وأرادت ان تعيد عجلة الزمن الى الوراء بالجمع بين السلطة والثروة فدخلت فى مشاريع مع حاشية السيدة جيهان السادات ونصابين عصر الانفتاح ولم ينقذها من برائتهم سوى عمها حمدى بك .

حدثتني عن الطلاق من كرامة على الغداء ، قالت :

- رجع الى اصله . لا فائدة منه .

لا يضحكنى فى ورثة اسرة محمد على باشا والعائلة المالكة السابقة شىء قدر حديثهم عن الأصل والنسب . قلت لها :

- لنترك حكاية الأصل والفصل جانباً ، ماذا جرى ؟

قالت لى فى حسرة :

- أصبح كرامة لا يحس بوجودى مهما طال حديثه لى . ينظر لى ولا يرانى . اذا بدلت ملابسى أو غيرت قصة شعرى أو وقفت امامه نصف عارية لا يلمحنى ولا يشعر بوجودى . واذا سألته شيئا اجابنى فى كلمات مقتضبة وهو الذى كان يجلس تحت قدمى متغزلا فى رقتى وحالاتى .

استمعت اليها ، وبعدها قلت :

- هذا هو الزواج ، الأزواج يشكون من برود الزوجات والنساء يشكون من تغاضى الأزواج عنهن .

كانت حالتها النفسية لا تسمح لى بالمزاح ، فكبحت جماح نفسى ، وساورنى قلق عليها بسبب اضطراب نظراتها ووجهها الساهم . لم يكن بها حزن أو غضب ولكن يأس وقنوط من الحياة ، وكنت قد رافقتها فى شبابها المبكر عندما اصيبت بحالة من الاكتئاب قبل قيام حركة الجيش فى اواخر عام ١٩٥١ . واذاكر اننى دونت شيئا فى مذكراتى عن حالتها وكانت والدتها الاميرة شويكار رفقى قد وقعت فريسة لنوبة عقلية وراثية فزاد الحمل على اللواء عويس .

كنت أتناول طعامى وبنى شهية للأكل بينما كانت هى تقضم شيئا فى بطء لتشاركنى المائدة وليس الطعام وتبينت انها زادت نحولا وقرت هيئتها وبنات عظامها وترهل جسدها .

علمتنى الحياة ان الحديث لا يفيد فى هذه الحالات ، وسألته عن ايسنت ، قالت :

- ابنتى بدأت تنحاز الى والدها ضدى . تنصره على . وتبدو فخورة وسعيدة بتصرفاته الحمقاء . ضاعت تربيته لها هباءً . هذا يكسر قلبى .

وانسالت دمعتان على وجنتيها . مسحتهما بسرعة ووضعت على عينيها نظارة شمسية داكنة . اخفت عينيها ودموعها عنى لكن تقاطيع وجهها وقد تحجرت قسماتها كانت تقضحها .

تبينت فجأة ان شفتها السفلى وقد تهدلت وسقطت بسبب نوبة بكاء تخفيها وتقاومها تشبه شفة والدها اللواء عويس تماما .

صدت نفسى عن الطعام وتوقفت عن التهام قطع الجمبرى المقلبى التى  
اشتيتها وأقبل عليها فى نهم . مسحت شفتى ، وفطحت حقيبتى وأخرجت  
المرأة الصغيرة وانشغلت عنها للحظات بوضع الروج على فمى . كنت  
أرغب وجهى فى المرأة وأتأمل عيني الواسعتين لأتحكم فى تعبيرات وجهى  
حتى لا أخرج مشاعرها عن غير قصد .

كنت أبحث عن كلمات أضعها على شفتى اللتين صبغتتهما بلون قرمزى  
غامق وانطق بها حتى أخفف عنها ويبدو أنها رأتنى وأنا أدور الكلمات وأفتح  
فمى وأمط شفتى تارة الى اليمين وتارة الى الشمال قبل أن انطق بها ،  
فعاجلتتى ، قائلة :

- هذه ليست أزمة وتمر أو عاصفة وتهدأ . انها القطيعة .

وضعت المرأة واصبع الروج داخل حقيبتى ونظرت فى ساعتى وتأهبت  
للقيام وقلت لها :

- دعيني أفكر فى الأمر ومادامت المسألة مقصورة على عدم الكلام  
وليس الضرب فهى محتملة .

سألتنى غاضبة ، قالت :

- هل كنت تتصورين أننى اتركه يضربنى او حتى يرفع صوته فى

وجهى ؟

تحدثنى وكأن روح اللواء عويس قد حلت بها وقد كان رحمه الله سريع  
الغضب ، حقيقة الآباء يخطئون والأبناء يأكلون الحصرم ، أحسست بأن  
روح اللواء عويس تظللنا ، قلت لها :

- ما أحلى ضرب العشاق ، وزعيقهم .

قلت لها وأنا أتأوه ، وفى حسرة ، وكاننى أخاطب اللواء عويس وليس ابنته  
الحزينة الأميرة جويدان .

نظرت لى نظرة طويلة من تحت النظارة ، وقد أحسست بنظرتها تخترقنى  
دون رؤيتى لعينيها ، هذه النظرة تحسها المرأة عن بعد ، عندما ترقبها  
عيون الرجال من بعيد ولا تراهم ، ولكنها تحس بمتابعتهم لها .

قالت لى الأميرة جويدان بعدها .  
- أمرك عجيب باسمو الأميرة .

صمت برهة ، غبت فيها عن الوجود ، سرحت ، ورأيتنى فيها التقى  
باللواء عويس وكان يطيب له التجول فى جناحى فى الزمالك عاريا ، وهامى  
ابنته تطلب نصيحتى .

أفقت على سؤالها لى :  
- ما رأيك ؟

قلت لها على الفور :  
- سوف أفكر فى الأمر .

العواطف اذا كسرت لا سبيل لإصلاحها ، والجدل لا يرمها ، فبحور  
النفس البشرية لا تعترف بمنطق ، ودعوتها الى صحبتى إلى حفل استقبال  
فى بيت الملحق الثقافى الأمريكى .

قالت متأسفة :  
- لا أقدر على الذهاب دون دعوة رسمية ، وأنا زوجة دبلوماسى  
مصرى .

قلت لها :  
- هذا حفل فى بيت المستشار والدعوة غير رسمية للترحيب بعازف بيانو  
قادم من الولايات المتحدة وقد دعانى المستشار وقال لى احضرى معك  
رفيق او رفيقة .

قالت :  
- لا أقدر . وضعى لا يسمح .

ادركت فى تلك اللحظة انها لا تزال متعلقة بكرامة وانها تعانى من خيبة  
أمل أو غيرة غير ان عنادها قد يدفعها الى الطلاق .

قلت لها :  
- ما رأيك ؟ سوف اعتذر عن عدم الذهاب وثلقتى عندى على العشاء .

قالت :

- هذا أفضل . وابسنت مدعوة اليوم إلى عشاء خارج البيت مع قريب لكرامة من العزبة .

لم اعلق على قولها ، ولم أسألها عن هذا الضيف المفاجيء ، ومن فى اسرة كرامة فى مقدوره القدوم الى جنيف ؟  
دفعت الحساب وقمنا .

اتجهت الى سيارتها المرسيديس الضخمة وانتظرت حتى جلست الى عجلة القيادة وبدت لى كعصفورة صغيرة داخل تلك السيارة ، اما أنا فقد اخذت سيارتى الفولكس الصغيرة وانطلقت خلفها حتى غادرنا الجراج واتخذ كل منا مسارا مخالفا .

كان على دعوة مجموعة من أناس تستريح لهم جويدان ويخفف وجودهم عنها الإحساس بالوحدة . قلت لنفسى : المرأة لا تعيش دون حب .  
حقيقة المعارف كثيرون أما الأصدقاء فقلة . وهذه المشكلة تصادفنى فى كل مرة أقرر فيها استضافة اناس فى بيتى . وقررت ان اترك الأمر للمصادفة .

هل الحياة قصيرة جدا وأقصر مما نتصور كما قال لى أنور سلامة هذا الصباح ؟

الحديث مع هذا الرجل متعة ، كلماته تفتح فى قلبى يناييع التأمل والتفكير ، وركنت سيارتى على مقربة من باب ٦ ، وتوجهت الى مكتب البريد ، وطلبت من السفرجى الاتصال بمطعم النيل ، واعداد بوفيه شرقى لعشرة أشخاص للعشاء الليلة .

كان أمامى عشرون دقيقة قبل بدء نوبتى فى الترجمة فى مؤتمر نزع السلاح فتوجهت الى البار لتناول القهوة ، ولعلى أجد من أدعوه على العشاء .

رأيته جالسا وكأنه ينتظرنى ، وتناولت قهوتى وتوجهت الى مائدته ولم

يكن وحيدا . عرفنى على رفيقه ، قال :  
- الدكتور على سموحة . ياسمو الأميرة جلبهار وعائلة سموحة من أكبر  
العائلات نى الإسكندرية . وهذه قصة اخرى أحب ان احكيها لك .  
رحبت بالرجل ، وتناولت رشفة من فنجان القهوة ، قال زميلي أنور  
سلامة :

- أنت اليوم مدعوة على العشاء معنا . زوجتى والدكتور على وأنا وذلك  
إذا سمح لى بمشاركتمكم .  
ابتسمت .

عاجلنى بقوله :

- لن أقبل الاعتذار ياسمو الأميرة . هذه فرصة . الدكتور على سوف  
يعمل معنا لمدة شهرين وهو صديق ورجل . ويكفى قولى رجل . لأن له قصة  
سوف أرويها لك أو اتركه يرويها لك بنفسه .

تأملت الدكتور على سموحة وجدته لطيف المعشر ويجلس هادئا وعلى  
وجهه ابتسامة مريحة وفى عمر أنور سلامة .

قلت :

- اسمع يا أنور . زوجتك والدكتور على وأنت ضيوفى الليلة .

قال مقاطعا :

- أنت أهل كرم و ...

قلت :

- وسوف اترك لك دعوة خمسة اشخاص تختارهم بنفسك .

سألنى ، قال :

- هل اليوم عيد ميلادك ؟

قلت له ضاحكة :

- اليوم نذكرى عزيزة على نفسى .

دعك راحة كفيه ، ونظر بعيدا ، وقال :

- ونحن نحتفل معك بهذه الذكرى ، ما قولك يادكتور؟  
فتح الدكتور على فمه ، وتبينت انه لا يحرك ذراعه اليسرى ، قال :  
- ارجو ألا يكون وجودى مزعجا لأحد .

قلت له على الفور :

- حضرتك تشرفنى يادكتور .

حل موعد زهابى الى الكابينة ، قلت :

- سوف اعتمد عليك ياأنور فى دعوة من تشاء من الأصدقاء .

اعترض قائلا :

- ياسمو الأميرة ..

تناولت حقيبتى وقمت ، قلت :

- العمل واجب .

ضحكنا .

اللوحة الجدارية أمامى ، ألوانها الزاهية تأسرنى كلما تأملتها وأحس  
بروح اللواء عويس تصحبنى فى عملى وتشجعنى ، وكنت قد سألت عن تلك  
اللوحة وأصلها وفصلها وعلمت انها لقنان اسبانى اسمه خوزيه ماريا سرت  
واسم اللوحة "المنتصرون والمنهزمون" وخمسة من العمالقة يحيطون بهم  
لضمان السلام ومن بعيد فى عمق اللوحة اطلال مدينة سلامنكا الاسبانية  
التي يعود لها الفضل فى تطوير قواعد القانون الدولى فى القرن الـ ١٦ .  
الحياة مجموعة من الانتصارات والهزائم والرابح الوحيد هو الموت ولم  
يخلق بعد ذلك البطل الذى فى مقدوره القول : إننى انتصرت .

هو حوار طرشان يسهم فيه مجموعة من الدبلوماسيين المدربين على  
الكلام وبترجمه كما هو لمجموعة اخرى من الدبلوماسيين العرب .

وقامت معركة بين السفيرين السوفييتى والأمريكى حول اجراءات  
التحقيق والرقابة على الأسلحة الكيميائية وقدم تعديل على المواد المقترحة  
رفضه السفير السوفييتى على الفور .



لمحت السفير عبدالرؤف الريدى يتابع الحوار الدائر ويسجل ملاحظاته  
فضحكت .

حدثت مداخلات من الدول الغربية والشرقية اتسمت بالحدة استوعبت  
بعضها وفاتنى بعضها والمترجم المحترف يعمل بصورة آلية متلاحقة حتى  
يلحق بالمتحدث وتفوته المعانى لكننى من كثرة الترجمة فى مؤتمر نزع  
السلاح اصبحت خبيرة بنوعية القضايا المطروحة والخلافات حولها .

هى نصف ساعة وانتهت نوبتى وتركت الكابينة لزميلى الدكتور عماد  
وحيد وتسلمت الى البار حتى اجدد نشاطى بشرب القهوة .

نزلت السلم ، ومررت على غرفة المراسلين الأجانب وتوجهت الى البار  
مباشرة ، وطلبت قهوتى وجلست الى مائدة خالية ، وبى رغبة حميمة قاتلة  
فى البقاء بمفردى حتى أريح رأسى من عبء الترجمة وهمها وقد راودنى  
إحساس بالملل من عملى كل هذه السنوات وأصبحت أشوق للتقاعد وقلت  
لنفسى :

- هانت يا جليهار هى شهر أقل من عام .

ضاعت أيامى فى طاحونة الترجمة وامضيت حياتى فى عمل متواصل  
خوفا من الوحدة وحافظت على استقلالى وهامى قد حلت ساعة  
المواجهة : لا ابن ولا ابنة ولا زوج .

قلت لنفسى :

- أنت يا جليهار مستقبلك خلفك . وزادك هو ذكريات . ودفاتر أيامك مليئة  
بأحداث صغيرة ولقاءات عابرة . وكلها عدة سنوات قادمة اقل من أصابع  
اليد الواحدة ومصيرك فى بيت للمسنين .

ورأيت نفسى وسط مجموعة من العجائز ، وارتعشت اطراف اصابعى ،  
هذه حياة مية ، والموت لى افضل من قضاء ايامى فى عزلة . هذه قسوة  
من الطبيعة على جنس النساء ، فالرجال يدفعهم شبقهم الجنسى للتعلق  
بالحياة والجرى وراء النساء اما المرأة فيذبل جمالها وتنكفىء على ذاتها  
تفتش فى جعبتها عن مشاعر دفينه أثرت حياتها ويا ويل من كانت جعبتها

خالية من قصة حب فسوف تذبجها الساعات والدقائق والثواني فى  
شراسة .

قلت لنفسى :

- هذا قدرك .

عشت فى غربة متصلة ، فى طفولتى المبكرة ، طردت من مصر بسبب  
طمع الملك فؤاد الاول فى اطيانى واملاكى التى ورثتها ورحلت الى باريس  
قسرا للدراسة ولم اعد الى مصر الا فى سنة ١٩٥٠ بعد ان سمح لى جلاله  
الملك فاروق باستعادة املاكى واطيانى من الخاصة الملكية وعاونى اللواء  
عويس والد الاميرة جويدان فى انتزاع ثروتى من فم الاسد .

هى سنوات قلائل عشتها فى مصر فى كنف اللواء عويس واغرقنى فيها  
فى بحور العشق وخبرت فيها اسرار العائلة المالكة عن قرب حتى وقع  
الانقلاب المشنوم فغادرت مصر بعد ان هربت ثروتى ومجوهراتى بمعاونة  
واحد من مجلس قيادة الثورة .

استقر بى المقام فى جنيف كموظفة دولية لا كلاجئة سياسية وقطعت  
صلاتى بالاميرات والأمراء من العائلة المالكة السابقة وعشت حياتى يوما  
يوما .

لست نادمة عما مضى وان كنت خائفة من ايامى المقبلة .

كنت أود العودة الى مصر والاستقرار فيها على مقربة من السيدة  
جيهان السادات لكن مصرع الرئيس على هذا النحو الفاجع الدامى كرهنى  
فى العودة .

غربة فى الشباب وغربة فى الشيخوخة . وأنا ابنة وحيدة .

كان فى مقدورى العمل فى مجال صناعة الأزياء والموضات وكموديل  
ايضا لكننى خفت من حياة اللهو المسلية فعمرها قصير جدا واحترفت  
الترجمة وجعلتها مهنتى فى الحياة .

كل الناس تعمل من أجل اكل لقمة العيش أما أنا فأعمل من أجل محاربة

الزمن وتحقيق ذاتي .

زميلي الدكتور عماد وحيد دائما يشاركني الترجمة فى دورات نزع السلاح ودراسته العلمية تسعفه فى فهم ابعاد الأمور أكثر منا نحن جمهرة المترجمين المحترفين .

سألت الدكتور عماد وحيد ذات مرة ان نضع سويا كتابا فى القضايا الرئيسية لنزع السلاح ، فنظر لى خائفا وقال :

- ياسمو الأميرة أنا عندى طفلة صغيرة واود تربيتها .

فى البداية لم افهم مقصده ، قلت له :

- سوف افرغ لجمع الوثائق الأساسية .

قال :

- ياسمو الأميرة انا مترجم ، ما اسمعه فى الكابينة انساه عند نزولى على السلم . لا اتذكره ولا اود تذكره .

سألته :

- كيف يادكتور؟

اجابنى ضاحكا ، قال :

- حالة من التخلف العقلى .

شاركته الضحك ، قال :

- معك حق .

نظر حوله متوجسا ومتأملا وجوه الجالسين حولنا وجها وجها وبعدها

قال :

- اذا كانت هناك معركة عسكرية فهل يسمح للقادة بنشر دراسات عن الأسلحة ؟ نحن فى ذورة الحرب الباردة والصراع على اشدّه بين الشرق والغرب ومناقشة قضايا نزع السلاح الهدف منها اعطاء شرعية لسباق التسليح واللعب فى هذه الحلبة ماله الموت بضرية من مظلة مسموم سنّها أو ...

وجد بغيته فى صحبة الغانيات الشقراوات ، وكنت اراه فى ردهات  
الفنادق جالسا الى اكثر من امرأة ساقطة مستمعا لهن فى ود ، ولا اعتقد  
انه كان يسمعهن الشعر ، بل كان يتأملهن فى وجد ويعب الخمر .  
هذا رجل قتله شبقه .

انتهيت من قهوتى . قمت . احس بملل وضيق . من لا يقضى على يد  
الغانيات يقتله الضجر .

سيارتى على مقربة من المبنى الجديد فى الناحية الأخرى وتشاءمت من  
الصعود الى الطابق الثالث وعبور تلك الطرقة الزجاجية المسكونة  
بالاشباح ، وفضلت السير فى ممرات الطابق الأول المهجورة .

الكافتيريا والمطعم مغلقان ، والممر الطويل غارق فى صمت مريب  
وخالجنى خوف ، فهنا الجريمة تكون كاملة ، وسرت لا أسمع سوى دقات  
قلبى ، وضربات كعب حذائى .

فى نهاية الممر ، كان المصعد خاليا ، فدلقت اليه ، وضغطت على  
اشارة الطابق الثالث غير أن المصعد هبط بى الى الطابق السفلى تحت  
الأرض ، تركت المصعد اتطلع الأمر ، وجدت مجموعة من العمال ينقلون  
مطابع جديدة .

التفت الى واحد منهم ، قال :

- ايها السيدة الجميلة المحترمة . هذا المصعد معطل . طالع نازل .

تبينت انه يحادثنى بالايطالية ، قلت :

- ايها الرجل المحترم ، اين المصعد الآخر؟

ترك الرجل رفاقه ، قال :

- هذه السيدة الجميلة غريبة فى هذا القصر المسحور .

وتقدمتى بخطوة فى الممر .

اسقط الرجل هذه المرة صفة المحترمة واكتفى بالجميلة وارادت مجاملته

فقلت له :

- انت فارس حقيقى .

نظر الى برهة متأملا وجهى وشعرى ، وقال :  
- هذا زمان ردىء والفرسان لا مكان لهم ، لكن من نعم السيد المسيح  
علينا ان به سيدات جميلات شقراوات مثل حضرتك .

سألته ، قلت :

- هل تحب الشقراوات ؟

اجابنى وهو ينظر فى عينى ، قائلا :  
- قلبى اخذته شقراء فى اول ثمانية وقعت عيناي فيها على عينها .

ضحكت من قلبى ، قلت :

- اذا حدث وتقابلنا ثانية ، فانت ضيفى على الغداء .

قال :

- سوف اتضرع الى المقادير ان ترتب هذه المصادفة الحسنة .

جاء المصعد ، سألنى :

- الى اين ؟

قلت :

- سيارتى امام باب اربعين .

سألنى :

- هل تسمحين لى بصحبك الى باب السيارة ؟

قلت :

- يسعدنى .

فى المصعد كان صامتا ، وحل بى تعب مفاجىء ، وأحسست بضيق  
تنفس ، ودوار شديد ، وتمنيت ان امسك يده أو استند الى كتفه ، لكننى  
تحاملت على نفسى .

هذه الحالة قد تكررت عدة مرات فى الشهرين الماضيين .

نظرت اليه وتحيرت ، هل اصرفه بعيدا عنى ؟ من السهل على ان افتح  
حقيبتي واتناول منها اصبع الروج أو علبة البودرة وأتوقف برهة وادعك  
شفتى ووجنتى امامه ، اما ان اتوقف واخرج حبة كى اضعها تحت  
لسانى أو ارش سقف حلقى بالبخاخة فهذا يعنى اننى انتحر امامه واحكم  
على انوثتى بالموت .

هذا غريب عنى ، عامل بسيط قابلته مصادفة منذ دقائق لكنه جعلنى  
ادقق فى تصرفاتى بينما الموت يقترب منى .

الحيطان أحس معها بالأمان وتلكأت فى وقفتى الى جوار المصعد  
فخطوة الى الخلف واستند بمرفقى الى الحائط بينما سيارتى هناك امام  
باب اربعين ويفصلنى عنها بهو واسع كالبحر .

اتساع البهو ، جعلنى اطوف فى الزمان واتذكر اللواء عويس عندما كان  
يتهرب منى ويرفض لقائى فى سنوات مرضه قائلا :  
- المرض عورة ياسمو الأميرة ، والفلاح الحقيقى لا يكشف عن مرضه  
امام الأعراب .

لا خوف علىّ هنا ، فعشرات من الناس حولى ، قلت :  
- شكرا ايها السيد .

نظر الئى فى تردد ، قال :  
- ليلة سعيدة أيتها السيدة الجميلة المحترمة .

ابتعد عنى . وبقيت كلماته معى ، وسرتُ وسرتُ وكأننى اغوص واطفو  
فى رمال ناعمة ، وقبل ان اسقط ، رأيته مقبلا ناحيتى ، قلت :  
- كرسى يامحروس .

هى دقائق وكنت فى العيادة وحولى مجموعة من الأطباء والممرضات  
والزملاء والزميلات .

لحقت بضيوفى فى وقت مناسب ، وقررت ألا ازعجهم بما جرى لى بعد  
انتهاء عملى ، ربما وجهى شاحب بعض الشيء ، لكننى استعدت نشاطى  
كاملا ، وبى رغبة للأكل ، وشهية للضحك ، والثرثرة .

إذا كانت هذه صحوة ما قبل الموت فما اجملها ، فالموت بين مجموعة من الأحياء خير من السقوط والقضاء فى ممر الطابق السفلى أو بهو الطابق الثالث الواسع .

تقدم محروس ناحيتى مسرعا وامسك بيدي واسندنى الى الجدار بينما حمل زميل له الكرسى وقدم به ، وكانت آخر كلماتى التى اذكرها :  
- كرسى يامحروس .

تعجبت فى تلك اللحظة ، فقد كان محروس يسندنى الى صدره ويدفعنى للوقوف بركبته ، وفى ذات اللحظة يحضر الكرسى لى ، ليجلسنى ، قلت لنفسى :  
- محروس موجود فى كل مكان .

كانت مجموعة ترتدى الملابس البيضاء تندفع نحونا جريا ، فضحكت وسألته :

- ماذا جرى يامحروس ؟

اجابنى ، قال :

- انت بخير ياسمو الأميرة .

قبل ان تمسك الطبيبة يدي لقياس النبض والضغط ، سألته :  
- محروس . من ابلغ العيادة ؟

ضحك .

شغلتنى الطبيبة عن محروس ، ونقلت الى العيادة ، على الكرسى ، وهناك ، اعطيت مجموعة من الأدوية والحقن ، وطلب منى الاسترخاء على سرير لمدة ساعة ، فنعست .

القيت نظرة على البوفيه ، كانت كميات الطعام مناسبة وشهية ، وطلبت من أنور سلامة افتتاح البوفيه ، فتنازل للأميرة جويدان ، وبينما ارحب بالضيوف واشكر الدكتور على سموحة على تشريفه ، دق جرس التليفون ، كان محروس ، يسألنى عن صحتى ، قلت :

- تعال يامحروس . عندى مجموعة من الاصدقاء على العشاء .

اعتذر عن المجيء ، قال :

- أسف على الإزعاج .

اصر على موقفه ، قال :

- العفو ياسمو الأميرة .

قلت :

- تعال يامحروس . وكف عن هذا التعالى .

تلعثم ، قال :

- ياسمو الأميرة .

- قلت :

- تعال . لا تتعبنى .

قال :

- حاضر .

وضعت السماعه ، كان الدكتور على سموحة مشغولا بالحديث الى  
الأميرة جويدان ، فاسترحت ، والتفت الى حرم أنور سلامة ، ارحب بها  
وفجأة . قلت لها :

- ياخيتك يامدام بزوجك . تصورى طوال اربعة عشر عاما طويلة عريضة  
عملنا سويا ، لم يلتفت مرة لفستان جديد لى ، أو قصة شعر جديدة .

ضحكت مدام فاتن ، واقتر ثغرها عن اسنان جميلة ، قالت :

- انور سلامة لا يفرق بين جلابية البيت وفستان الخروج . بعد زواجنا  
بشهر أو شهرين كان علينا القيام بزيارة فى مناسبة مهمة ، وسألته ، ياأنور  
ما رأيك فى هذا الفستان ؟ نظر الى وقال ، جميل يافاتن . لكننى كنت غير  
راضية عن الفستان ، فبدلته ، وسألته ، رأيه ، فاجابنى نفس الاجابة ،  
فبدلت الثانى ، والثالث والرابع وفى كل مرة اتلقى نفس الاجابة ، حتى  
فرسنى ، قتلنى ، واخيرا ، وضعت على جلابية المطبخ فوقها القوطة ،



وعصبت شعري بمنديل ، وكأننى ذاهبة لتنظيف السطوح أو العمل فى عزق الحديدية ، وقلت له ، هيا بنا ياأنور ، أنا جاهزة ، فى هذه المرة لم أسأله رأيه ، وهو لم يقل لى شيئا ، وقاد السيارة وأنا الى جانبه ، فى طريقنا الى موعدنا ، اخذ يحدثنى ، وأنا مقتولة من الغيظ ، وقبل وصولنا الى مقصدنا ، طلبت منه ان يصحبنى الى بيت والدتى لسبب مهم لدقائق فقط ، فقال ، حاضر .

وتوقفت مدام فاتن عن الكلام ، وهى تضحك ، قالت :  
- ما جرى فى بيت والدتى أنور يرويه لك .

التفت اليه ، ناديته ، قلت :

- تعال ياأنور .

قل وهو يدعك يديه :

- الأميرة جلبهار وزوجتى ، خير ان شاء الله .

واكمل لى أنور الحكاية بذات الطريقة التى يتحدث بها عن انقلابه الفاشل ضد جمال عبدالناصر . كلماته حيادية ، باردة ، قال :

- فجأة ضربت فاتن بالصوت الحياتى من أعلى درجات السوبرانو وهى تطلب الطلاق .

استمر أنور سلامة فى حكايته ، وأنا ميتة من الضحك ، قال :

- الطلاق ياأميرة جلبهار فى عرفى مسألة جادة ، وهى مسألة مكروهة جدا ولكنها واردة ايضا مثل بقية مصائب الحياة . قلت : يافاتن أنا على استعداد تام لمناقشة هذه المسألة ولكن ليس قبل عشرة أيام .

شدتنى حماتى من يدى الى غرفة جانبية ، وسألتنى :

- لماذا سحبت فاتن من شعرها وبفوطه المطبخ الى هنا ؟

قلت لها :

- ماذا تقولين ياحماتى ، نحن كنا فى طريقنا لحضور حفل زفاف .

قالت :

- حفل زفاف ياأنور بفوطه المطبخ ؟ حفلة تنكرية هى ؟

قلت :

- فانتن وضعت عليها اغلى فستان ، ثمنه اربعمائة جنيتها ، وسالنتنى رابى ، قلت لها جميل ياقاتن ، ويبدو انها بدلته من ورائى .

ضحكت حماتى ، قالت :

- ياخسارتك ياأنور .

كنت اتابع أنور سلامة وأنا ميتة من الضحك ، الى درجة اننى لم اعد اقوى على الوقوف ، قلت :

- نجلس وتكمل لنا الحكاية .

قال أنور سلامة :

- خرجت الى الصلاة وكانت دهشتى كبيرة فقد كانت فاتن متنكرة فى زى غسالة ، فقلت لها غاضبا ، هذا حفل زفاف ابنة نائب رئيس الوزراء ياحببىتى وليس حفلة تنكرية .

فاجابتنى فاتن ، قالت :

- نسيت ياأنور . وانتهى الأمر .

ضحكت وضحكت .

كنت أقول لىفسى ، لقد أحسن جمال عبدالناصر بالقبض على أنور سلامة ورفاقه ، فكيف يتسنى لرجل لا يلحظ فستان زوجته حكم مصر ، الملك فاروق كان يعرى المرأة من أول نظرة ويمتدح اكسواراتها بل وملابسها الداخلية ايضا .

بعدها استدركت ، قلت لىفسى : كان الملك فاروق يفعل ذلك مع صديقاته من الغانيات وليس مع زوجته وأم بناته . وتعاطفت مع أنور سلامة . ورميته بنظرة حانية وضبطتنى زوجته ، فاحسست بخجل .

كانت الأميرة جويدان تتابع الحديث مع الدكتور على سموحة حول الخشب وانواعه وطرق تخزينه والنقل البحرى وكأنها مقبلة على اجراء صفقة تجارية ضخمة .

وتعجبت .

وتركتهما يتحدثان فى ركن من الصالة .

كان السفرجى مشغولا بمراقبة البوفيه ، سألته :  
- فيه حاجة ناقصة .

اجابنى ، قال :

- البوفية معد لاستقبال عشرة اشخاص .

تذكرت اننى طلبت من انور دعوة بعض الاصدقاء بمعرفته ، سألته ،  
فاجابنى ، قائلا :

- مجموعة الزميلات والزملاء سوف يصلون بعد ساعة .

استرحت ، قلت :

- اهلا وسهلا .

انسحبت الى غرفتى ، وبدلت ملابسى ، وتسريحة شعرى ، ووضعت  
قليلا من المكياج على وجهى ، وقد تبينت ان لونى شاحب ، والإرهاق على  
وجهى ظاهر بعد ان ارتسمت دائرتان سوداوان تحت عينى ، ويانت  
تجعدات على رقبتي .

كنت اطعم فى اخذ حمام ينعشنى ، لكننى تكاسلت واكتفيت بدعك  
جسدى بكونيا منعشة ، قلت لنفسى ، هاهى متاعب الجسد يا جليهار . لا  
يخفيها الشعر الكستنائى الناعم ولا المكياج الصارخ ولا الملابس الغالية .

دقت الدادة على بابى ، سألتنى :

- اية خدمة ؟

طلبت منها الدخول والبقاء الى جوارى ، سألتها :

- ما رأيك فى هذا العقد ؟

قالت :

- فانت ياسمو الاميرة .

ضايقتنى اطراؤها ، وهى عادة قليلة الكلام ، طلبت منها الخروج وان

تتركنى بمفردى ، الجميع يطرونى اليوم ، فى الساعة التى احس فيها بانتهاء عمري الافتراضى مثل السيارة والثلاجة ، وكأنهم يودعوننى .

خجلت من تناول الحبة امام العامل الايطالى حتى تهاوت مقاومتى وتصدعت قواى - قلت لنفسى : هذا عيب . الشاب فى عمر ابنتك يا جليهار ، وبعدها قلت لنفسى ضاحكة وأنا انظر الى المرأة ، ربما لهذا السبب خجلت ، ولو كان كهلا ما اهتمت به وكنت قد اخرجت البخاخة امامه ورششت سقف حلقى وجددت نشاطى .

كان ظريفا معى ، ووسامته فائقة كتمثال رومانى ، ووجهه قتلنى ، ولما قال : أيتها السيدة الجميلة المحترمة ، كنت قد تعلقت به .

انتهيت من زينتى ، قلت لنفسى ، اذا كنت قد اخفيت ضعفى عن هذا العامل فأنا لن أشير بكلمة واحدة بما جرى لى أمام ضيوفى الليلة .

افتقدت وجود الدادة الى جوارى ، كنت أود ان تبقى معى وأنا اتزين حتى لا تدهمنى خواطرى وتفسد على دقائق زينتى ، لكن إطراءها اغضبني وهى الصامتة دوما .

ألقيت نظرة اخيرة على قبل خروجى ، قلت :

- أميرة مغربية أو تركية فى قصر عبدالحميد .

ثم اكملت لنفسى :

- أو جارية فى قصر شهريار اللعين .

كل امرأة فى داخلها جارية عيناها على الموضة وعلى الرجال وأنا جاريتى التى فى داخلى فتاة لعوب تود الانطلاق وتعشق اللهلولكننى دريتها على الكتمان والجدية وجعلت منها جارية متكبرة لا تسلم جسدها ابدا .

خرجت الى ضيوفى ، ولم اغب عنهم سوى دقائق قليلة ، قالت لى فاتن زوجة زميلى أنور سلامة :

- جميلة ياسمو الأميرة .

قالتها لى همسا ، ثم نادت على زوجها ، وسألته :

- ما رأيك يا أنور في فستان سمو الأميرة ؟

دعك راحة يديه ، ونظر الى سقف الجهو ، قال :

- الأميرة جلبهار دوما اميرة .

سألته ، قلت :

- ما رأيك في هذا العقد يا أنور ؟

خفض رأسه ونظر الى قدمي وتأمل السجادة ، قلت :

- أنا أسألك عن العقد وليس عن خلخال يا أنور .

كنت قد وضعت على رقبتي شالا بنفسجيا اخفى به التجعدات ووضعت  
عقدا من الزبرجد يتدلى على صدرى البارز ليستقر على فستان أحمر قاني  
مزين بالقصب .

ضايقتني النبرة التي قال بها : الأميرة جلبهار دوما اميرة وذكرتني بقول  
الكاتب الأمريكى وليام فولكنر الشهير : عاهرة يوما دوما عاهرة .

قلت :

- زوجك يافاتن يقتلنى ، واذا بلغك اننى انتحرت أو مت كمدا فانت

تعرفين السبب .

اكمل أنور سلامة ، قال وهو ينظر الى السجادة :

- بعد هزيمة ٦٧ التى قتلتنا جميعا توجهت الى الفريق ..

قاطعته ، قلت :

- زوجك يافاتن هانم صارحنى باننى كنت سوف اقتل اذا نجح انقلابهم

ووقتها كنت فى عز شبابى .

قال أنور سلامة :

- بيدي ياسمو الأميرة ، أنا مقاتل محترف ، والتاريخ لا يرحم ، كنا ..

قلت ضاحكة :

- ده أنا كنت زى القمر يا أنور ، تقتلنى برضه .

قال أنور سلامة وكأنه لا يرانى أو يسمعنى وتابع حديثه المفضل حول

هزيمة ٦٧ ، ومكملا ما بدأه :

- تسللت الى صحراء سيناء ومعى ثلاثة من الجنود المتطوعين وسعيت لعقد لقاءات مع قادة العربان لتسهيل بعض العمليات الانتحارية ولجمع السلاح الذى تركه الجيش . احتك بى أحد الخونة من العربان ، رفضت الحديث اليه ، واصلت عن رغبتى فى مقابلة احد شيوخ القبائل صاحب السمعة الحسنة والتاريخ الوطنى وفقا لمعلومات زودت بها فى القاهرة . كلمته فى البداية بالحسنى ووفقا للاصول التى اعرفها جيدا . دعوته لتناول الطعام ، فرفض ، عرضت تزويده بكيسين من الدقيق ، رفض ، قال انه لا يقبل سوى الدولارات او الجنيهات الذهبية ، ادركت انه من صغار العربان وليس كبيرا فى قومه ، فنصحته بالابتعاد عن طريقى ، تناول بالكلام فى سخرية واضحة من الضباط والجنود والشعب المصرى باكملة ، تركته يتناول حتى وقع فى شر اعماله ، قال ، انه يأكل بمفرده خمسة ضباط ويحلى بعشرة عساكر ، تناولت " الكلوب " قريته من وجهى ، طلبت منه ان ينظر لى لأننى اضحك على كلامه ، تمادى ، قلت له ، شيئا من النصائح ، واشهدت عليه رفاقه ، وكنت اذكره بكل كلمة ، واطلب من رفاقه ترديدها ، واقول لهم ، اللهم اشهد علىّ فأنا برىء من دم هذا الظالم المتكبر .  
توقف أنور سلامة عن الحديث برهة ، ودعك يديه ، بعدها اكمل ، قال :

- لن اطيع عليكم . طلبت منه الاقتراب منى ، فقدم منقوخا ، وماهى الا دقائق حتى كنت قد لويت رقبته ، وغرزت أسناني فيها ، وملأت كفى من دمه ، وشربته ساخنا ، وقلت لرفاقه انتم اسرى ، والا ...

قلت فزعة :

- اسكت يا أنور . اسكت .

قال فى هدوء :

- أنا ساكت باسمو الأميرة ، لكنه الطبع ، والطبع يغلب .

عندما صحت فيه صارخة : اسكت يا أنور . كان صوتى قد ارتفع من

شدة فزعى ، اما هو فكان يحكى لنا هذه الفظائع بصوت خافت يشبه  
الهمس ويذوب رقة وعذوبة ، حتى احسبني باننى القاتلة بينما هو عاشق  
ولهان .

قال :

- اسمح لى بجملة اعتراضية واحدة يا جلهار ..

قلت :

- تفضل يا أنور .

قال :

- فى ذلك الحين كنت مفصولا من الجيش واعمل بشركة نقل قطاع  
عام ، على كل حال ليس ذلك سرا ، شركة النيل للنقل البرى والاتوبيسات ،  
هذا للعلم فقط .

سألته ، قلت :

- لماذا لا تكتب مذكراتك يا أنور ؟

اجابنى ، قال :

- هذا سؤال الاجابة عليه معقدة جدا ، لاننى اذا كتبت سوف تنهار  
اعمدة كثيرة والله سبحانه وتعالى لحكمة الهية قد امرنا بالستر .

قلت له فى سخرية :

- اى ستر يا أنور ، اذا كنت نويت قتلى وشرب دمي :

قال موضحا :

- هذه ليست خناقة باسمو الاميرة ، اننا نتحدث عن التاريخ والصراع  
وبناء دولة .

قلت :

- كنت لى اسامحك الى يوم القيامة يا أنور اذا كنت قد قصفت عمرى فى  
عز شبابى .

دعك يديه ، قال :

- مفهوم يا أفندم . مفهوم .

حضرت مجموعة من الزميلات والزملاء ، رحبت بهم وقد أسعدني حضورهم وقد اطال كل منهم النظر الى ، وشد على يدي قائلا :  
- كيف صحتك الآن ؟

أدرت ان خبر دخولى الى العيادة قد وصلهم ، كنت اقول ضاحكة :  
- مثل الحصان .

سألتنى زميلة ، قالت :

- ماذا جرى يا جلبةهار ؟

قلت لها :

- "دوخة" بعد انتهائى من العمل .

ثم اكملت :

- دلح بنات .

قالت :

- الحمد لله .

كنت ارى الشك فى عينيها وكأنها لا تصدقنى وقد ضايقتنى ذلك الاهتمام وجعلنى أحس باننى مريضة فعلا ، فدعوتهم جميعا لشرب نخب زميلنا الدكتور على سموحة .

وصل محروس ، دعوته لشرب نخب الدكتور على سموحة ، فتناول كأسا من عصير الليمون وقال :  
- فى صحة الجميع .

وزعت اهتمامى على الجميع ، رجالا ونساء ، وعيناي تتابعان محروس والسؤال على لسانى ، لماذا قدم الى فى اللحظة التى اوشكت فيها على التهاوى ، ومن ابلغ طبيبة العيادة ؟

أحطته بعينى ، وحانت منه نظرة نحوى ، فضحكت ، ناديته ، قلت :



- من اخبرك بامحروس اننى فى حاجة الى مساعدة ؟

اجابنى ، قال :

- اخبرنى زميلى فى الطابق الأرضى ، ان سيدة ربما تكون فى حاجة الى مساعدة عاجلة تتجه الى الطابق الثالث ، فاسرعت ناحية المصعد ، هذا كل ما فى الأمر .

سألته ، قلت :

- هل الطرقات والممرات ...

قاطعنى ، قال :

- نحن مهمتنا سلامة الجميع ، خاصة الزوار ، بعضهم يحس بإعياء ، أو يحتاج مساعدة ، آلاف الناس تتدفق على المبنى يوميا ، ونحن رجال الأمن نعتبر انفسنا فى خدمتهم جميعا .

قلت له :

- لم اكن بالمصعد بمفردى لحسن الحظ .

اجابنى ، قال :

- اعرف .

ضحكت من شفتى ، قلبى كان مشغولا ، قلت :

- تعرف من صعد معى ؟

قال :

- نعم . زميل جديد .

سألته ، قلت :

- اسمه ايه ؟

اجابنى ، قال :

- سنيور كانتورى .

قلت :

- كنت اظنه عاملا وقد ترك عمله لمرافقتى لإعجابه بى .

قال :

- هذا واجبه .

قلت :

- لم يكن معجبا بى !!

اجابنى ، قال :

- حذار من الطلاينة والأسبان ، كلامهم مثل السكر ، وغزلهم رقيق

وصريح .

ضحكت ، قلت :

- انت تعرف ماذا قال لى .

ضحك ، قال :

- لابد انه قد بدأ حديثه قائلا لك : أيتها السيدة الجميلة المحترمة .

قلت :

- بالضبط .

ضحك .

احسست بخيبة أمل ، وادركت كم كنت غبية ، فقد حادثنى كما يحدث  
بقية النساء ، وقد صحبنى لأننى فى حاجة الى مساعدة ، وربما بأمر من  
مسنول ، وليس حبا فى أو أعجابا بى .

قلت لنفسى : اذا لم يكن معجبا بى ، فيكفينى انه يعجبنى ، وجهه  
قاتل ، وجه لا يرى الا فى افلام بازوليينى أو قللينى .

هذا وجه من تراه لا تتساه ، ويبدو اننى آخر من يعلم .

اقتربت من الزميلات ، كن يبتسمن ويتهامنن فى حلقة نسائية وبصوت

خافت ، قلت : هذه فرصتى .

كانت سميرة تضحك فى عنف وصخب بينما علا المجد تقف امامها صامته ، قلت :

- ما الحكاية ؟

قالت سميرة :

- هل رأيتِه ؟

تساءلت ، قلت :

- من ؟

قالت سميرة :

- قاتل النساء ومعذب القلوب سنيور كانتورى .

ضحكت ، قلت :

- تشرفت اليوم بمعرفته .

قالت علا المجد مبتسمة فى خبث :

- يبدو انه يفضل الشقراوات ولا يلتفت الى السمراوات .

قلت لها :

- فرصتى كبيرة ، وقد غازلتى اليوم قائلا : أيتها السيدة الشقراء الجميلة المحترمة .

شدتتى سميرة ناحيتها لتقربنى منها ، سألتنى :

- ماذا قال لك ايضا ؟

قلت ضاحكة :

- طلب منى ان اسمح له ليصحبنى الى عريتى عند باب ٤٠ لكننى رددته .

قالت سميرة :

- طاوعك قلبك لرفض طلبه . انت جبارة يا جليهار .

قلت ساخطة :

- لم يكن لدى وقت للحب .

وبعدها ، ااضفت ، قائلة :

- جاء طلبه فى وقت لا يئاسبنى . فى اللحظة الخطأ ، وتعييس الحظ من يأتية الحب أو المال فى اللحظة غير المناسبة .

كانت علا المجد تسمعنا صامتة ، فى ترفع ، وكأنها تسخر من سذاجتنا أو طيشنا ، أو قلة أدبنا ، فاضفت قائلة :

- صرفته عنى ، وبعدها جاءت الإسعاف لتتقلنى الى العيادة .

قالت سميرة ، ضاحكة :

- صرعة الحب . مسكينة .

قلت وأنا انظر الى علا المجد لاغيظها :

- لكننى لم اضيع الفرصة تماما ، دعوته على الغداء فى يوم ما .

قالت سميرة وهى تتوسل لى :

- ارجوك خذينى معك .

قربتها الى وحضنتها ، قلت فى حنان :

- حاضر يا حبيبتى .

قالت سميرة

- نفسى ، اجلس امامه وانظر فى عينيه وأأمل وجهه عن قرب . اود ان

اطبع صورته فى اعماقى ، فاذا حدث وانجبت ابنا فى يوم ما ، كان على شاكلته .

ضحكت ، وابتسمت علا المجد فى خبث ، قلت :

- هناك طريقة اسهل يا حبيبتى لإنجاب طفل على شاكلته .

قالت سميرة فى سذاجة بنت الثالثة عشرة ، والبراءة فى عينيها :

- لا اعرف هذه الطريقة .

ضحكنا ، وتفرقنا .

اقتربت من زميلي الدكتور عماد وحيد ، كان واقفا بمفرده بالقرب من البوفيه ، وفي يده كوب من عصير الليمون ، قلت :  
- ماهى آخر الأخبار؟

اجابنى ، قال :

- وقعت فى آخر الجلسة مداخلة ساخنة بين السفيرين الأمريكى والسوفييتى حول المخزون من الأسلحة الكيمايئة والبيولوجية وانتهاك الاتحاد السوفييتى لكافة الاتفاقيات التى يتم التوصل اليها .

قلت :

- لا أحد ينتهك الاتفاقيات قدر الإدارة الأمريكية ومبادرة حرب النجوم تتعارض مع نصوص اتفاقية الحد من الأسلحة الاستراتيجية بشكل ظاهر لا يغيب عن طفل صغير .

قال الدكتور عماد وحيد :

- ياسمو الأميرة مبادرة الدفاع الأمريكية خطوة لغزو الاتحاد السوفييتى من الداخل . لتفتيته ، وهذا لم يفث وزير الخارجية السوفييتى الداهية جروميكو فالمبادرة هى قبلة السم على الطريقة الأمريكية ظاهرها برىء وباطنها خطير خطير .

قلت :

- من حسن الحظ ان مؤتمر نزع السلاح لا يتعرض لهذه الأمور .

قال :

- هذه أمور تخص القوتين الأعظم فقط ويتم التفاوض حولها خارج نزع السلاح وإذا تم الاتفاق حولها جاءت لنا فى المؤتمر .

- سألت اليوم احد الصحافيين العرب حول التسمية الأفضل ، حرب النجوم أم حرب الكواكب ، فقال لى انه يفضل تعبير حرب النجوم ففيه شاعرية .

اجابنى ، قال : ...  
- عرفته ، هذا شيوعى .

قلت له غاضبىة :  
- حرام عليك ، هذه تهمة خطيرة ، والرجل يكذح .

قال ضاحكا :  
- اسأليه ؟

قلت له فى تحد ظاهر :  
- سوف اسأله .

قال :  
- هذا الرجل كان معاديا للرئيس السادات ، ويكرهه كراهية شديدة .

قلت ضاحكة :  
- كل من يكره السادات شيوعى يادكتور .

قال فى ثقة :  
- نعم .

سألته فى براءة ، قلت :  
- الذين اطلقوا النيران على السادات وارذوه صريعا شيوعيون .

اجابنى ، قال :  
- ياسمو الاميرة هذه قضية اخرى ، السادات كان يخاف الشيوعيين ،

فجمع حوله مجموعات من السلفيين ، وسلحهم ، ورياهم لمحاربة  
الشيوعيين ، لكنهم انقلبوا عليه ، وخانوا الاتفاق ، من اذن قتل السادات ؟  
الشيوعيون ؟

قلت :  
- هل هذا منطق يادكتور؟

اجابنى ، قال :

- السياسة باسم الأميرة لا تعرف المنطق ، تعرف المؤامرات فقط .

قلت :

- عيب عليك يا رجل .

قال :

- هذه هي الحياة ، ولنعشها كما هي .

قلت :

- للأسف .

زميلي الدكتور عماد وحيد يتحدث عادة في أكثر الأمور جدية على نحو ساذج مضحك عن عمد ويبدو دائما كأنه أرنب مذعور ولا يفصح عن رأى خاص بعيدا عن العموميات الشائعة . بينما هو حجة في العديد من الأمور بحكم دراسته العلمية المتخصصة وهواياته الغريبة التي تجمع بين اليوجا والموسيقى والفلسفة وقراءة الكف والطالع .

ربما هو الزميل الوحيد من مصر الذي يترجم من الفرنسية والانجليزية والعربية والعكس الى جانب الروسية التي يتقنها اتقاناً كاملاً بحكم دراسته الطويلة في الاتحاد السوفييتي .

قلت لنفسى دوما عنه : هذا رجل مظهره لا يكشف عن مخبره . لكننى اخذت تحذيراته لى حول وضع قاموس أو كتابة كتاب حول قضايا نزع السلاح مأخذ الجد .

توجهت الى ركن الأميرة جويدان حيث كانت لا تزال منهمكة فى الحديث الى الدكتور على سموحة وقد طالقت وقفتها . اقتربت منهما ، وقد اسعدنى انشغالها بالحديث . قلت لنفسى لقد خرجت من عزلتها وهى ليست محبطة بالقدر الذى كنت اظنه لكنها ساخطة على زوجها كرامة سرحان السقا وقد تردت العلاقات بينهما ووصلت الى الحضيض .

قلت لها :

- حديث شيق :

- اجابتنى ، قالت :

- الدكتور سموحة اعطانى فكرة واضحة عن الاسكندرية واحوالها  
وشجعنى على العودة والإقامة فيها .

قال الدكتور سموحة :

- الاميرة جويدان لها خبرة كبيرة باقتصاديات التصدير والاستيراد ..

قاطعته ، قلت :

- لكنها خسرت اموالا كثيرة .

قال :

- بسبب عدم معرفتها بالناس ، هؤلاء الذين تعاملت معهم لصوص  
ونصابون من عصر شاع فيه فساد عام .

قلت :

- فكرة ، ما رايك ياسمو الاميرة فى الإقامة فى الإسكندرية طوال شهور  
الخريف والشتاء ؟

ثم اكملت قائلة :

- اننى احلم بمدينة الإسكندرية .

نظرت الى فى تردد وكأنها لا تصدقنى وقد عاد الشك الى عينيها ،  
سألتنى ، قالت :

- صحيح ياسمو الاميرة ؟

قلت :

- نعم .

كان ذلك نزوة منى ، فقد اعربت عن رغبة حميمة تدفعنى الى العودة الى  
منصر بعد تقاعدى ، وقد عبرت عن رغبتى هذه فى لحظة ضعف وشوق وفى  
لحظة كنت فيها منهكة القوى من العمل ، لكن الاميرة جويدان ، أخذتنى  
من كلمتى ، وظلت تلح علىّ ويبدو انها قد بنت فى خيالها مشروعات كثيرة ،  
أو كأنها وجدت بغيتها فى الحياة أخيرا .



شدتني أوراق الدكتورة أوديت - رحمها الله - وجسدت لي أحداثا مضت ، بعضها نسيته وبعضها حملته داخل رأسي وبعضها طويت عليه غضاريف القلب وخبأته .

هذه ليست مذكرات كاملة أو حتى شبه مذكرات ولكنها مجموعة من الدراسات والوثائق حول وقائع واحداث بعينها رأيت فيها المرحومة رأيا مخالفا فسجلته للتاريخ .

عندما فاتحني أحمد السيد باشا بأمر هذه المذكرات لأول مرة بعد وفاة الرئيس جمال عبدالناصر تعجبت . فقد كان وقت الدكتورة أوديت مزدهما بالعمل الى درجة تمنعها من تناول الطعام الضروري فكيف لها بكتابة مذكرات أو يوميات ؟

طلبت منه ضرورة تحقيق هذه المذكرات ووضع هامش لها حتى تكمل القائدة منها .

اجابني ، قائلا :

- هذه مهمة زهية وابنها محمد نجيب . وسوف اشرف على عملهما بنفسى .

يبدو لي ان تحقيق هذه الأوراق قد استغرق منهما حوالي عشر سنوات أو أكثر قليلا هي جل حكم الرئيس السادات حتى اصبحت جاهزة للنشر .

وقد صدق الدكتور أحمد السيد باشا في قوله فقد جاءت الأوراق في صورة متكاملة وتجاوزت الهوامش صفحات المتن كما ان الرجل كان أمينا فأورد اقوال المعاصرين لها من أصحاب الآراء المعارضة للدكتورة أوديت

ولم يرد اسم من الأسماء فى الأوراق دون إتاحة الفرصة له لتوضيح وجهة نظره كاملة فيما جرى مهما كانت مخالفة لرأى صاحبة المذكرات .

هذه أمانة علمية تفتقدها الدراسات التاريخية فى الشرق ، والفضل فى ذلك للدكتور أحمد السيد باشا على الرغم من أن الدراسات التاريخية ليست مجال تخصصه كما أنه لم يكن ماركسيا أو حتى يساريا بالمعنى الواسع فى يوم من الأيام .

توقفت كثيرا عند تحليل الدكتوراة أوديت لأزمة مارس سنة ١٩٥٤ وقولها إن هذه الأزمة سوف تحكم مصر لعدة عقود قادمة وربما حتى نهاية القرن .

سجلت الدكتوراة دور الرفاق يوما بيوم وكذلك تلك التكاليفات التى قامت بها فى تشكيل جبهة عريضة معادية لحكم العسكر دفاعا عن الديمقراطية .

ومن جانب آخر سجلت انحيازها لجمال عبدالناصر وقالت أننا نخطئء بدفع الأحداث نحو الصدام وأدانت بشدة الضغوط التى مارسستها حدتو على يوسف صديق حتى دفعته الى الاستقالة من مجلس الثورة ووصفتها بالطفولة الثورية غير المسئولة .

يا لحزنى وشقائى .

قضت الدكتور أوديت باصاباتهما فى حادثة عربية مدبرة بسبب نشاطها السياسى فى تلك الأيام وكانت إصاباتهما من الخطورة الى درجة أنها كانت لا تفيق الا سويعات قلائل وجاءت السطور القليلة التى كتبتها بعد الحادثة متناثرة وغير مترابطة وكلمحات مضيئة أو اقوال مأثورة وخالية من التحليل واعمال الفكر .

هذه اسرار نفس ظاهرة وضمير حى وعقل راجح و ارادة حديدية وسوف يظل مصرع الدكتوراة أوديت سبة مثلها مثل شنق خميس والبقرى ومقتل عطية الشافعى فى المعتقل فى بداية الثورة .

ندمت لترددى امام الدكتور احمد السيد باشا فى مسألة نشر المذكرات

فقد تصرفت كفلاح يخاف من العالم الواسع ، ويحصر نفسه فى دائرة ضيقة من الناس .

لست مؤرخا ، والكتابة ليست مهنتى ، لكننى عشت الأحداث التى كتبت عنها المرحومة وشاركت فى بعضها ايضا ، والعالم قد تغير ، ومن يشغل نفسه حاليا ببدايات حركة الجيش أو ثورة ١٩٥٢ ؟

ما انتقدناه فى سنة ١٩٥٤ نتحسر عليه فى سنوات الثمانينيات وفى التسعينيات سوف نبكى عليه وفى بداية القرن القادم على الأجيال الجديدة ان تهب من جديد لرفع لواء الثورة والعدالة .

قلت للدكتور أحمد السيد باشا فى حزن :  
- الكتلة الشرقية بل والاتحاد السوفييتى فى الطريق الى التفكك .

نظر اللى فى دهشة ، قال :  
- انت . الذى تقول هذا القول .

قلت له أسفا :  
- نعم . الدودة نخرت الجذور وليس الجذوع أو الفروع أو الأوراق .  
وساعة السقوط قادمة لا محالة .

طلب منى ان احكى له ، قلت :  
- الحكومات أصبحت معزولة تماما عن الناس . السلطة فى جانب والناس فى جانب آخر ، وهذا الوضع لن يدوم طويلا .

سألنى ، قال :  
- يارفيق هل تعتقد ان طروحات تروتسكى وانتقاداته لستالين فى بداية الثورة ثبتت صحتها بعد اكثر من نصف قرن من الزمان .

الدكتور أحمد السيد باشا على الرغم من تقدمه فى العمر ذهنه صاف وعقله مشغول بالقضايا السياسية وقد وضع يده على الجرح الدامى فى تاريخ الحركة الشيوعية .

أجبت ، قلت :

- هذه قضايا نظرية يصعب على فلاح مثلى الخوض فيها وقد قضيت عمري في العمل السرى والمعتقات فى خضم حركة عارمة لم تتح لى فرصة للتفلسف .

سألنى ، قال :

- هل تعتقد يارفيق ان تشيكوسلوفاكيا فى طريقها الى الانقسام ؟

قلت على الفور :

- نعم .

قال :

- هذه نظرة متشائمة جدا يارفيق .

قلت حزينا :

- هذا يقينى .

اطرق الباشا الى الأرض ساهما وهو يحرك عصاه فى حركة دائرية صغيرة وبعدها قال لى :

- ما يقالنى فى آخر العمر هو مستقبل الدول النامية أو المتخلفة .

قلت :

- عقد الثمانينيات يصفه الرفاق المتخصصون فى براغ بانه العقد الضائع بالنسبة للدول النامية .

قال الباشا :

- هذا اعتقادى .

كنت أود أن اقول له ان القرن العشرين هو عقد الاشتراكية والعدالة الضائع ، لكننى احجمت ، وبلعت همومى ، بعد ان ذكرتنى اوراق الدكتوراة اوديت ، وحملتنى الى سنوات بعيدة مضت ، عندما احتدم الخلاف بين اسكرا من جانب وبين حدثو من جانب آخر .

قلت لنفسى ، ما لا يحسم كلية لا يدفن ، لأنه يعود ويطل برأسه بعد سنوات قصرت أم طالت .

لم تتعمق الدكتور أوديت الأزمة السياسية فى العشرينيات بين ستالين وتروتسكى ولكنها التفتت الى المقولات المضادة لحدثو فى الأربعينيات وبداية الخمسينيات وعلى الوجه الخصوص بعد قيام حركة الجيش وتولى العسكر السلطة .

جرت مياه كثيرة فى نهر الاشتراكية من الناحية النظرية اما من الناحية العملية فقد انفصلت الكوادر عن الناس واكتفت برفع الشعارات .

سألنى الدكتور أحمد السيد باشا عن رأى فى المذكرات ، قلت :  
- قطعة من تاريخ مصر .

ابتسم ، قال :

- ومسألة نشرها يارفيق .

قلت على الفور :

- فى العام المقبل .

أخذ يحرك عصاه فى دوائر صغيرة ، وكنا نتحلق حول سرير زهية هانم وعلى الرغم من التحسن الظاهر فى صحتها بعد الجراحة فان القلق كان يوحد بيننا .

اكملت ، قلت :

- بعد مصرع الرئيس السادات على هذا النحو ، وازدياد السخط الشعبى على كل المستويات ، الجماعات اليسارية المختلفة تعيد ترتيب صفوفها ، ونشر المذكرات فى الشهور القادمة سوف ينكأ جراحا قديمة ، خاصة ان المذكرات تشير الى اسماء بعينها لها دور وقد اثبتت الأيام خطأ توقعاتها .

نظر الى نظرة عميقة ، قال :

- تحدثنى يارفيق مثل كوادر الأحزاب الشيوعية بينما الحقيقة فى نظرى لها الأولوية وخلاف الرأى فى المسائل السياسية لا يفسد للود قضية .

قلت له موضحا :

- أنا لم أكن فى يوم ما منظرا أو مفكرا ولكننى امضيت عمرى فى العمل ، والحفاظ على الوحدة ديدنى واسقاط الخلافات الهامشية مهمتى .

استندت زهية هانم بمرفقها ، وجلست ، قالت :

- ياخال عباس العمر لم يعد يحتمل التأجيل . وهذه وصية الدكتورة قبل وفاتها .

قلت :

- يا زهية هانم نعد المذكرات للنشر هذا العام ويتم توزيعها فى بداية العام القادم .

قال الباشا متفهما موقفى :

- اعتقد انه من المناسب نشر المذكرات فى العام القادم ، فقد افرج الرئيس حسنى مبارك عنى فور توليه السلطة ، فى حين الرئيس السادات كانت نيته مبيتة لتوجيه اتهامات تتعلق بقلب نظام الحكم بالقوة العسكرية لفؤاد باشا سراج الدين والأستاذ محمد حسنين هيكل ولى .

استراح قلبى :

- كنت اتخرج منذ قدومى الى جنيف ومقابلة الباشا من سؤاله عن فترة اعتقاله فى سبتمبر الماضى فى أكبر حملة اعتقالات سياسية شهدها عصر السادات وعجلت بالقضاء عليه .

وددت ان يروى لنا شيئا عنها لكننى لم اسأله شيئا ، خوفا من تعكير صفو زهية هانم والتي كانت تتابع حديثنا باهتمام .

سألت زهية هانم فجأة عن محمد نجيب واشارت من طرف خفى لأنشغالها عليه ، وأجاب الدكتور أحمد السيد باشا قائلا :

- انهمك فى متابعة أنشطة الأمم المتحدة ، وقد عرفه سعادة المستشار كرامة طريق اللجان كما أن ابنته ابسنت تراعاها بعد الظهر وشغلته عنا .

صممت زهية هانم ورأيت كدرا على وجهها وفى عينيها وقد اقلقنى غياب تلك البسمة وظهور تقطبية حادة على وجهها ذكرتنى بأيام زمان عندما كنت

أراها خارجة من الغيطان أو نازلة الرياح؛ تغسل "المواعين" وتقول لى فى  
تعاسة :

- قلوب الناس لم تعد بها رحمة ياخال عباس .

اطيب من خاطرها ، فينطلق صوتها الرنان بالموال ، فتهز الحقول  
وأتركها وقد اشجنتى وحركت مواجع قلبى .

تمنيت ان تتخلى زهية هانم عن تقطيعتها وتنطلق بالغناء الشجى فتخفف  
ثقل الغربة وآلام الجراحة ، ولكن اين نحن من غيطان عزبة عويس  
الواسعة ؟

كانت آخر كلمات الدكتورة أوديت التى خطتها أو املتها قبل رحيلها عن  
الدنيا كلمة اهداء الى محمد نجيب قالت فيها الى الجيل الجديد ممثلا فى  
الصغير محمد نجيب ويكفيه انه يحمل اسم رمز الثورة . ثم عدة جمل  
غامضة حول جدلية الحياة والصراع بين جمال عبد الناصر ومحمد نجيب  
قائد حركة الجيش ورمزها الشعبى .

وبعدها مباشرة كلمات اشد غموضا حول القدر وغنى الحياة وتطورها  
الخالق تمننت فيها عودة محمد نجيب الى احضان والديه وقد فهمت فى  
البداية انها تتحدث فى هذا السياق عن اللواء محمد نجيب وتشير من طرف  
خفى الى زعماء مصر الراحلين خاصة سعد زغلول باشا والديموقراطية  
المفتقدة لكننى تبينت انها تهدى الكتاب الى محمد نجيب ابن زهية وادركت  
انها كانت تعرف والده ايضا .

من عظمة الإسلام انه حلل الزواج والطلاق ونظم العلاقات الأسرية  
تنظيما دقيقا يحفظ للأرحام حرمتها وللانساب صلاتها . ومحمد نجيب ابن  
زهية من رجل آخر .

قدمت ممرضة رشيقة جميلة وتقدمت من زهية تسألها عن مطلبها ،  
فقالت :

- قهوة وعصير ليمون للضيوف .

تبينت ان زهية قد دقت جرسا فأنت الممرضة أو الشغالة .

جلست زهية هانم فوق سريرها ، تمنيت ألا تتجه بنظرها الى المرأة ،  
فقد كان وجهها حزينا ومكدودا ، ربما من الجراحة ، وربما ايضا بسبب  
مخاوفها على زوجها وابنها .

كنت اجلس فى ركن والى جوارى الدكتور احمد السيد باشا وفى  
مواجهتنا زهية هانم وكانت مناقشاتنا السياسية قد طالت ، فقلت موجهة  
حديثى الى زهية هانم :  
- والله وحشنى غناؤك يازهية هانم .

ضحكت من قلبها ورفعت رأسها واخذت نفسا عميقا وانطلقت بالغناء  
تصدح بلحن شجى وفى كلمات اجنبية وتبينت لحننا اعرفه جيدا لا يغيب عن  
اذنى طوال اقامتى فى براغ لكننى لا اعرفه وتركت نفسى لهذا الشدو  
الشجى وعيناي على قسماات وجهها وقد عادت اليه الفرحة .

اقبل طبيب فزعا ووقف الى جوار الباب مستمعا وقد أحسست بالحرج  
فالمستشفيات ليست محلا للغناء مهما كان شجيا وعندما علا صوتها تكاثرت  
الأطباء ونددن بعضهم ايضا بصوت خفيض ثم انطلق صوت يصاحبها فى  
الغناء منهيها الوصلة بإشارة من يده كقائد مدرب .

تقدم منها كبير الأطباء ، قال :  
- يسعدنى سماع نشيد الفرحة من مريضة اجريت لها جراحة منذ اربعة  
ايام .

ودس السماعه فى صدرها ورفع يدها يقيس لها النبض وربما ليمنعها  
من الغناء بطريقة لبقه ، قال :  
- صوتك ايتها السيدة احلى من مغنية الأوبرا الشهيرة ماريا كلاس .

بعدها ضحك ، قال :  
- مهنتك فى الدوسيه "ست بيت" فما هى الحكاية ؟ مغنية اوبرا  
متخفية . تناول ميزان حرارة ووضعه فى فمها .

منعها الرجل من الحديث وليس من الغناء فقط ، وقد ابتسم الياشا لما  
وضع الطبيب ميزان الحرارة فى فمها وغمزلى بعينييه وكأنه يسألنى ، هل



فهمت ؟ فأومأت له برأسى قائلا : نعم .

كان الباشا يحس بالخجل مما سببته زوجته من فوضى فى المستشفى ،  
مال على ، وهمس فى اذنى ، قال :  
- نحمد الله لعدم استدعاء البوليس .

ضحكت ، واكمل قائلا :

- هذه فضيحة ربما لم تعرفها هذه المستشفى منذ انشائها . اسألنى أنا  
عن السويسريين وتمسكهم بالنظام الى درجة الجنون .

قلت :

- زهية هانم مغنية اوبرا . هذا هو الحل .

قال الباشا :

- هذا صحيح ، وقد غنت فى الأوبرا ، لما قدمت السيمفونية التاسعة  
لبيتهوفن امام الرئيس جمال عبدالناصر ، عندما كان الدكتور ثروت عكاشة  
وزيرا للثقافة .

تذكرت على الفور اللحن الذى غنته وهو من الحركة الرابعة وقد اتخذته  
اوربا نشيدا لها ، قلت :  
- هذا شعر شيللر ياباشا .

اجابنى ، قال :

- زهية هانم تحفظه عن ظهر قلب بالألمانية .

تبارك الخالق ، زهية هانم ابنة عزية عويس تغنى بالألمانية فى جنيف  
وتقف لها المستشفى على "رجل" ، وابنتى خبيها الله تقول لى : صوت  
المرأة عورة .

وصل كبير الجراحين ودارت مناقشة بينهم هامسة تنم عن اهتمام بالغ ،  
على اثرها ، قال طبيب :

- سوف تنقل السيدة الى غرفة الجراحة لإجراء كشف على العملية .

اضطرب الباشا ، سأل :

- هل هناك مخاوف من عدم التئام الجروح بسبب الغناء ؟

قال طبيب في حسم :

- للاطمئنان .

قادتنا ممرضة الى صالون ملحق بالغرفة ، واغلق الباب علينا ، وفي لحظات ، سمعنا حركة فى الغرفة ، تنم عن نقل المريضة .

كنت احس بالخوف والخجل ، وقال الباشا :

- هذه مخاوف لا محل لها . فقد تعلمت زهية هانم الغناء على يد مدرسة شهيرة ، هى مدام رطل ، فى دار الأوبرا قبل حريقها ، وأول شروط الغناء الأوبرالى ، دراسة التنفس بطريقة صحيحة ، وإخراج الهواء من الرئتين وليس من البطن .

ومال الباشا بجسده كله وكأنه يريح عظامه البارزة ، وطلب منى الجلوس فى الناحية الأخرى ، واعتذر قائلا :

- البروستاتا تؤلمنى ، وهذا الوضع يريحنى ، اغفر لى يابنى .

قلت :

- العفو يا باشا . العفو .

الرجل يكابد متاعبه الجسمانية فى صبر وتؤده وهو الذى فى حاجة الى عناية طبية تتناسب مع تأخره فى العمر وقد اقترب من التسعين أو الخامسة والثمانين على الأقل .

إذا كان قد قدر لابنته الدكتورة أوديت الحياة لكانت فى عمر زهية حالياً أو اكبر منها بسنوات قليلة لكن الموت اختطفها وهى فى قمة نشاطها .

استراح الباشا فى جلسته ، فقال :

- كان محمد يدرس البيانو فى صغره على يد مدرس موسيقى وقد تابعت معه زهية هانم دروسه لكنها لم تتقدم مثله فى العزف وهذا طبيعى حيث ان الأطفال لهم القدرة على تعلم العزف والتفوق على الكبار كما ان أصابع زهية كانت لا تسعفها فى العزف وليست لينة بالقدر الكافى بسبب عملها فى

الحقول فى صباها . وبعد عدة سنوات زهد محمد نجيب فى الموسيقى فهجرتها وتركته على هواه حتى التحق بالجامعة هو وامه فتعرف على فتاة يونانية سحرتة واعادته الى عالم الموسيقى مرة ثانية وعزم على الالتحاق بالابويرا فخافت عليه زهية هانم من البنت وقالت له رجلى على رجلك والتحققت بفصول الغناء بينما تابع محمد نجيب العزف على يد استاذ ايطالى شهير . لم تتركه للفتاة وشجعته على معرفة غيرها واصطفت له مجموعة من البنات ، هذه طبعا من مكائد النساء .

قلت :

- ياباشا هذه نعمة لقد وقعت ابنتى فى علاقة مع واحد من الاصوليين غسل مخها وعاد بها الى حياة القرن الاول الهجرى .

بانث الدهشة على وجه الباشا ، قال :

- ماذا تقول يارفيق ؟

قلت فى حسرة :

- ربيت عشرات الكوادر بل مئات من قادة المناضلين وفشلت فى تربية ابنتى .

سألنى الباشا ، قال :

- الناس لا تتغير بطريقة فجائية ، فكيف وقع لها ذلك ؟

قلت حزينا :

- عانت ابنتى من الوحدة والضياع بسبب كثرة سنوات اعتقالى وهروبى التى زادت على عشرين عاما فى كافة العهود ياباشا .

اراح الباشا عظامه بتحريك يديه وساقيه ، وصمت برهة ثم قال :  
- الابناء عادة يتخذون لهم مسارات مخالفة لآبائهم .

قلت :

- اننى اتفهم دوافعها لكنها سارت بعيدا جدا .

عمنا الصمت وهدوء المستشفى يحمل فى طياته ضجة مكتومة بالانين

ولم يكن المقام يسمح لى بمزيد من الثرثرة حول همى الكبير فطوحت رأسى على كتفى حتى اريحه وبلعت كلامى متأهبا لحضور زهية من غرفة الجراحة سليمة .

سمعت حركة وصوت أقدام عديدة ، اشار الباشا برأسه ، قال :  
- زهية وصلت .

انتظرنا فى غرفة الصالون ، وكنت اود الخروج للاطمئنان ، لكننى رأيت الباشا جالسا فى هدوء ، فقاومت رغبتى . قال الباشا :  
- سوف يدعوننا ويأخذون علينا اقرارات بعدم غنائها مرة ثانية . وربما يهدوننا بالبوليس . اننى اعرفهم يارفيق .

قمت ، استعد لفتح الباب والتوجه الى زهية ، وفجأة انطلقت زهية بالغناء مرة أخرى ، فترك الباشا عصاه ، وضرب كفا بكف ، قال :  
- زهية جنت .

تناول عصاه ووقف غاضبا ، قال :

- ليس الى هذا الحد .

قلنت :

- الأطباء حولها .

فتحت الباب وتسلمت خارجا ، رأيت زهية جالسة على كرسى ، تغنى وحولها الأطباء والممرضات يستمعون ، ومن حين الى آخر يصاحبها واحد من الأطباء .

همس الباشا فى اذنى ، قال :

- باريتون جميل .

هزرت رأسى موافقا ، وقد فانتى مقصده ، فأنا ليست لى معرفة بالغناء أو الموسيقى ، واستغرقت فى الاستماع مع المستمعين ، وقد ملأنى الفخر والعزة ، زهية هانم ليست من عزبة عويس فقط ولكنها بمثابة ابنتى . انتهت الوصلة أو اللحن - بلغة الموسيقى - بإشارة من الطبيب الشاب

الذى يربى ذقنه .

صفقنا .

تحدث اكبر الأطباء سنا ، قال :

- من واجبي كجراح ألا أكشف مطلقا عما تتفوه به المريضة أو المريض وهو تحت تأثير المخدر ، لكننى هنا ، اكشف سرا ، واقول ان السيدة زهية هانم قد اشجبتنا فى غرفة العمليات بهذا اللحن ، حتى اننى خشيت أن يهمل طبيب التخدير واجبه بسبب حلاوة الصوت .

ضحكنا جميعا .

اكمل الجراح ، قائلا :

- الى جانب نشيد الفرخ لشيبلر ، غنت لنا زهية هانم لحنا آخر من اوبرا ترافيتا وهولحن حزين جدا ، وكانت المفارقة انها انتقلت من اللحن الفرخ الى اللحن الحزين فى يسر مع اختلاف طبقة الصوت فى اللحنين ، وبعدها غنت لحنا بالتركية واخذت تكرره ، وكنت ارى الحزن على وجهها ، وقد شغلنى ذلك كثيرا ، أسف اذا كنت قد انتهكت قوانين المهنة ، لكن النبض وضربات القلب كانا يضطربان ويحدث ضيق فى التنفس كلما نطقت بهذه الاغنية .

احست زهية بالخجل ، قالت :

- لا أذكر . لا أذكر .

قال الطبيب ضاحكا :

- التقطت كلمتين فقط ، "قتل ياسين" ، وعندما كنت اوجه سؤالا لأشغلها عن الغناء ، كانت تجيبنى بالتركية وتعاود الغناء .

ضحكنا جميعا . وضحكت زهية هانم ايضا ، ووضعت يدها على بطنها ،

وصاح الطبيب قائلا :

- الضحك الشديد اشد خطورة على الجروح الداخلية من الغناء .

قاومت زهية الضحك بصعوبة ، ولما سكنت ، انطلقت بالغناء .

يابهية خبريني .. على قتل ياسين

صاح الجميع ، نعم . هذا هو اللحن . ماهى الحكاية ؟

تطوعت بالإجابة ، قلت شيئا فى لغتى الانجليزية الضعيفة ، حول التراث الشعبى ، ومقاومة الانجليز ، وموت ياسين .

واخذ منى الدكتور أحمد السيد باشا الخيط ، فأكمل فى فرنسية طلاقة وأوجز ما سعيت لقوله فى كلمات محدودة سهلة .

قال الطبيب :

- هذه القصة تشبه قصة وليام تل فى سويسرا .

اجاب الدكتور احمد السيد باشا قائلا :

- نعم . لكن مع اختلاف الظروف والملابسات .

تساءل الجراح قائلا :

- طوال سنوات عملى لم اسمع مريضا أو مريضة يغنى لوليام تل تحت

تأثير المخدر وان كنت استمعت لمئات من القصص الطريفة .

قال الدكتور أحمد السيد باشا موضحا ، وقد اسعفتنى زهية هانم

بالترجمة عندما تبينت غياب كثير من المعانى عنى ، ان الفرق بين وليام تل

وبين ياسين ان الاول خرج منتصرا والثانى خرج مهزوما وقتل . ويبدو ان

العقل الجمعى يغنى للمهزومين - خاصة تحت المخدر .

ضحكنا .

قال الجراح :

- الحزن الجمعى يغيب ويظهر فى اللاوعى وهذا يفسر سبب اضطراب

قلب زهية هانم اثناء الشدو بهذه الاغنية .

اكمل الدكتور أحمد السيد باشا قائلا :

- هذا حزن تتوارثه الأجيال منذ موقعة دنشواى واعدام الفلاحين على

مشانق امام عتبات بيوتهم .

قال الجراح :

- هذه صورة فظيعة .

تدخلت زهية هانم ، قالت :

- هذا هو الاستعمار .

مد الجراح فورا يده الى زهية ، قال :

- عموما الغناء غير مسموح به هنا . هذه اوامر ، لكن اذا كانت المريضة

مغنية اوبرا فنحن نتساهل ، المهم ان تصدح دوما بنشيد الفرح ، وليس

ببياسين ، هذه تعليماتى كجراح .

قالت زهية هانم :

- حاضر .

وكتب الطبيب شيئا ، قال :

- نصف حبة فى اليوم .

واضاف قائلا :

- سمحت بالزيارة طول اليوم وحتى الساعة العاشرة ليلا . مغنية الأوبرا

لها معجبون ، وعلى كل هذا الجناح درجة أولى ممتازة ، ونخصصه

للاسترخاء ولن يضايق احدا وجود زوار .

كان الدكتور احمد السيد باشا يتابع تعليمات الطبيب فى اهتمام بالغ

وتبينت على وجهه علامات عدم الارتياح من حديث الطبيب وفاتنى ما يقلقه

فقد كان حديث الطبيب وديا للغاية معنا .

بعدها صارحنى الدكتور احمد السيد باشا قائلا لى على انفراد :

- حديث كبير الجراحين اثار مخاوفى .

سألته فى دهشة :

- لماذا يا باشا ؟

صمت فترة من الوقت ، وبعدها قال :

- عامل كبير الجراحين المريضة وكأنها طفلة كبيرة ونغدا يحولها الى

طبيب نفسى .

قلت مخففا عنه :

- كل مريض بعد الجراحة فى حاجة الى كلمة طوية .

قال أسفا :

- هذه ليست جراحة عادية والنساء يصبنن باكتئاب شديد بعد ازالة الرحم او جزء منه ، هذه طبيعتهن .

همس فى اذنى قائلا :

- المدام سوف تنام على الأقل اربع ساعات الآن ، فقد أعطيت حقنة منومة فى غرفة الجراحة ، وقد اخبرتنى الممرضة بذلك . ووجودنا لا فائدة منه .

كنا نجلس فى الصالون وحدنا بعد ان تمددت زهية على سريرها وغفت ونحن حولها نداعبها فاشارت لنا الممرضة بالخروج ، فخرجنا . وبقت هى الى جوارها .

قلت لنفسى : هذه الجراحة يابنتى قد جاءت مبكرة عن موعدها كثيرا ، ابناء الفقراء يقضون فى قمة لحظات العطاء ، ولما تزهره الدنيا لهم وتأخذهم بالحضن ...

لا يساورنى شك فى ان سنوات الحرمان والبهارسيا وقلة التغذية تؤثر على بنية الجسد العامة مهما تغيرت الظروف واحلوت الدنيا فيما بعد فجسد الإنسان قدره الذى يحمله .

هاهو الباشا فى العقد التاسع من عمره فى صحة جيدة أما زوجته ولم تتعدَّ العقد الخامس فقد بدأ جسدها فى التساقط ومهما ارتكبت البيروقراطية من جرائم وافطالت حلم الاشتراكية فسوف يظل لها فضل العناية بالأطفال والصغار .

سألنى الباشا ، قال :

- ماهى وجهتك ؟



قلت :

- اليوم صباحا لا توجد اجتماعات غير ان جلسة ساخنة فى انتظارى بعد الظهر وربما تستمر لوقت متأخر من الليل .

سألنى الباشا ، قال :

- منظمة العمل الدولية ، هل لا تزال معادية للدول الاشتراكية ؟

ابتسمت ، قلت :

- منظمة العمل الدولية هى رأس الحربة فى الحرب الباردة والصراعات فى اروققتها لا نهاية لها .

قال الباشا :

- تعال معى اذن لجولة فى المدينة ، بى رغبة لزيارة اماكن كنت اتردد عليها فى شبابى ، فى البداية نزور المقهى الذى كان لينين يجلس عليه اثناء اقامته فى جنيف قبل الثورة ، وبعدها نتوجه الى المدينة القديمة ، للفرجة على اللوحات العالمية لكبار الفنانين ، فهذه هواية قديمة لى

وافقت على الفور ، وانطلقنا .

كان السفير عبدالرؤف الريدى قد وضع سيارة بسائقها تحت امره الدكتور احمد السيد باشا ، وقد اعتبرت ذلك مجاملة طيبة من جانب السفير لواحد من كبار القانونيين فى مصر .

وكنت أحس بالحرج من وجودى الى جانب الدكتور السيد باشا فاشعت بين رفاقى وقلت للسائق ، اننى قريب لزوجته زهية هانم من بعيد . وقررت البقاء فى جنيف يومين أو ثلاثة بعد انتهاء مهمتى الى حين أن تتحسن صحة زهية هانم .

سألنى الدكتور احمد السيد باشا ، قال :

- من أين نبدا ؟

قلت :

- المدينة القديمة .

نظر الى مبتسما ، فقد تحاشيت ذكر المقهى أو الإشارة الى اسم لينين  
امام السائق النوبى ، ولم تكن بى رغبة حقيقية فى زيارة هذا المقهى الذى  
كان يجلس فيه لينين فى اثناء اقامته فى جنيف وان كانت السلطات  
السياحية فى جنيف قد احاطته بدعاية بينما الحكومة قد رفضت اقامة  
متحف للينين يضم أوراقه . ومن اجمل التعليقات التى قرأتها تعليق يقول :  
جنيف ترحب بلينين حيا وترفضه ميتا .

قادنا الدكتور فى عدة طرقات ضيقة وقد تأكدت ان السائق لا يعرفها  
حتى وصلنا الى هضبة عالية ، وطلب من السائق ان يركن العربة ، وسار  
بنا فى بطء عبر ميدان صغير ، وتوجه الى قاعة عرض . كانت لوحات معلقة  
واخرى مركونة الى جوار الحوائط ، ورجل عجوز بالقاعة ، نظر لنا مليا ثم  
رجب بنا .

كنت اسير خلف الباشا صامتا ، احرك عيني واثبتها حيث يتوقف الباشا  
وانا رجل بسيط ثقافتى محدودة ، لكننى كنت استمتع بالتشكيلات والالوان  
قائلا لنفسى : هذه امور فهمها عسير على فلاح مثلى .

انشغل الباشا مع الرجل العجوز صاحب القاعة فى حديث طويل حول  
بعض الامور الفنية والأسعار ، دعانا بعده الرجل الى غرفة استقبال ، وقدم  
لنا مجموعة من اللوحات .

جلس الباشا وكأنه قد وجد بغيته ، همس فى اذنى ، قال :  
- هذه لوحات اصلية وهذه القاعة لها سمعة طيبة فى عالم الفن .

كانت القاعة بسيطة جدا ولا توحى بالثراء ، والرجل العجوز ملابسه  
تشبه ملابسى : ملابس واسعة وقديمة . وبدأت التفت الى الأسعار ،  
فدارت رأسى .

اخذت اتابع الرجل العجوز بعينى وقد انشغلت به بدلا من اللوحات ،  
كان جسده نحىلا جدا ، على الرغم من اكتافه العريضة ، وله رأس ضخم  
وعينان واسعتان وقم صغير جدا . وبدأ لى كشخص مشوه من تلك  
الشخوص التى تمتلئ بها اللوحات ، وبسبب صغر فمه كان يستمع لنا -

بالأصح - كان يستمع للباشا حده ، ويتحرك ولا يتكلم الا فى القليل النادر .

اشبع الباشا ناظريه من اللوحات ، ودار الحديث حول لوحة صغيرة بالقلم الرصاص لفلاحة تستعد لحمل بسنطة مياه ، ومرسومة على ورقة كراس ، اما الثانية فكانت بالألوان وعبارة عن بهو وامرأة واقفة عارية فى البهو ووجهها مألوف لدى بسبب روعته التى لا تنساها العين .

سألنى الباشا ، قال :

- اعجبتك اللوحة ؟

قلت دون روية :

- نعم .

هز رأسه راضيا وكأنه قد أحسن الاختيار ، قلت لنفسى ، ومن أنا حتى يستأنس الباشا برأى فى شأن يخص الفن ، لكنها الغربية ومرضى زوجته وانشغال ابنه عنه والشيوخوة اللعينة التى جعلته يأنس لصحبتى بالإضافة الى ود قديم وعشرة طويلة جمعت بين ابنته المرحومة اوديت وبينى .

كلما ابتعدت عن تلك اللوحة عادت عيناى لتحقق فيها فى نهم - كان الجسد العارى لا يشدنى قدر ذلك الوجه . قال الباشا لى همسا :  
- هذه اللوحة للفنان ديلفو البلجيكى ، وربما رأيت له شيئا من قبل .

كنت أود ان اقول اننى لا اعرف الفنان ولم اسمع باسمه من قبل ولكننى اعرف السيدة التى صورها الفنان ، هى ستهم ابنة عمى وزوجة الجلف حمادة ابوجيل عمدة عزبة عويس لسنوات طوال .

سألنى الباشا ، قال :

- زهية هاتم تحب اعمال هذا الفنان ايضا ، ماهى الحكاية ؟

قلت لنفسى ، زهية هاتم فضحتك واذاعت السر من قبلك ، تشاغلنت عن الباشا ، لأدور فى فمى ردا مناسب ، لكن الباشا عجل بسؤالى ، قال :  
- ماهى الحكاية يارفيق ، ابناء عزبة عويس يعجبهم ديلفو ؟

قلت معترفا :

- هذه حكاية طويلة وعريضة ياباشا .  
قال ضاحكا :  
- لنؤجلها لحين جلوسنا على المقهى .  
وافقته .

ادركت انه قد سعى لشراء هذه اللوحة من أجل خاطر زوجته زهية هانم  
لحبها لهذا الفنان ، وقلت لنفسى ، ترى "ستهم" مصورة امامها لتخفف  
عنها الإحساس بالغربة .

يخلق من الشبه اربعين ، حكمة قديمة ، وانشغل الباشا عنى بكتابة  
الشيكات ومراجعة البيانات وبدأ العمال فى تغليف اللوحتين .

كنت أحس بقلق شديد منذ صباح اليوم بسبب توتر المباحثات فى اروقة  
المنظمة وظهور نية مبيطة لطرده بولندا من منظمة العمل الدولية بسبب تدخل  
الجيش فى الحكم لمواجهة التمرد العمالى الذى يقوده ليش فاليتسا .  
ورأيت من الحكمة العودة الى الفندق لإجراء بعض الاتصالات مع الرفاق .  
قلت لنفسى ، حالة زهية هانم اصبحت طيبة ، وربما الباشا فى حاجة  
الى راحة ايضا ، وعقدت عزمى على العودة الى فندقى .

قال الباشا :  
- هيا بنا يارفيق لتناول القهوة .

ترددت قليلا ، قلت :  
- ما رأى الباشا فى العودة الى الفندق للراحة ؟

ابتسم الباشا ، قال :  
- هذا وقت قهوتى يارفيق ، الساعة الحادية عشرة .

قلت مؤيدا :  
- معك حق ياباشا .

طلب من السائق العودة بنا الى المدينة ، قال :

- هناك على البحيرة مقهى ايطالى صغير لا يقبل عليه الا قلة من الناس فى هذا الوقت والسياح لا يعرفون طريقه وهذا المقهى يقدم اطيب انواع القهوة .

قلت :

- والله نفسى فى فنجان قهوة مضبوط .

قال :

- قهوة تركى لها "وش" من الكنتكة .

ذهبتنا .

مقهى صغير يطل على البحيرة ، والاضاءة فيه مريحة ، وليس معتما مثل البارات ، وبه عدة موائد تطل على البحيرة مباشرة ، وكان الجو غائما واطواء فضية ناعمة تفرق طريق البحيرة بينما رياح شديدة تهب من ناحيتها .

كنت متدثرا ببالطو ثقيل ، فخلعته فور دخولى المقهى ، ووضعتة الى جوارى على الكرسي ، اما الياشا فقد سلم معطفه الى الجرسون ليعلقه .

كان السائق قد اصر على البقاء فى السيارة خوفا على اللوحتين ، قال :  
- جنيف لم تعد آمنة .

انا لا اترك معطفى بعيدا عنى ، هذه عادة متأصلة فى نفسى ، وكثيرا ما تسبب لى حرجا شديدا فى براغ حيث يصر الجرسونات على تعليق المعاطف على الشماعات فى "الجارداروبه" وعدم وضعها على الكراسى . هذا خوف داخلى لا مبرر له ويرجع الى سنوات ملاحقتى الطويلة ، كما اننى عادة ما ادس اوراقا فى جيوب البالطو وانساها وأخشى ان تقع فى ايد غريبة .

ابتسم الياشا ، قال :

- أنا عادة لا اضع شيئا فى جيوب البالطو .

ثم اكمل قائلا :

- الشعور الجمعى لدى الأوربيين بسبب شدة البرد يدفعهم لعدم سرقة البلاطى أو العبت بها فهذا عرف اجتماعى كما ان الشعور الجمعى لدى الفلاحين فى مصر يدفعهم لعدم سرقة الحمير ، هل رأيت فلاحا يربط حماره فى سلسلة حديد مثل "العجلة" ؟ والسرقات فى هذه الحالات جرائم طارئة .

تأملت كلمات الباشا وجدتها حكيمة ، هناك أشياء لا تسرق ، فأس الفلاح ، قرية السقا ، مركوب المصلى ، حمار السيخ ، الثمار فى الحقول ، عمه الفقيه ، بندقية الغفير ، صفارة الشاويش ، زير السبيل وغطاه والكوز القريب منه ، هذه أشياء مثل أعمدة وفوانيس النور واسلاك التليفونات ومواسير المياه فى المدن ، لا تسرق ، بل سرقتها عيب .

واضفت لنفسى قائلا :

- هذا فى عزبة عويس على الأقل .

فجأة صارحنى الباشا بما يقلقه ، قال :

- محمد نجيب فى حالة حيرة يا عباس . يسعى للتعرف على ابيه ولا يجد من يمد له يدا . هذه دنيا ظالمة يارفيق ، وأنا أوشكت على الرحيل وقد تجاوز عمري الثمانين عاما أو على وجه الدقة اقتربت من الثمانين وليس من التسعين عاما كما يظن البعض .

اضاف الباشا ضاحكا :

- أنا عمري من عمر الفنان محمد عبدالوهاب .

قال الباشا :

- أنا من مواليد هذا القرن وليس القرن الماضى كما هو مثبت فى اوراقى ولذلك قصة احجم دائما عن الإشارة إليها .

قال الباشا :

- تعلقنى احوال محمد نجيب وتقليباته . يود السفر الى لندن لإنهاء بعض الاعمال المتعلقة بالمكتب ليسافر بعدها الى السويد مع فتاته الشقراء .

كنت مستمعا ، واضاف الباشا ، قال :

- هذا الشاب لا يقف على أرض صلبة ، رفض نصيحتى بدراسة القانون ، والتحق بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، فاجبر والدته على دراسة العلوم السياسية بدلا من القانون ، لكنهما بعد دخولهما الجامعة تركت لهما مهمة الإشراف على مكتبى ، وقضايا القانون الدولى قليلة لكنها فى حاجة الى دراسات واتصالات كما اننى اقدم استشارات قانونية فى قضايا معقدة تتعلق بالنفط لدول خليجية وقد اتقن محمد نجيب الإجراءات ، وتنظيم العمل ، لكنه لا يعمل بالقانون ، فالقانون مثل الطب فى حاجة الى دراسة اكااديمية متخصصة ، ويقع على دائما العبء الاكبر فى العمل وكذلك على مجموعة من القانونيين الأجانب نتعاون معهم .

اضاف الباشا قائلا ، وكأنه يحدث نفسه ، قال :

- محمد نجيب يقول لى ياباشا أنا لست قانونيا لكننى اعمل "بيزنس" ادير واحدا من أشهر المكاتب العالمية ، وهذه فكرة لا استريح اليها يارفيق فأنا رجل قانون من اخصص قدمى الى قمة رأسى ، عرضت عليه السفر الى باريس والتخصص فى القانون أو العمل فى الخارجية لكنه لا يبيدى حماسا ، وهذا من اسباب قلق زهية هانم عليه .

قلت له ضاحكا :

- محمد نجيب شاب وقد فهم سياسة العصر ، انفتاح ، و"بيزنس" .

قال الباشا :

- لا أود لمحمد نجيب ان يكون تحت رحمة الآخرين ، يشتري خبرتهم ، وأنا فى كثير من الأحيان اراجع بنفسى أوراقا كثيرة مما لا قبل له بها . كما اننى لا أود له ان يشارك احدا بعد مماتى .

وبعدها اضاف قائلا فى حزن :

- هذا قدرى يارفيق ، ابنتى الوحيدة كانت أيضا طيبة واذا كان قد قدر لها العيش من بعدى لكانت صفت مكتبى وتفرغت لعيادتها . مكتبى لا مستقبل له .

قلت مطيبا خاطره :

- دمت له ياباشا .

استدار فى جلسته ليريح جسده ، فصمت حتى يطيب له الجلوس ، ثم قلت :

- هذه دائما مشاكل الآباء .

قال :

- محمد نجيب اكثر من ابن لى ، ليس من صلبى ، لكننى رببته منذ طفولته كابن لزوجتى من رجل آخر كما تعرف .

قلت :

- باراك الله فىك ياباشا .

اجابنى أسفا :

- يبدو ان والده الحقيقى لم تتحرك فى داخله مشاعر الأبوة بعد .

تسربت بالصمت ، لم اعلق ولم اسأل ، فهذه أمور يأخذها كبراء القوم مأخذاً آخر ، بينما العلاقات فى عزبة عويس اقل تعقيدا ، فهذا ابن فلانة من زوجها الأول وهذا ابنها من زوجها الثانى ، وربما يسهل العلاقات بين الفقراء قلة الميراث او انعدامه ، اما اولئك الذين يمتلكون الأموال والعقارات والحسب والنسب فلهم حساباتهم الأخرى .

قلت :

- الحياة الهادئة ياباشا لها حساباتها .

قال :

- صدقت يارفيق .

طلب الباشا فنجانا آخر من القهوة ، قال :

- عشرة فناجين قهوة فى الخارج لا تعوضنى عن فنجان قهوة تعده لى زهية هانم بيدها .

قلت :

- شفاها الله .

قال :



- حالتها النفسية ليست على مايرام .

رأيت ان اغبر وجهة الحديث ، وكنت قد سمعت اخبارا قادمة من القاهرة عرفتھا من الرفاق فى منظمة العمل الدولية ، قلت :

- سمعت ياباشا ان مباحثات الرئيس مبارك مع شيمون بيريز فى الإسكندرية متعثرة مما يهدد اتفاق السلام .

استمع لى فى اهتمام ، قال :

- حول اى شىء يارفيق .

قلت :

- حول الانسحاب من سيناء .

هز رأسه مفكرا ، وبعدها سألنى ، قال :

- ماذا سمعت ؟

قلت :

- رفاق من بزاع يقولون ان إسرائيل ترفض الانسحاب من طابا وهناك خلاف شديد بين مصر وإسرائيل حول طريقة التحكيم او التوفيق .

ضحك الباشا ، قال :

- أنت تعرف كل شىء يارفيق . زدنى علما .

قلت :

- الدوائر الصهيونية تشن حملة على وزير الخارجية الدكتور عصمت عبدالمجيد وتتهمه بالجمود وتخريب عملية السلام .

قال الباشا :

- الدكتور عصمت عبدالمجيد رجل قانون وعدل قبل ان يكون رجل سياسة .

ساورنى إحساس غامض بان الدكتور أحمد السيد باشا لا يود الحديث فى هذا الأمر وانه يعرف اشياء تخفى علىّ ، قلت لنفسى ، هو محام دولى كبير وربما له دور لا يود ان يكشف عنه امامى وربما مجيئه الى جنيف لهذا

السبب أيضا ، وركنت الى الصمت .

قمنا ، وسألنى فجأة ، قال :

- يارفيق عباس ، ما رأيك فى سعادة المستشار كرامة ؟

قلت فى فخر :

- هو ابن عزبة عويس . درس واجتهد .

اجابنى ، قال :

- هو كذلك .

وبعدها أكمل الباشا مكررا فى سخرية ، قال :

- هو كذلك ، مافى مرة طلبته الا وجدته مستعدا جاهزا . ليقبل حاضر

وليس اكثر من ذلك .

كان الباشا مشغولا بالتدثر بالبالتو قبل خروجنا من المقهى ، فصمت

حتى نقطع الدرجات القليلة ويلفحنا الهواء البارد ، كما اننى دائما اتوقف

عن الحديث الى كبار السن أثناء السير ، خوفا عليهم من عثرات الطريق .

زجرنى الباشا بيده فى كفتى ، طلب منى ان أصرف السائق ليتحدث

الى على انفراد ، ففعلت .

الجو على البحيرة شديد البرودة ، مثلج ، ورياح عاصفة تصفعنا حتى

كادت آذاننا وأنفانا تتجمد وتتساقط ، قلت فى نفسى ، ارحمنى يا باشا فهذا

ليس وقت نزه على البحيرة .

واقفا ، يتطلع الى البحيرة الغائبة تحت الضباب ، يملأ عينيه منها ويدير

رأسه يمنا ويسارا ، وكأنه ينتظر شيئا ، لكن الطريق موحش ، سيارات

متدفعة فى سرعة والبشر فى داخلها وليس خارجها .

هذه نزوة طائشة لرجل متقدم فى السن ، واخشى عليه وعلى ان تصيبنا

بنزلة شعبية أو التهاب رئوى . تلملت فى وقفتى ، قلت :

- شدة البرودة تحرك عندى الام الكلى .

قال الباشا مبتسما :

- معك حق يارفيق . هيا بنا .

وسار بي في شارع جانبي بعيدا عن طريق البخيرة ، فوجدت نفسى على مقربة من ميدان واسع ، وامام قاعة للشاى توقف ، قال :  
- هيا بنا يارفيق .

دخلت خلفه ، قاعة فسيحة ، دافئة ، احسست بالانتعاش وبعدها سرت فى جسدى موجة من الخمول بسبب سخونة المكان ، سألنى ، قال :  
- ما رأيك فى هذا المكان ؟

اجبته فرحا بالدفاء ، قلت :  
- احسن بأطرافى التى تجمدت ياباشا .  
ضحك منى طويلا . وبعدها قال :

- ربما لا يسمح لى العمر بالقدوم مرة ثانية الى جنيف . هذه مواضع لى فيها ذكريات حسنة يارفيق . وشتاء جنيف أفضل من صيفها . لكن أهل المناطق الحارة يفضلون جنيف فى الصيف .

قلت لنفسى هذه أحاديث جانبية يشغل بها الباشا مقاطع الصمت بين اليوح والكتمان ، فما يود التصريح به لا يدلغه مرة واحدة ولكن يصبه على أذنى بمقدار كى يمنحنى فرصة للتفكير والتدبير .

ساورنى اعتقاد راسخ انه يود منى القيام بشىء ما ، لكنه يقترب من بغيته بقدر محسوب .

قال الباشا :  
- عندما قررت الزواج من زهية ، قلت لها منذ اليوم اسمك صافية هانم ، على اسم أم المصريين زوجة سعد باشا ، وعلى اسم والدتى أيضا .

ضحكت ، قالت :  
- على اسم والدتك ، موافقة ، اما على اسم أم المصريين ، أنا عاملة تراحيل بسيطة .

قلت لها :

- انت أمتا جميعا ياصفية .

أسلمت لها مقادير الأمور ، وكانت قد انشغلت بالدراسة ، فقامت بكل واجباتها وظلت علاقتى بابنها كما هى ، باعتبارها ابنا لها من رجل آخر ، وتزوجتها باعتبارها سيدة مطلقه .

ربيت محمد نجيب على هذا النحو ، والى جانب عناية امه به كان الى جواره دائما مربية فرنسية أو انجليزية لتعليمهما اللغة والإتيكيت والثقافة الأساسية العامة ولم تضادقهما مشاكل فى الدراسة بل كانت صافية من المتفوقات وكذلك ابنها وعشنا جميعا فى سلام ورعتنى صافية هانم ومنحتنى من عطفها وحنانها وتفانيها أكثر مما كنت أتوقع بل اعادت لى شتبابى وخففت من محنتى بسبب رحيل ابنتى أوديت المبكر . وطوال تلك السنوات كان هناك سؤال معلق فى الهواء ، نتنسمه من حين الى حين ، ويتغاضى عنه معظم الأحيان ، أنت تعرف يارفيق ان القاعدة الإسلامية الشرعية تقول ان الابن للفراش ، وأنا رجل قانون ، وقد احترمت تلك القاعدة ليس من ناحية الاموال والعقارات ولكن من ناحية مشاعرى أيضا ، قاومت التعلق به والرغبة فى امتلاكه واخذت نفسى فى قسوة شديدة ولم اتساهل معها يوما واحدا ، فى الغرب يقولون الابن لمن يربيه اما أنا وبغض النظر عن القاعدة الإسلامية وكونها دينية واجبة التنفيذ كنت ارى دائما انها تتسق مع القانون الطبيعى الذى يحكم البشر . وأنا هنا يارفيق لا أتحدث عن الاموال فقط ولكن عن المشاعر الإنسانية أيضا ، ان تحرم نفسك من تبنى ولد أو بنت ربيتها صغيرة أمام عينيك واشرفت عليه أو عليها فيه قسوة على النفس البشرية الامارة بالسوء ، لكننى أخذت نفسى بشدة ، وقلت لنفسى دع شئون الخلق للخالق ، وفى يوم ما سوف يعود الابن الى ابيه . وتجمع بينهما الحياة .

كنت استمع الى الباشا صامتا ، وقد صدق حدسى ، يفاتحنى فى أدق أمور حياته ، وعلى مقهى فى جنيف ، لابد انه فكر طويلا فى الأمر قبل مصارحتى بما يشغله ، وشدنى الى حديث الباشا ، انه يتناول المسألة من ناحيتها الإنسانية التى عادة تغيب عن البال فما يشغله ليس الاموال أو العقارات أو المكتب فهذه قضايا بسيطة وقد عرفت من زهية ان الدكتورة

أوديت تركت نصيبها كله لمحمد نجيب قبل وفاتها وفهمت من الحديث ان محمد نجيب اصبح شريكا في المكتب وليس مديرا له فقط .

كنت يقظا لما يطلبه الباشا منى ، فهذه عشرة عمر ، وقد جمعنا سنوات نضال على الرغم من ابتعاد الباشا عن المسائل السياسية ، وفي سنوات القحط والجفاف والتضييق على الناس كان الباشا يقدم العون المادى لرفاق ابنته الراحة عن طيب خاطر ودون سؤال كما انه كان يتدخل لدى الرئيس الراحل جمال عبدالناصر لتسوية الامور الإنسانية الخاصة بالمعتقلين فى بعض الأحيان ، اصغيت وقد بدأت ألم بأطراف ما يشغله وما يطلبه منى فى انتظار لمعرفة التفاصيل .

قال الباشا :

- اعتقد انه من المناسب ان تفتح زهية هانم فى هذا الموضوع يارفيق .

وزنت كلماتى ، واخيرا ، قلت :

- اى أمر ياباشا !!

ضحك ضحكة خفيفة ، كأنه يقول لى كلانا نعلم ، قال :

- اقصد مسألة زواجها السابق من كرامة وأنجابها منه ابنتها الوحيد .

أه . اطال الباشا المقدمات ، ثم وضع المسألة على بلاطة . هذه أمور مضى ثلاثون عاما عليها ومن عمر ثورة يوليو ١٩٥٢ وقد وصلنى طرف منها فى حينه بعد هروب زهية من العزبة ، وبعدها اخبرتنى الدكتورة أوديت ان زهية تساعدها فى العيادة وقد انجبت ولدا اسمه محمد نجيب . صفحات مطوية طمسها دقاتر الأيام الهادرة وماتت أوديت فى عز شبابه وتعلمت زهية ودرست وتزوجت من الباشا وأصبحت من سيدات المجتمع وترددت على الأوبرا ، وعقارب الساعة لا تعود الى الورا وكنت أود ان أقول للباشا لنُدع الماضى يذهب فى هدوء ، لكننى صمت .

رأى الباشا صامتا ، قال :

- أحد الأسباب التى دفعتنى الى رفض عروض الرئيس عبدالناصر

لتولى منصب وزير العدل أو مستشار له أن أجهزة الدولة كانت تعرف عن أحاد الناس أكثر مما ينبغي لها ومما أيضا لا يصح معرفته من شئون خاصة مثل الحب أو الزواج أو الطلاق وما يدخل فى هذا النطاق . وذات مرة صارحنى الرئيس جمال عبدالناصر بان طالبا فى كلية الآداب قد تقدم بشكوى يتهم فيها المرحومة أوديت وأنا بخطف عاملة تراحيل من عزة عويس وحبسها فى القصر دون رغبتها واساءة معاملتها وقال لى الرئيس جمال عبدالناصر ان هذه الشكوى قد ازعجتة الى درجة فقد فيها اعصابه وأمر باعتقال ذلك الطالب الكاذب لمدة ستة أشهر . طلبت منه الإفراج عن الطالب فابنتى كانت قد فارقت الحياة وأنا لا أحمل ضغينة لأحد خاصة اذا كان طالبا ، وصارحنى الرئيس جمال عبدالناصر وقتها ان الطالب قد وقع ضحية لواحد من رجال هيئة التحرير ومكتب الطلاب ، فى محاولة لتضييق الخناق على الدكتورة أوديت أثناء أزمة مارس ١٩٥٤ .

فاتنى الربط بين ما يرويه لى الباشا وما يطلبه منى ، وتمنيت ألا يكون الباشا قد وقع ضحية لأمراض الشيخوخة وضعف الذاكرة والخلط بين الأحداث ، لكنه كان مستيقظا ، وبعدها قال لى مباشرة :  
- كان الطالب من عزة عويس يارفيق ، وليس غريبا عنك أو عن صفية هانم .

طأطأت رأسى ، وقد اكتملت الحكاية من أولها الى آخرها . دخت من التفكير وتأمل مسارات الحياة الهادرة ، "نافوخى" ورم ، وزنقتنى "حصرة" المياه ، تلملت فى جلستى وهزرت رجلى ، سألنى الباشا :  
- فيه حاجة يارفيق .

اجبته ، قلت :

- رجلى نعست ، وزنقتنى "حصرة البروستاتا" .

وتماسكت وقمت اجر رجلا وراء اخرى الى دورة المياه .

عدت الى جلستى كما قمت ، رأسى تدور ، وخطوى مضطرب ، ونفسى مكروش ، لا أعرف من أين ابدأ حديثى ؟

وأمسك الباشا بخيط الحديث مرة ثانية ، قال :  
- محمد نجيب تعرف على أخته . فقطع نصف الطريق ، وسهل مهمتنا  
يارفيق .

لم أسأل ولم أستفسر ، فمعنى الكلام ظاهر كشمس النهار ، ولم يبق الا  
معرفة دورى وماذا يريد الباشا منى على وجه الدقة ، مفاتحة زهية أم  
مفاتحة سعادة المستشار كرامة بن سرحان السقا .

لا أظن انه يطلب منى الحديث الى محمد نجيب مباشرة ، فهذه لا أقدر  
عليها أنا الفلاح البسيط ، واذا كان الباشا يتبسط معى ، ويتخذنى كرفيق  
له فى ساعة غربة ، فهذا التبسط مرجعه معرفة قديمة .

فجأة قال الباشا :

- مهمتك محمد نجيب يارفيق .

اعتقدت فى البداية ان الباشا قد عاد الى مسألة مذكرات الدكتورة  
أوديت وضرورة نشرها قبل فوات الوقت ، لكنه أكمل قائلاً :  
- أحك شيئاً لمحمد نجيب عن اولاد وبنات بلدكم وقصة زواج كرامة من  
زهية وهروبه منها بسبب ضعف الحال وطلاقهما ، وبقاء زهية فى قصر  
المرحومة أوديت .

وبعدها قال لى محذراً :

- التزم الصديق فى الكلام يارفيق ، فزهية كانت تروى للولد تفاصيل  
حياتها فى العزبة وقصة اللواء عويس والأميرة شويكار وكأنى به يعرف أدق  
تفاصيل الحياة هناك من كثرة حكاياتها حتى عمدة عزبة عويس حمادة  
أبوجبل له نصيب وافر فى حكايتها .

هذه ورطة أصعب من مسألة طرد بولندا من منظمة العمل الدولية  
أو تجميد عضويتها ، ما العمل ؟

نظر الباشا الى ساعته ، قال :

- صنفية هانم تنتظر ردا يارفيق .

سألت نفسى ، قلت :

- متى ؟ وأين ؟ وكيف ؟ والفتى مشغول مع الفتاة السويدية الشقراء .

قال الباشا وكأنه يجيب على تساؤلاتي :  
- سوف ادبر الأمر كي يبدو طبيعيا للغاية لا تشغل نفسك بالشكليات  
يارفيق هي جملة أو جملتان تلقى بهما على مسامحة كالقنبلة وبعدها تتكفل  
صفية هانم بالباقي ، هي أمه .

قلت :

- حاضر .

قلتها ، دون أن أحسب وقع ذلك على سعادة المستشار كرامة سرحان  
وعائلته ، فربما يهد ذلك عشه وترفضه الأميرة جويدان ، ياللمصيبة ، نبني  
وهما جميلا بجمع ابن على والده لنهد قصرا مشيدا بالفعل .

الباشا لن يغفر لي إذا تنصلت أو تراجعت ، وقلت لنفسى بعدها ، الحق  
حق .

انتهى حديثنا وقمنا ، ويراودنى احساس بأننى اتأمر على ولد عزبة  
عويس فى السر بفتح ملفات قديمة ومواجهته بها ، ليس من حق أحد  
اجباره على الإقدام على هذه الخطوة ، هو وحده الذى يقرر المكان والزمان  
وفقا لظروفه ..

قلت :

- وإذا رفض سعادة المستشار ، وتنكر .

اجابنى الباشا على الفور ، قال :

- أنا لا يهمنى كرامة ، أنا يهمنى أمر محمد نجيب ، نخبره بالحقيقة ،  
هذا واجبنا ، وعلى كرامة ان يقرر موقفه ، علنا أو سرا ، فورا ، أو على  
مهل ، وفقا لأحواله ومصالحه . محمد نجيب دخله من مكتبى عشرة  
أضعاف مرتب كرامة وليس فى حاجة اليه ، وثروته تطاول ثروة الأميرة  
جويدان ، محمد نجيب شاب ، ثرى ، وثرى جدا .

بعدها غمز لى بعينيه وهز عصاه ، وقال :



- كرامة لن يكون خاسرا ، سوف يكسب من هذه الصفقة ، وربما تشطح به الأحلام للزواج مرة ثانية من صافية هانم بعد رحيلي ، نحن بشر يارفيق .

قلت :

- حاشا لله .

قال الباشا فى رنة شجن :

- هذه هى الحياة يارفيق . موجة وراء موجة ، تصادم وذوبان ، وأحمق من لا يكتشف سر الوجود فى شبابه .

بعدها صارحنى الباشا ، قال :

- اذا طلبت صافية هانم العودة الى كرامة سرحان طلقته ، هو أولى بها منى . أنا عجوز فى نهاية ايامى وهما مستقبليهما قادم .

فى هذه اللحظة فقط ، ادركت اننى أخاطب عجوزا هدته الأيام وهاهو يفتح قلبه ، ويفضفض ، وأحسست بعطف عليه ، فقد بدا لى فى حاجة الى العون الشديد ، وقلت لنفسى ، كلامه كسر قلبى .

تركنا المقهى ، وسرنا قليلا ، وقد تقدم العمر بنا عشرات السنين فجأة ، ورأيت كم يعانى الرجل من المتاعب الجسمية والروحية ، بسبب نبله ، واقشعر جسدى من الصقيع الخارجى والداخلى ، فما ينتظرنا مع تقدم العمر ، فظيع ، فمصيرنا الوحدة ، والحرمان ، الرجل فقد ابنته ، وهاهو على وشك فقدان ابنه ، وعلى استعداد لترك زوجته لتعيش حياتها من جديد ، ماذا تبقى له ؟ القبور لا تستقبل الناس الا فرادى ، وهاهو يعد نفسه لدخول قبره وحيدا كما جاء إلى الدنيا . قلت :

- اننى افكر فى العودة الى مصر ، مهما كانت المخاطر ، ما رأيك ياباشا ؟

أجابنى على الفور ، قال :

- هذا خير قرار يارفيق ، ولا اعتقد ان هناك متاعب ، الرئيس حسنى مبارك ليس السادات وليس جمال عبدالناصر .

قلت :

- قتلتنى الغربة وأنا فلاح ، وسوف أعود خلال اسابيع .

كانت بحيرة جنيف خلفنا ونحن نسير وهوأؤها القارس يلفحنا من الخلف بينما نخترق شارع "مونب بلان" ، وسرنا على الرصيف حتى نبتعد عن تيارات الهواء القوية ، قال الباشا :

- لا تحمل هما يارفيق ، الأمر أبسط مما تتصور ، وصفية هانم تقوم حاليا بترتيب الأمر مع سعادة المستشار ، ومحمد نجيب لن يصاب بصدمة كما تتصور ، هى معلومة فقط .

قلت :

- حاضر .

لا يشغلنى فى هذه الساعة كرامة سرحان أو محمد نجيب ، بعد أن كسر هذا الشيخ الجليل قلبى ، وجعلنى أسير الى جواره ، وكأننى أودعه بالحياة ، يأتى الى جنيف ليترك ابنه الذى رباه طفلا لرجل آخر وربما يضحى بزوجته أيضا .

يسير بى من مقهى الى مقهى وكأنه لا يود مفارقتى له ، كما أنه لم يبد رغبة فى زيارة زهية هذا الصباح ، أرى عالما يتفتت أمامى الى شظايا بعد أن سقطت الأقنعة ، كافة الأقنعة ، مسكين من يواجه هذه اللحظة بمفرده . وليس أتعس من الدكتور أحمد السيد باشا سوى الرفيق جورديا امرى الذى افنى حياته فى خدمة الحزب الشيوعى التشيكوسلوفاكى ، وهامو يعيش لحظة تساقط الثمار العظنة وتحلل الشجرة .

ماذا ينتظرنا ؟

الحياة موجة وراء موجة ، تصادم وذويان ، كما قال الباشا ، لكنها ايضا متجددة ، لا تعرف السكون ، وربما وربما ، وتوقفت عن التأكيد .

عاودتنى الام الكلى بسبب البرودة ، وأسرعت بالسير الى فندقى وقد تبينت طريقى ، أما الباشا فقد ابدى رغبة فى التسكع فى المدينة سيرا على الأقدام وإنهاء بعض الأمور المصرفية .

سعادة المستشار كرامة سرحان السقا يجلس فى بهو الفندق منتظرا  
خال عباس ابوحميده ، الفلاح البسيط ، الهارب الى براغ ليعمل فى اوساط  
اتحاد العمال الشيوعى الدولى .  
ياللمفارقة ياكرامة .

بعد ثلاثين عاما تضيق بك مسالك الحياة لتتسول نصيحة من رجل بسيط  
كالخال عباس !! تاتى الى فندقه دون موعد ، وتنتظر فى البهو مثل  
المتسولين . هانت عليك نفسك ياكرامة الى هذا الحد .

الناس تدخل الى الفندق وتخرج فى عجلة من امرها ، وهو جالس على  
مقعد ينفث الدخان ، ليست له القدرة على الحركة فخطوته التالية فى رحم  
المستقبل ولم تتحدد معالمها او تتضح مساراتها .

هل يترك كرامة سرحان نفسه للمصادفات تحركه كما تشاء أم يمسك  
بزمم الأمور ويحدد خطواته المقبلة ؟ كنت دائما مستسلما للمقادير ، فكن  
مرة واحدة أنت ياكرامة .

مجيئه الى عباس ابوحميده ، ليس لطلب النصيحة ، ولكن ليستمد منه  
شجاعة يفتقدها ، هذا رجل اعتقل وسجن وهرب وشرد ، ولم ينكسر عوده ،  
بل زادت حيويته ، واتسعت آماله وأصبحت باتساع الكون . فهاهو يعمل  
فى براغ ويستعد للعودة الى القاهرة .

جلس كرامة وسرح ، هناك فى عزبة عويس كان يقضى نهاره فوق  
شجرة جميز كالقرد ، وعيناه على شرفة الاميرة جويدان ، اغصان الشجرة  
تؤلمه وهو يتحايل عليها بتكوير جسده ليجد الجلسة المريحة ، والاميرة لا  
تطل من الشرفة لايام طويلة ، فالامراء لا يقفون فى الشرفات يتأملون

المزروعات وأشجار المانجو الباسقة ، يجلسون فى غرفات القصر يشمون أريجها عن بعد ، فعيونهم قد ملت الخضرة من كثرة النعيم ، واعتدل كرامة فى جلسته كى يبعد عنه أوراق الشجرة المدبية ، حرك مقعدته ودفق قدمه بقوة ليستند بها ولا يسقط وتراب الطريق الناعم يضايق خياشيمه ويحجب عنه الطريق وهو يلتصق بعينيه من الداخل .

رتب كرامة سرحان أوراقه وصهد عزية عويس يرهبه بينما العرق يتصبب على وجهه ويتجمع تحت انفه ويختلط بعقار الطريق قال : ليس أمامه من أعمال فى الأيام التالية سوى اتمام صفقة بيع القصر والعزية ، وهذه صفقة ضخمة وليست بالأمر السهل .

أب يبيع لابنه املك زوجته ، وجد الحسبة سمجة وسخيفة على روجه ، قال : زوجته الأميرة تبيع قصرها الى أحمد السيد باشا ، استراح قلبه .

طلب كأسا من الويسكى ، هذه هى مشاغله فى الأيام القادمة ، ومع طعم الويسكى فى فمه ، اشعل سيجارا فحما ، واستراح فى المقعد المريح .

ابستت لن تكون فى حاجة مادية بعد بيع القصر ويمكنها البقاء فى جنيف أو أية مدينة أوروبية أخرى لمتابعة دراستها ، أما هو فيرحل مع جويدان الى القاهرة أو الإسكندرية ويتفرغ لدراسة الشعر .

فجأة تبين كرامة انه لم يطلع زوجته بعد بانباء هذه الصفقة فقد توالى عليه الأحداث هذا الصباح فشغلته عن زوجته وعن الصفقة . هل كان فى مقدوره الذهاب الى الهند على هذا النحو؟ كلا . فهذا ليس نقلا ، لكنه عقوبة ، وهو لم يرتكب ما يستحق العقاب عليه .

قال كرامة سرحان ، هذه المرة ، لا ، ولم يندم .

لمح الخال عباس أبوحميدة قادما الى الفندق ، رآه وهو يعبر الطريق فوقف فى منتصف البهو منتظرا .

قال الخال عباس أبوحميدة وهو يحضنه :  
- فرحتى كبيرة ياابن بلدى . فرحتى كبيرة .

دعاه كرامة الى الغداء ، وقال :

- وحشتنى ياخال .

كان الخال عباس مرهقا من تلك الجولة التي قام بها فى انحاء المدينة فى صحبة الدكتور أحمد السيد باشا فى هذا الجو البارد وفى حاجة الى اراحة قدميه لدقائق . قال :

- هيا نصعد الى غرفتى . ابدل حذائى . وأعد أوراق الجلسة القادمة .

صعد كرامة سرحان معه الى الغرفة ، يود ان يفتحه فى مسألة استقالته وفى مسألة بيع عزبة عويس الى الباشا غير ان قلب الخال عباس كان مشغولا عنه ، وتريث كرامة فى حديثه .

دخل خال عباس أبوحميدة الى الحمام ووضع قدميه فى مياه ساخنة فضاعت آلام اصابعه خاصة اصابع القدم اليمنى التي تؤلمه فى الشتاء . جفف قدميه ، قائلا لنفسه : الحق حق . ولا بد من مفاتحة سعادة المستشار .

فجأة قال المستشار كرامة سرحان :

- استقلت من الوظيفة ياخال عباس . الآن أنا دبلوماسى سابق .

نظر اليه خال عباس أبوحميدة متعجبا ، سأل :

- ليه ياولدى ؟

سأله خال عباس أبوحميدة ، وكأنه يقول له ، هل يحق لواحد مثلك من ضعاف الناس الاستقالة ، هذا شرف يفخر به كبار القوم ، ويقومون به لتسجيل مواقف سياسية .

اراحه كرامة سرحان ، قال :

- استقالتى ليست لأسباب سياسية ، رفضت النقل الى الهند . ظروفى

لا تسمح .

مال خال عباس برأسه الي اليمين ، متأملا حال الدنيا ، فهاهو ولد عزبة عويس يستقيل من منصبه فجأة دون مقدمات فيقلب "الترابيزة" على

رأسه ورأس الجميع ، قال عباس أبوحميدة لنفسه : هذا يوم أعبر من طلعتة  
وملئ بالمفاجآت .

هل تسعد استقالته زهية هانم وابنها محمد نجيب ؟ هل فى مقدوره الآن  
مفاتيحة كرامة بخصوص محمد نجيب ؟ ما رأى الباشا فى هذه الاستقالة .

وتتنحج الخال عباس أبوحميدة ، ويسمل ، وبعدها قال :  
- ياولدى ربما من الأفضل تأخذ رأى الدكتور أحمد السيد باشا فى  
الموضوع ، فهو من كبار القوم ويفهم فى هذه الأمور .

قال كرامة أسفا :

- الاستقالة انتهى أمرها .

بعدها أضاف قائلا :

- الباشا عرض شراء قصر المرحوم والد جويدان وكذلك اربعين فدانا .

وقف الخال عباس فى حيرة ، امضى ساعات الصباح مع الباشا ولم  
يخبره بنيتة ، وان كان قد صارحه بمشاغله واحزانه الشخصية ، وفتح له  
قلبه ، فاغرقه فى أحزانه وهمومه ، لكنه حجب عنه خططه المالية ورغبته فى  
شراء العزبة .

قال خال عباس أبوحميدة لنفسه مهونا الأمر . عليه القوم بحورهم  
عميقة ، وليس من السهل عليهم التبسط مع الآخزين .

وبعدها قال لنفسه ، ربما هى نزوة طارئة من الباشا او دردشة سريعة  
فى لحظة فراغ .

تذكر عباس أبوحميدة ان الباشا قبل انصرافهما اخبره أنه سوف ينهى  
بعض الأمور المصرفية ، المسألة جد ولا مزاح فيها ، والنقود الآن جاهزة  
فى البنك أو فى الفندق .

طال صمت خال عباس أبوحميدة ، وبعدها سأل :

- وما رأى سمو الأميرة فى مسألة بيع العزبة ؟

أجابه كرامة ، قال :

- لم اطلع جويدان بعد على هذا العرض .

وبعدها أضاف :

- لقد جرى كل شيء فى عجلة ، طلبنى الباشا لمقابلته فى الفندق ، فتوجهت اليه ، وبعدها صعدت الى محمود بك القرشى وكيل الوزارة ، وقدمت له استقالتي ، ثم جئت الى هنا .

انتهى عباس ابوحميده من أوراقه ، وقد صدت نفسه عن الطعام ، قال :  
- هيا بنا .

وبعدها أضاف : أمامى جلسة ساخنة فى أروقة المنظمة ، وربما تستمر طوال الليل .

خرجا سويا .

فى المصعد كان خال عباس أبوحميده يقلب الأمر برمته ، فهذه خطة من الباشا لتسوية كافة المسائل المعلقة دفعة واحدة ، ضربة معلم ، عملية البيع والشراء سوف تستغرق وقتا ، وسوف يغرق كرامة فى اضايير العزبة والقصر ، وتأخذ المساومات بين الأميرة زهية هانم ومحمد نجيب طريقها ، وتكتشف سمو الأميرة السر .

هذه هى حكمة الشيوخ التى لا تخيب ، رأى الباشا ان يجمع الشمل بين الأسترتين ، بالأخذ والعطاء وإذا فشلت الصفقة لن يندم عليها فقد أدت مهمتها بعد التقاء زهية هانم بالأميرة جويدان ، وأهم من ذلك كله التقاء محمد نجيب بوالده كرامة سرحان وأخته من والده ابسنت .

تعجب خال عباس من رغبة الباشا فى شراء عزبة عويس وهو فى نهاية العمر وليست له دراية بالزراعة كما ان القصر فى حوزة وزارة التربية والوزارة لن تتنازل عنه اذا آلت ملكيته الى الباشا أو ابنه ، والباشا لن يطاوعه قلبه على غلق معهد فنى يخرج مئات الزراعيين ، خاصة اذا كان ذلك المعهد فى خدمة العزبة التى ترعرت فيها زوجته ، واختفت فيها ابنته ، وحفظت سرها فى أوقات الشدة حيث كان محمد ابراهيم أمام رئيس القلم

السياسى يطاردها ويعتبرها مسئولة عما يجرى فى مصر من مقاومة للنظام الملكى .

قال خال عباس ابوحميده لنفسه : الباشا لا ينوى شراء العزبة . وسأل كرامة قائلا :

- ياسعادة المستشار . هل كشف الباشا عن قصده من شراء العزبة ؟

أجاب كرامة قائلا :

- كلا .

سأل خال عباس أبوحميده :

- اليس ذلك غريبا ؟

أجاب كرامة مكملا :

- كل الغرابة ياخال .

سأل خال عباس ابوحميده ، قال :

- وما رأيك ياسعادة المستشار؟ فى عملية البيع ؟

أجابه على الفور ، قال :

- الرأى رأى زوجتى فهذه أملاك والدها وأنا لا اتدخل فى شئونها

المالية .

قال خال عباس معلقا :

- بارك الله فيك .

انطلقت بهما السيارة وقد حل بهما الصمت . صمت كالضجيج بعد أن أخذتهما الحياة على غرة وتبدلت مساراتها . عباس أبوحميده فلاح عزبة عويس أصبح معتبرا ويعمل وسط اتحاد العمال التقدمى ببراغ وكرامة سرحان يترك عمله بالخارجية وتراوده فكرة الانفصال عن زوجته الاميرة جويدان ويتريث فى مصارحة ابنه بالحقيقة .

مصرع الرئيس السادات على هذا النحو قلب الأوضاع رأسا على عقب بعد ان قويت شوكة الجماعات الإسلامية وتشابكت خطوطها مع جماعات



الذهب المنظم وغلاة الرجعية فى المنطقة .

عقل الأمة غيب وطرد المثقفون وهاجروا الى بقاع الأرض بعد أن انتعشت جوقة الزمر وقرع الطبول وتلاحمت خيوط رجال السياسة برجال الانفتاح السعيد فترسخت قيم الذهب وانكفأ رجال الطبقة المتوسطة على انفسهم .

غاب المشروع القومى عن البال وقبع الناس داخل ذواتهم يلعبون جراحهم كالكلاب المضروبة بالرصاص .

مات جمال عبدالناصر ، فانفض مولد الثورة وتفرق الناس ، مولد كموالد الطهور والزفاف له بداية وله نهاية ، واولئك الذين اكلوا حمص المولد وشربوا الشربات تنكروا للعريس ، ويحثوا عن غيره ، عن مولد آخر للحمص .

سأل كرامة ، قائلاً :

- ما الحل ياخال .

كان عباس ابوحميدة الى جواره فى السيارة ، نظر اليه فادرك بفراسته أنه يسأل عن حال البلد ، وليس عن أموره الشخصية ، وعرف ذلك من نظراته ونبرة صوته ، فأجاب قائلاً :

- بعد سوكارنو لابد أن يحكم سوهارتو . هذه طبيعة الأمور . فيعد جمال عبدالناصر كان لابد أن يتولى السلطة الرئيس السادات ، ولا تنس ياسعادة المستشار ان الرئيس قد حكم برجال عبدالناصر فيما عدا القلة من رجال مكتبته والمقربين اليه ، هؤلاء وضعهم فى السجن بعد محاكمة سياسية ظالمة ، ليتخلص من منافستهم له ، أما الآخرون ، فساروا معه على الدرب الطويل .

قال كرامة سرحان السقا لنفسه : حقيقة حكم الرئيس السادات برجال عبدالناصر .

وبعدها سأل نفسه قائلاً : أليس ذلك غريباً ؟

بدأ كرامة هذه المرة فى طرح الأسئلة وقد تخلص من الحرص بعد تقديمه استقالته . أحس بأن عقله استعاد نشاطه وحيويته ، فهذه تساؤلات كان لا يسمح لها فى السابق أن تطوف برأسه .

يمتلك كرامة فى هذه الساعات حرية طرح الأسئلة ، وهذه حرية ثمينة ، وإذا كان لا يمتلك اجابات لهذه الأسئلة ، فمن حظه ان الخال عباس ابوحמידة الى جواره .

حقيقة كرامة يسأل نفسه ، على انفراد وهو يقود السيارة ، ولم يبيع بعد بكل ما يطوف برأسه ، لكنها تساؤلات ، والتساؤلات حالة من النشاط الذهنى الذى افتقده - بارادته - فقد امضى سنوات العمل مستمعا ، وعلى شفثيه دائما كلمة : حاضر .

تحول كرامة من حالة الاستماع الى حالة التفكير ، وهاهى ذى تأتى فرصة الكلام ، فليتكلم .

قال كرامة سرحان السقا بصوت عال للخال عباس ابوحמידة :  
- تحدى الرئيس السادات - رغبة الناس ، فمات غير مأسوف عليه .

أكمل خال عباس أبوحמידة قائلا فى حسرة :  
- ويل للحاكم اذا تحدى رغبة الناس وأحبط امانتهم .

بعدها أكمل قائلا :

- أحلام الناس ياولدى كثيرة ، منها المستحيل ، ومنها البسيط ، وكان جمال عبدالناصر يتبنى الأحلام المستحيلة ، يحترمها ، يتحدث عنها ، يقنع الناس بأنه يضعها ضمن الأولويات ، اما الأحلام الصغيرة ، فسعى لتحقيقها ، الغى الألقاب ، حدد الملكية ، وجه ضربة للاقطاع ، طبق مجانية التعليم ، أقام مستشفيات ومدارس ، اهتم بشئون الرى ، سعى للقضاء على البطالة .

أجاب كرامة وكأنه يحدث نفسه :

- نعم ياخال .

الخال عباس كان مهموما ، فبعد ان كسر قلبه الدكتور أحمد السيد

باشا ، هاهو كرامة ابن عزية عويس يعلن افلاسه ، وربما يخرج من المولد بلا حمص ، ربط نفسه فى عجلة الرئيس الراحل ، مسلحا بكلمة : حاضر . وقد حلت ساعة الحساب .

على الطعام ، جلسا ، يمضغان فى روية القليل من المأكولات والكثير من الصمت ، وكل منهما تشغله مشاغله ، كرامة يتعلق بماضيه ، والخال عباس مهموم بايامه القادمة وسط هذه التغيرات الكاسحة .

قال الخال عباس لنفسه : الحق حق .

لكنه صمت وبلغ الكلام ولم يبيع بما فى قلبه ، فرفيقه اصبح ينتسب الى الأمراء ، ويهمه بيع عزية اللواء بعد ان ألت الى زوجته ، واذا كان قد اصطفاه فى لحظة ضعف ، فسرعان ما يسترد قواه وعافيته ، ويتنمر مرة اخرى .

رأى الخال عباس الدنيا الواسعة ، وكيف حصر كرامة نفسه فى خية ، فقال لنفسه ، لن يخرج ولدنا كرامة من ازمته الا اذا رأى الدنيا الواسعة وسمى الأشياء باسمائها الحقيقية . اما اذا بقى على هذا الحال فسوف تأكله مخاوفه .

ورفع رأسه عن المائدة وتأمل بنيانه العريض ، وقال لنفسه : خسارة يا ولدى .

الشدايذ وعذاب المعتقلات علمت الخال عباس ان الناس نفوس ، نفس قوية ، واخرى ضعيفة هشية . وكان يفتح قلبه للضعاف قبل الأقوياء ، فالناس فى حاجة الى كلمة حلوة .

قال الخال عباس مشجعا :

- هذه صفحة جديدة يا ولدى . حياة اخرى ، مليئة بالنعم ، وانظر كيف التقينا هنا جميعا مصادفة ، زهية هانم .

بعدها تريت برهة ، قبل ان ينطق قائلا :

- ومحمد نجيب .

خفق قلب كرامة عندما سمع اسم محمد نجيب ، هذا ابنه ، من زهية  
عاملة الترحيلة ، وليس من زهية هانم زوجة الدكتور أحمد السيد باشا ،  
فهذه امرأة اخرى غريبة عنه ، واصبحت لا تنتمي الى عزة عويس ،  
وبعدما ضحك قائلاً لنفسه ولخال عباس ابوحميذة :  
- كلنا تغيرنا .

نظر اليه الخال عباس مستفسرا ، فاضاف كرامة قائلاً :  
- دعتنى صباح اليوم زهية لزيارتها فى المستشفى ، ولما ذهبت اليها  
طردتنى . طردتنى شر طردة ياخال .

توقف خال عباس عن الطعام ، تساعل ، قال :  
- لماذا ياولدى ؟

اجاب كرامة وقد خفض من صوته ، قال :  
- مسألة يطول شرحها وتعود الى ايام الصبا . ايام الطيش .

هز خال عباس ابوحميذة رأسه ، صمت عن الكلام وتوقف عن الطعام ،  
ولم يكن فى حاجة الى سؤال أو جواب ، فالخطاب يظهر من عنوانه ، وقد  
أعرب كرامة عن نيته ، وكشف عن مقصده ، وقال لنفسه : الجبان جبان  
حتى اذا تزوج من اميرة او عمل فى الخارجية ردحا من الزمن .

هذا رجل يهرب من ماضيه ، فى لحظة فقد فيها مستقبل ايامه ، ويا ويل  
من يتنكر لأيامه السابقة ، فى لحظة ضعف .

قال عباس ابوحميذة لنفسه : هذه حالة ميثوس منها ، وقرر عدم  
مصارحته بما يعرف .

عندما سأل كرامة ، قائلاً :  
- ماذا افعل ياخال ؟

اجابه الخال عباس وهو يطوح رأسه ، قائلاً :  
- ربنا يجعل العواقب سليمة .

وقاما معا .

( ١٣ )

ايقظتنى جويدان من النوم ، وأحسست فى صوتها بنبرة فرحة وحدثنى  
كطفلة صغيرة مشاكسة ، قالت :

- استعدى يا جلبهار للعيش معى فى الإسكندرية . كرامة استقال من  
الوظيفة وسوف ابيع القصر والعزبة .

كنت شبه نائمة ، ورأيتها كطفلة صغيرة يدفعها فضولها لتحطيم لعبتها  
وممارسة متعة الفرجة والاكتشاف . سألتها :  
- ماذا جرى ياسمو الأميرة ؟

اجابتنى فى جد هذه المرة ، وقد عادت الى طبيعتها وصيغت صوتها رنة  
أسى ، ويبدو أنها قد تبينت أنها ايقظتنى من النوم ، فأحسست بندم ، قالت :  
- سعادة المستشار رفض النقل الى الهند وقدم استقالته .

قلت لها :

- مبروك .

أكملت حديثها ، قالت :

- وافقنى على ضرورة العيش فى الإسكندرية فى الشتاء .

ضحكت ، قلت :

- حياة أسرية هادئة .

قاطعتنى ، قالت :

- سوف يفتح مكتبنا للاستيراد والتصدير .

تبينت أنها قد أشارت الى بيع العزبة ، سألتها ، قلت :

- وما حكاية بيع العزبة ؟

اجابتنى ، قالت :

- الدكتور أحمد السيد باشا عرض شراء القصر واربعين فدانا .

وبعدها ، اكملت :

- تصورى ياسمو الأميرة ، قصر أبى اللواء عويس ، أصبح مدرسة

لتخريج الفلاحين . خرب . بيعه أفضل .

أغرقتنى جويدان بمشروعاتها المفاجئة ، وحانت منى نظرة الى الساعة فوجدتها السابعة صباحا ، وأنا من عادتى أن أنعس يومى السبت والأحد حتى الحادية عشرة صباحا ، لأخذ كفايتى من النوم وأعوض تعب الأسبوع .

قلت لنفسى : سامحك الله يا جويدان . هذه ليست ساعة الحديث حول مشروعات ، واليوم يوم أحد ، ورأيت أن أسايرها فى فرحتها دون تعليق أو مناقشة ، وإن كان قد استقر فى عزمى أن استقالة كرامة من عمله فى الخارجية ، تحمل فى طياتها رغبته فى الطلاق ، ولا أدرى ما الذى دفعنى الى هذ اليقين ، حيث لا علاقة بين الاستقالة والطلاق .

لكنه إحساس ، والمرأة أحاسيسها أصدق من عقلها ، وقلت لنفسى : فرحتك لن تتم يا جويدان .

بعدها قلت لنفسى : ربما جويدان يسعدها الطلاق .

غبت عن جويدان لحظات ، كنت اردد فيها ، كلمات ، نعم . نعم وغرقت فى افكارى ، وأنا امسك بالهاتف ، وتبينت فجأة أنها تحدثنى عن كرامة فى ود شديد ، وكأن مشاكلها معه قد انتهت دفعة واحدة ، قلت لنفسى ضاحكة : ما أشد تقلبات قلب المرأة .

انتقدتنى علا المجد أول أمس قائلة :

- كفى ياسمو الأميرة عن ترديد هذه الأكلاشيهات التى لا معنى لها .

قالتها فى أدب مصطنع ، وعلى مسمع من الزملاء فضايقتنى ، وكدت أتشاجر معها ، غير أن صديقى أنور سلامة ، شغلنى عنها بطريقة لبقة ، وصحبنى بعيدا لتأخذ قهوتنا وقد أدار الحديث بيننا فى وجهة أخرى .

تذكرت هذا كله ، بينما جويدان تحادثنى على التلفون ، ويبدو انها تبينت عدم متابعتى لها ومشاركتى فرحتها ، فسألتنى ، قالت :

- انت بخير يا جليل .

قلت لها دون مقدمات :

- ضايقتنى زميلة يوم الخميس فحرقت دمنى .

صمتت جويدان فترة قصيرة ، وبعدها سألتنى ، قالت :

- من هى ؟

أجبتها على الفور ، قلت :

- علا المجد .

ضحكت ، قالت :

- علا المجد .

أكملت قائلة ، وقد زاد غيظى :

- هذه البنات "المفعوضة" انتقدت طريقتى فى الحديث . تصورى .

قلت لى جويدان على التلفون :

- هذه البنات !!

وضحكت ضحكة عالية .

بعدها قالت :

- هذه فضيحتها بجلال .

تعجبت . سألتها عما تقصد ، فأجلت الحديث الى ان تلتقى ، قائلة ،  
هذه اسرار .

ايقظتنى من النوم فى هذه الساعة لتخبرنى باستقالة زوجها وكان فى مقدورها الانتظار حتى تحادثنى - كعادتها - قرب الساعة الحادية عشرة .

قلت لى نفسى : هذه السيدة تحطم لعبتها بيديها لتتفرج عليها ، تظن انه يسفرها الى الإسكندرية وانغماسها فى الأعمال التجارية سوف تضمن

عودة كرامة اليها . كرامة عقله مشغول باوهام كثيرة وروحه افسدها  
الماضى واحلامه حطمها مقتل السادات على هذا النحو الفاجع .  
فى سنوات عز السادات بعد حرب أكتوبر بقليل كان كرامة يردد لنفسه  
وللآخرين قائلا :

- حلم جمال عبدالناصر فى الاشتراكية والقومية العربية قد فشل بسبب  
عوامل خارجية قوية لا قبل لمصر بها اما حلم السادات فى بناء التنمية عن  
طريق الرأسمالية سوف يجد دعما عالميا بعد حرب أكتوبر اما الوحدة  
العربية والقومية فلها الله .

قلت له ذات مرة :

- اسمع ياكرامة . الحلم الفردى هو اساس تقدم المجتمع .

اجابنى فى حسرة ، قال :

- الهم العام يؤرقنى ياجلبهار ، فأنا لست اميرا ، وقد لحقت مجانية  
التعليم فى الجامعة فتوقفت عن بيع العقود والجرى وراء السياح فى منطقة  
الأهرامات ، ولا تنسى اننى التحقت بالخارجية دون واسطة .

قلت له على الفور :

- وتزوجت اميرة ايضا دون واسطة . هذا هو المشروع الفردى .

ضحك ، قال لى :

- انت كنت واسطتى ياسمو الاميرة .

ذات مرة ، قلت لكرامة :

- الرئيس مبارك يسير على خطى السادات .

حدثنى كدبلوماسى ، اجابنى فى اقتضاب ، قال :

- مصر لها سياسات ثابتة .

كانت جويدان تحدثنى ، وأنا غافلة عنها ، تحدثنى عن ثمن العزبة  
ومحاميتها وايضا زميلنا الجديد الدكتور على سموحة ، وانتبهت اليها عندما  
ذكرت الدكتور على سموحة ، وسألتنى عن سبب عجز يده اليسرى عن



الحركة ، سألت نفسي : ماذا جرى يا جويدان ؟

بين اليقظة والنعاس ، رأيت جويدان تتعلق بزميلتنا الجديد الدكتور على سموحة ، وتجرى وراءه الى الإسكندرية ، قضايقت ، وبدأ لي الأمر كله كابوسيا .

سألتني جويدان :

- متى تلتقي ؟

اجبتها ، قائلة :

- على الغداء ، عندي .

رحبت بدعوتي لها ، فهي تود الحديث ، وجدت ما يشغلها في حياتها الفارغة ، قرأت ان تشغلني به ، بيع العزبة ، السفر الى الإسكندرية ، التعلق على سموحة ، استقالة كرامة من العمل ، الانتماس في أعمال تجارية قاشلة ، وهذه كلها مسائل لا تستهويني بالمرّة ، فقلت لها ، أنا متعجلة لسماح حكاية علا المجد ، فاجابتنى :

- تقصدي قضية علا المجد ؟

قلت لها :

- نعم .

جلسات النساء تميمة ، فهي ممارسة للحب واليقضاء على الهواء ، خاصة عندما تزيئها الغيرة ، والمؤمرات الصغيرة ، أما اذا تجاوزت التميمة حدود الدعاية المشروعة ، والمزاج ، تحولت الى قضائح ، وهذه أشياء مقوّرة لي ، ترقضها نفسي ، وتمجها مشاعري ، فأنا تعودت ان اسمي الأشياء باسمائها الصريحة الواضحة .

قلت :

- جويدان - امامنا جلسة تميمة فنية ممتعة .

اجابتنى ، ضاحكة على الطرف الآخر :

- واية تميمة يا حبيبتى .

استعدت نشاطى ، وقد أسعدتنى ضحكها ، فمن متع الدنيا أن تستيقظ  
امرأة لتتقبل قبلة من حبيب على التليفون أو ضحكة من صديقة أو قريبة  
لها .

انتهت مكالمتنا ، وقمت الى الحمام ، اغتسلت ، ووضعت على بدلة  
التدريب البسيطة ، وقررت التوجه الى النادي ، وممارسة الجرى ، هذا  
صباح مشرق ، له شمس وسماؤه صافية ، على الرغم من برودة الجو  
الشديدة ، وأنا يجدد نشاطى الجرى المعتدل ، كما انه يفرغ طاقتى  
الزائدة ، ويمدنى بحيوية طوال الأسبوع .

( ١٤ )

مباحثات واوراق كثيرة . ترك الدكتور أحمد السيد باشا لصديق له من المحامين فى جنيف الفراغ منها مع الأميرة جويدان ومحاميتها وقد تابع محمد نجيب تطور الصفقة مع كرامة سرحان والأميرة جويدان .

ترك الباشا الأمر لهما ، ولم يشغل باله بالصفقة ، فتثقت فى خبرة محاميه كبيرة ، فهذا صديق له من سنوات الأربعينيات . محام يهودى عمل فى مصر لسنوات طوال فى سلك المحاماة ، وانشغل بالسياسة فى اوساط الحركة الشيوعية .

كان الرجل معاديا للحركة الصهيونية وقيام دولة إسرائيل وطرد من مصر سنة ١٩٥٨ بسبب انتماءاته اليسارية ، فاختر جنيف مقرا له ، وقد رفض الذهاب الى باريس عن عمد ، بسبب كراهيته لهنرى كورييل وانحياز المثقفين الفرنسيين الى إسرائيل .

واقترنت احاديث الدكتور أحمد السيد باشا مع محاميه اليهودى بن هارون على عموميات الصفقة وقد انشغلا بالحديث عن الماضى وما فعلته الأيام بمصر .

قال بن هارون ضمن حديثه :  
- ياباشا . الوطن هو الذكريات .

فتوقف الدكتور أحمد السيد باشا عند هذا القول طويلا . نعم . الوطن هو الذكريات .

لما رأى بن هارون توقف الباشا عند هذا القول : الوطن هو الذكريات .  
أضاف قائلا : هذا القول ياباشا للكاتب السويسرى الشهير ماكس

فريش . وكتبه اثناء هجرة مؤقتة له للولايات المتحدة استمرت ثلاث سنوات .

سأل بن هارون قائلاً :

- المصريون هنا فى جنيف لا يشغلهم سوى ترديد تفاصيل مصرع السادات ومتابعة التحقيقات ، هل استمعت اليهم ؟ يعيشون الأحداث وكأنها وقعت أمس ، وليس فى العام الماضى .

اجاب الباشا ، قائلاً :

- استمعت لبعضهم . بعضهم حزين لموته وآخرون فرحون اما اكثرتهم فيتخوفون من ابداء رأى قاطع امامى . فانا غريب ، وباشا سابق .

أضاف بن هارون ، قائلاً :

- السادات رحمه الله استحق مصيره ليس لأنه وقع اتفاقية سلام مع إسرائيل ، فكلنا يعرف ان اتفاقيات السلام غير العادلة ليست الا هدنة حرب ، لكن أخطاه السياسية هى انه عمل لمسح ذكريات الوطن ياباشا . ذكريات الوطن ضاعت فى عهده من اذهان الناس ، والوطن هو الذكريات .

اضاف بن هارون ، قائلاً فى حسرة :

- طردنى عبدالناصر من مصر عام ١٩٥٨ شرطردة ليس بسبب عقيدتى الدينية لكن بسبب ارائى السياسية اليسارية ، وصدقتى لليساريين - كان مواطناً مصرياً عظيماً ، عمل على نشر الثقافة والذكريات والاحلام ، والوطن ذكريات واحلام .

أضاف بن هارون قائلاً :

- طردنى عبدالناصر من مصر ولم يسقط الجنسية عنى . ووصلتني بعدها رسالة منه ، عن طريق واحد من المقربين لديه ، قال فيها انه رحمنى من اعتقال فى الواحات لعدة سنوات ، وانقذنى من تعذيب اللواء همت .

ونظر الى ضاحكا .

فاجبته ساخطاً ، قلت :

- ياليت الرئيس اعتقلنى . عذاب القرية اقسى من الضرب ، كما ان الهروب من مصر فى ذلك الحين كان خيانة ، فكيف يهنا لى العيش ، واصدقائى ومعارفى فى الواحات ؟

اجابنى الرجل ، قال :

- كان صراعا سياسيا ، والصراعات السياسية لها متاعبها واثامها .

كان الدكتور أحمد السيد باشا يستمع لصديقه صامتا ، فقد فرقت السنين بينهما ، واقتصرت الاتصالات على مكالمات تليفونية من حين الى آخر عند سفره الى عاصمة اجنبية .

منذ قدم الباشا الى جنيف وهو يعيش احوال الوطن على نحو لم يعيشه من قبل ، فماذا جرى ؟ هل مصر فى ازمة روحية ، بعد مقتل أول رئيس على هذا النحو؟

فى سفريات الباشا السابقة كانت احاديث الناس تتصرف الى آخر الأخبار الواردة من الوطن ، اما اليوم فاحاديث الناس تتصرف الى احوال البلد وتلك الازمة الروحية التى تخيم عليها .

فجأة قال بن هارون :

- كراهيتى للسادات رحمه الله لا حد لها . والغريب هنا يقيم له مناحة ونزل فيها لطم على رأى اخوتنا القلاحين .

ضحك الباشا لهذا التعبير ، وكان الحديث بينهما يجرى بالعامية المصرية ، وكأنتهما فى المعادى أو فى قرية مصرية ، وليس فى جنيف .

قال الباشا ميتسما :

- على كل حال اعتقلت أنا بدلا منك ، وفى نهاية العمر ايضا . بيدوان الاعتقال قد اصبح لعنة فى مصر تلاحق الجميع .

سأل بن هارون :

- كيف يا باشا ؟

اجابه الدكتور السيد باشا ضاحكا :

— فى حملة سبتمبر الشهيرة مع قواد باشا سراج الدين ومحمد حسنين  
هيكل وعدة وزراء . أصابنى الدور .

ضرب بن هارون كفا بكف ، قال :  
— أسف يا باشا .

عرف بن هارون فى حينه ان حملة الاعتقالات قد شملت الجميع لكنه لم  
يتصور للحظة واحدة ان تمتد الحملة الى صديقه ، فهذه حماقة ما بعدها  
حماقة فالدكتور لم يكن عضوا فى حزب أو فى جماعة ما .

قال الدكتور أحمد السيد باشا حزينًا :

— اينتى الوحيدة الدكتور أوديت قضت فى أزمة مارس ١٩٥٤ ، فى عهد  
عبدالناصر ، وأنا دخلت المعتقل فى اواخر عهد السادات ، ولا أحد يعرف  
ماذا يجرى لنا فى عهد الرئيس مبارك ؟

اجاب بن هارون ، قائلاً :

— عشرات من المقالات تصدر كل يوم حول الرئيس مبارك وكلها تتسم  
بالغموض . هذا رجل لم يفصح عما يدور فى رأسه بعد ، والمشكلة فى  
رأى أنها اصيحت تمس الشارع المصرى وليس الجهاز الحاكم  
أو الصحافة أو الإعلام ، لقد خلقت الجماعات الإسلامية ذاكرة اخرى  
للوطن ، العودة الى القرن الأول الهجرى ، تحت شعار تطبيق الشريعة  
الإسلامية والإسلام هو الحل ، والعودة الى الوراء دعوة مثالية ، استندت  
اليها الصهيونية السياسية فى انشاء المستوطنات فى القرن الماضى ثم  
اقامت دولة إسرائيل فى عام ١٩٤٨ .

أخذ الدكتور أحمد السيد باشا يستمع فى اهتمام ، فهذه رؤية جديدة  
عليه ، ويتساءل :

— هل الجماعات الإسلامية رد فعل لما جرى فى الشرق الأوسط ؟

اجاب بن هارون ، قائلاً :

— قشل المشروع القومى المصرى مرتين ، مرة فى عهد محمد على سنة  
١٨٤٨ ، ومرة اخرى فى عهد عبدالناصر فى سنة ١٩٦٧ ، وفى المرتين ،

اظهر الغرب عداً مبيناً ضد مصر ، ولهذا فمن الطبيعي ان يجرب الناس طريقاً آخر ، العودة الى الدين كمقابل للوطنية والقومية ، الدين هنا ليس العقيدة فالشعب المصرى متدين بطبيعته ، الدين فى هذا السياق ، هو التراث والسياسة . هذه حركة ثورية مثل الثورات التى عرفها التاريخ الإسلامى فى السابق ، وتسببت فى تمزيق الخلافة ، وكلنا يعرف ما سببه الخوارج والشيعية من انقسامات .

سأل الدكتور أحمد السيد باشا :

- والحل يا حضرة الأفوكاتو؟

اجاب بن هارون ، قائلاً :

- هذه ليست جماعة إرهابية ، هذه حركة سياسية تعتمد على الإرهاب فى تحقيق اهدافها ، والفرق بين الجماعات الإرهابية والجماعات السياسية التى تلجأ الى وسائل إرهابية لتحقيق اهدافها يجب ألا يغيب عن فطنة رجال السياسة والقانون غير ان رجال الأمن غالباً ما تكون لهم الغلبة فى مثل هذه الحالات فتغيب الحقيقة .

هن الدكتور احمد السيد باشا رأسه موافقا وهو يقول :

- نعم . نعم .

تابع بن هارون حديثه ، قال :

- مقتل الجماعات الإسلامية فى الشرق فى تبنيها لسياسة برجماتية فى الساعات الحازمة جريا على سياسات حسن البنا الذى مد جسورا مع الملك عندما بلغت الحركة الوطنية ذروتها ، ولازالت هتافات الإخوان فى الجامعة فى مديح حكومة اسماعيل صدقى باشا وصمة عار فى جبين الحركة ، حيث لجأت الى الابتذال ومديح اسماعيل صدقى بدعوى ان اسمه قد ذكر فى القرآن الكريم يعتبر ..

توقف بن هارون عن الحديث ، فذكر الدكتور أحمد السيد باشا الهتاف الذى رفعه الإخوان فى الجامعة :

- واذكر فى الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا .

الدكتور أحمد السيد باشا يذكر هذه الاحداث وكأنها قد وقعت اليوم ،

عندما رفع الإخوان مصمصطفى مؤمن وهو يردد الآية القرآنية الكريمة دفاعا عن اسماعيل صدقى باشا فى مواجهة المظاهرات المعادية له . حقيقة دفع حسن البنا حياته ثمنا لمعارضة سياسات ابراهيم عبدالهادى باشا بعدها بعدة سنوات ، لكن بعد فوات الأوان فقد تمكن الملك من توجيه ضربات قاضية الى حزب الوفد .

اضاف بن هارون ، قائلا :

- المناورات السياسية والتحالفات السرية من طبيعة العمل السياسى العلنى ، اما الجماعات المثالية اذا لجأت الى المناورة واتباع الوسائل البرجماتية المؤقتة فقد فقدت مصداقيتها واساس وجودها وكان فى مقدور حركة الإخوان ان تضخ دماءً جديدة فى الحياة السياسية فى مصر اذا تمكنت بمثالياتها وتخلت عن رغبتها فى الحكم . لكنها للأسف ربطت نفسها بسياسات البترودولار ، ودخلت الحرب الباردة الى جانب الولايات المتحدة فى مواجهة الاتحاد السوفييتى فى افغانستان . وتعاونت مع السادات فى بداية عهده فى مواجهة المثقفين واليساريين .

بعدها قال بن هارون :

- اخطر الجماعات الإسلامية فى المنطقة برمتها هى جماعة شكري مصطفى بسبب تمسكها بالمثاليات وابتعادها عن البرجماتية ، فهذه الجماعة سوف تفرخ عشرات من الجماعات التى تتخذ الإرهاب وسيلة لتحقيق اهدافها .

سأل الدكتور أحمد السيد باشا ، قال :

- والحل ؟

اجاب بن هارون ، قائلا :

- الدفاع عن ذاكرة الأمة وتاريخها . التصدى لهذه الجماعات فى الشارع المصرى دفاعا عن احلام الشعب وليس دفاعا عن مؤسسة الرئاسة فقط .

هن الدكتور أحمد السيد باشا رأسه متأملا لكنه توقف عن الحديث ، حل



به تعب ، والحديث في هذه المنطقة يعتبر من الأنشطة السياسية التي ينأى  
بنفسه عنها عن عمد ، فاهتماماته فكرية في المقام الأول .

بن هارون يعتبر نفسه تلميذا من تلامذة الدكتور أحمد السيد باشا كما  
ان صداقة جمعته بابنته الراحلة الدكتورة أوديت ورفاقها ، ولم يغب عنه  
عزوف استاذة عن الخوض في قضايا شائكة ، فتوقف عن الحديث على  
الفور ، معتذرا عن هذه الدرشة .

دعا الدكتور أحمد السيد ياشا كرامة سرحان وعائلته الى عشاء فى الفندق بمناسبة انتهاء المحامين من اعداد العقد وتحديد ثمن الصفقة وطريقة الدفع وكذلك بمناسبة خروج زهية هاتم من المستشفى وقد استعادت بعض عاقبتها .

وفى الحقيقة ، رفضت زهية البقاء فى المستشفى وفضلت البقاء فى جناحها فى الفندق ، فشدد الأطباء على ضرورة نومها فى السرير لعدة ايام اخرى ، حتى لا يدهمها التزيف ثانية .

زهية جالسة فى سريرها ، وحولها زوجها ، وكرامة سرحان ، والخال عباس ابوحميده ، ومحمد نجيب وصديقه السويدية ، وقد طلب الياشا عشاء للجميع فى جناحه .

اعد الجرسونات المائدة ، بينما انشغل الجميع فى احاديث عابرة جانبية وقد طلت السياسة عليهم بعد استقالة كرامة سرحان من منصبه ، فالرجل يعرف الكثير مما جرى .

الأميرة جويدان وايبتها ابستت اعتذرتا عن عدم المجيء ، فبعد اول لقاء للأميرة جويدان مع زهية هاتم فى المستشفى ، أحست بالغيرة نحوها ، ولما التقت بـ محمد نجيب لإتفاء الصفقة ، اعجبت به فى البداية ، ثم تحول اعجابها الى دهشة ، وبعدها تحولت الدهشة الى يقين .

غضبت الأميرة جويدان فى البداية ، ثم كتمت غضبها ، واستكانت ، وقد غابت فرحتها ببيع القصر واربعين فدانا ، فبالغت فى قيمة الصفقة .

سألت زهية هاتم كرامة سرحان عن سمو الأميرة وابستت ، وكلفته بنقل تحياتها لهما .

قال كرامة سرحان :

- حاضر .

كان الباشا يوزع اهتماماته على الجميع ، زهية هانم ، كرامة ، محمد نجيب ، والفتاة السويدية الشقراء التي تتحدث العربية بصعوبة وان كانت تفهمها بشكل جيد ، اما الخال عباس ابوحميده ، فكان جالسا وهو اقرب الى الصمت ، يرقب هذا المشهد ، قائلا لنفسه : ربنا يجعل العواقب سليمة .

نشرت صحف الصباح صورا لبعض المتهمين فى احداث اسبوط وقد لمح كرامة بين صور المتهمين صورة رفيق طفولته وصباه رشاد الترجمان فوقع قلبه . قرأ ما كتبه الصحف عن خطورته الى جانب عبود الزمر ، فتعجب . وسأل نفسه : ماذا جرى فى البلد ؟ وماذا جمع الشامى على المغربى ياناس ؟

مال كرامة على خال عباس ، سأل ، قال :

- هل رأيت الصحف اليوم ياخال ؟

أجاب الخال عباس على الفور قائلا :

- نعم . وباليقنى ما رأيتها .

انقطع حبل الحديث بينهما ، وحل صمت عليهما ، وعاد كل منهما يفتش فى دفاتر أيامه ، وتطفو الذكريات متقطعة كشريط فيلم قديم امام اعينهما . صور عزبة عويس ، البدرشين ، نزلة السمان ، الحوامدية ، أبوالنمرس ، الأماكن دون ناس صور جرداء ، مثل كروت الكارت بوستال التى لا قيمة فنية لها ، أما الناس فهم الذين يجعلون للأماكن طعما ورائحة ومشاعر جياشة . رشاد الترجمان زميل دراسة فى المدرسة الابتدائية ، انشغل بالجري وراء الجمال وتسويق العاديات للسياح وتوقف عن الدراسة بعد حصوله على شهادة الثقافة بتفوق . كانت حركة السياحة مضروبة بعد قيام الثورة بسبب العداء الغربى لحركة الجيش ، وانشغل رشاد الترجمان مع اخوته واعمامه واخواله فى تدبير أمور معيشتهم .

لما دبر لى خال عباس وظيفة بثمانية جنيهات مع اليوزباشى شهدى الششتاوى فى هيئة التحرير ، واخذنى معه لجرد قصور العائلة المالكة ، فدخلت الى قصر اللواء عويس من الباب ، وغازلت ابنته الاميرة جويدان ، وعاونتها فى تهريب مجوهراتها بعيدا عن عيون اللجنة ، بعد ان سمح لى حضرة اليوزباشى ان ادخل مخدع نومها بمفردى ، قال لى :  
- سامع ياكرامة . سوف اتركك معها ساعة زمن . انت وشطارتك .

تعلقت بى وكنت منقذها ، ولما رويت ذلك لرفيقى رشاد الترجمان ، نصحنى بالابتعاد عن هذا الرجل : شهدى الششتاوى .

قال لى :

- اين ضميرك ؟ هذا ليس بقشيشا نتحايل لاخذه من سائح او سائحة بمعسول الكلام . هذه خيانة . كما ان مصادرة الاملاك ليست فى شرع الله .

ربطت مصيرى بمصير اليوزباشى شهدى الششتاوى ، فابتعد عنى رشاد الترجمان . خاصمنى . وانشغلت عنه بترديد الهتافات والحماس لحركة الجيش ووضعت نفسى فى خدمة اليوزباشى شهدى الششتاوى ، حتى غر بى ، وجعلنى ، اكتب شكوى فى الدكتور احمد السيد باشا وابنته المرحومة اوديت اتهمهما فيها بخطف زهية من عزبة عويس وحبسها فى قصرهما فى المعادى . وقعت على الشكوى بهذه اليد التى امدها اليوم للدكتور احمد السيد باشا دون خجل . كان ذلك فى أزمة مارس ١٩٥٤ والصراع بين اليكباشى جمال عبدالناصر وكافة القوى السياسية على اشده .

حانت نظرة من كرامة سرحان الى الدكتور احمد السيد باشا ، فخفض رأسه ، وانطوى على نفسه ، وكان الياشا جالسا مرفوع الهامة ، بيتسم . قال كرامة سرحان لنفسه ، الآن وقد مضت الأيام بحلوها وشرها ، لا يهمنى فى هذا المولد كله سوى ابنى ، وقد شغلته عنى هذه الفتاة . كان محمد نجيب مشغولا بالفتاة ، يداعبها ، يقفان ويطلان من النافذة ،

ثم يعودان الى مقعديهما ، وعينا زهية لا تفارقهما فى القيام أو القعود ، اما  
الباشا فقد انشغل بالحديث مع خال عباس ابوجميدة .

كنت أود أن اشخط فى محمد نجيب واطلب منه أن يجلس هادئا ويبتعد  
عن هذه الفتاة ويكف عن وضع يده على شعرها واحاطتها بذراعه ، كأنه  
يتحسس نبضات قلبها . عيب . لكننى رأيت تقسى فى جلستى فوق شجرة  
الجميز ، وكل اعضائى تنتفض ، اذا فتحت نافذة الأميرة جويدان ، ترتعش  
اطراقى ، ويسخن جسدى ، وكانت النافذة تفتح ولا تظل منها الأميرة ، لكن  
العرشة لا تفارقنى .

ابناء الفقراء فرحتهم لا تتم ابدا ، ومتعهم قليلة ، وكنت اكتفى من  
العشق بفتح النافذة ، حتى أصبحت التوافذ المفتوحة تثيرنى وتقربنى الى  
النساء .

ضربنى الباشا مائة جلدة ، ورعتنى زهية ، حتى طابت جروحى دون  
تسمم ، واخذتنى فى حضنتها وهى تبكى ، طابت جروح جسدى ، وبقي  
جرحى الداخلى مفتوحا ينزف .

ولما اخذتها فى العشية ناحية الساقية المهجورة فى الخصى ، كانت  
السماء صافية والنجوم ساطعة مبدورة تضىء ، وأحسست يتوافد الأرض  
كلها مفتوحة فغصت فى داخلها .

غاب عن جنيف ورنت كلمات الموالم تشدو :

يا بهية خبرينى .. ع اللى قتل ياسين

وعد ومكتوب على .. ومسطر عالجين

وأنا كل ما أقول التوبة

ترمينى المقادير .

اللحن فى آذن كرامة ، وأناس عزية عويس فى عيتيه ، هى لحظات من  
الشجن ، من الإحباط ، والمقعد المريح يستد ظهره ، والسجادة التمتية  
تغوص فيها أقدامه ، والهواء المكيف متعش ، كل هذا يشده الى حاضره  
الآنى ويبعد عنه تلك الأيام الحزينة .

المقعد الوثير . السجادة الثمينة . الهواء المكيف : هي أشياء ساكنة لكنها تشده اليها بحبال واربطة متينة ، تجعله يرفض ماضيه ويتنكر له ، ينفى انه وانه وانه .

الأشياء الجامدة تسكنها ارواح . وقد تقمصته روح الأشياء .

سأل الدكتور أحمد السيد باشا الخال عباس ابوحميده ، قال :

- هل تعرف اين رمت المقادير بالرفيق بن هارون ؟

قال عباس ابوحميده :

- اعتقد انه يعيش في باريس .

ضحك الدكتور أحمد السيد باشا ، اكمل :

- كلا يارفيق . صديقنا بن هارون يعيش في جنيف منذ عام ١٩٥٨ ، وقد

التقيته بعد ظهر اليوم . كما هو . عاشق لمصر ومولع بالتحليل السياسي .

ضحك الخال عباس ابوحميده ، قال :

- هذا الرجل اغرق الحركة اليسارية في تحليلات بعضها اثبتت الايام

صحته وبعضها طوته صفحات الايام ، رجل له قدرة فائقة على التنظير

واقامة نسق متكامل من التفاصيل الدقيقة ، وكلما غرق في التفاصيل ،

ابتعد عن الرؤية السليمة ، وخانه ذكاؤه .

نظر الدكتور أحمد السيد باشا الى الناظدة ، وسرح قليلا ، بعدها قال :

- يارفيق ، ماهو سر تشرذم الحركات اليسارية في الوطن العربي ؟

وحبها للانقسام والتوالد ؟

اجاب الرفيق عباس ابوحميده ، قائلا :

- التشرذم لم يكن مقصورا علينا فقط ، انظر الى حزب الوفد الذي خلف

لنا السعديين ، والكتلة الوفدية ، الميل الى التشرذم سمة سائدة في العمل

العربي ، حيث روح القبيلة اقوى من الحزب ، كما أن الطبقات في المجتمع

العربي شديدة التنوع ، فالفقراء طبقات مختلفة ، والأغنياء طبقات

مختلفة ، والمصالح لم تتبلور بعد ، فالجرسونات يدافعون عن مصالح

إصحاب المقاهى ، وتعدد الرؤى والمصالح يؤدي بالضرورة الى انقسامات ، وقد اعجبني رأى للكاتب الناصرى محمد حسنين هيكل قال فيه انه يتوقع استمرار حالة من التشرذم فى العالم العربى حتى عقد التسعينيات الى ان تتبلور مصالح الكتل والطبقات فى المجتمع العربى فى تنظيمات تعبر عنها .

هز الباشا رأسه ، وبعدها ، قال :

- صدقت يارفيق .

تبينت زهية هانم فى جلستها ان كرامة يجلس وحيدا ، وقد انشغل الجميع عنه ، محمد نجيب سرقة مارينا منهم ، والباشا مشغول بالحديث الى الخال عباس أبوحميدة ، فالتفتت الى كرامة ، قالت :

- ياسعادة المستشار ، ماهى مشروعاتك المقبلة بعد الاستقالة ؟

كرامة يعتقد - ومعه حق - ان من يسأله عن ايامه القادمة يورطه ، يتأمر عليه ، فما بالنا اذا كانت زهية صاحبة هذا التساؤل ، انها تقصد بسؤالها معرفة نيته فيما يتعلق بمحمد نجيب وزوجته الاميرة جويدان . نظر اليها وهى راقدة فى سوء نية ، قال لنفسه : النساء كيدهن عظيم حتى بعد ان يفقدن الرحم . طبيعتهن الشريرة تغلب عليهم .

اجاب كرامة ، قال :

- لم أفكر بعد .

تنهدت زهية ، قالت :

- طيب ياابن بلدى .

عرفت ان كرامة لا يزال على ترده ، وتعلقت عينها بمحمد نجيب وبفتاته مارينا السويدية ، قالت لنفسها : مسكين ياابنى . هذا هو الرجل الآخر ، يجلس صامتا مثل ابي الهول . لا شىء يحرك مشاعره ، فيطالب بالضنا ، يقول : هذا ابنى .

زهية لا تعرف على وجه الدقة مقصد الباشا من شراء العزبة والقصر . وقد احجمت عن سؤاله ، فهى لا تود العودة الى المعيشة فى ذلك القصر .

الموحش والذي قطنته في السابق عائلة اللواء عويس - فهذا القصر محل مظالم فظيعة ومن يسكنه تتقمصه الشياطين وتسود أيامه ، وكان حلمها في السابق ان تهد الثورة هذا القصر على ساكنيه ، وتسويه بالأرض .

جاءت الأيام ومضت ، وهاهو عقد بيع القصر أصبح جاهزا ، والمشترى زهية الصفتى ، هدية الباشا لها . ومضى محمد نجيب قائد الثورة ومضى جمال عبدالناصر ، ومضى أنور السادات ، وقالت زهية لنفسها : لتكن أيام حسنى مبارك أفضل .

سأل الخال عباس ابوحميده فجأة ، قال :

- ياباشا . لم ترولى شيئا عن فترة الاعتقال الأخيرة وكيف تلقيتم نبأ مصرع الرئيس السادات ؟

ضحك الباشا ، قال :

- وصل الزنزانة نبأ اطلاق الرصاص على الرئيس السادات قرب الظهيرة ، وكنا فى الزنزانة أربعة ، فؤاد سراج الدين باشا ، ومحمد حسنين هكيل ، والمؤرخ الشاب صلاح عيسى ، وأنا . فخيم علينا الهجوم ، ففى هذه الساعة ، كانت كل الاحتمالات واردة ، والسؤال المعلق على رعوسنا كان ما مصير الرئيس ؟ رفضنا الطعام بطريقة عفوية ، وساد الزنازين الأخرى صمت مفاجيء ، وادركنا ان النبأ قد شاع ، وكان محمد حسنين هيكل هو أول المتحدثين ، قال :

- كان الرجل صديقا لى ، مهما جرى وحصل منه .

وجلس هيكل على البرش صامتا ، وبان عليه حزن عميق .

اكمل الباشا حديثه ، قال :

- لفت نظرى على الفور ، الطريقة التى تحدث بها هكيل ، تحدث وكأن مكروها قد أصاب الرئيس ، وهذه الملاحظة لم تفت فؤاد سراج الدين باشا . طلب فؤاد باشا من صلاح عيسى ، استقصاء تفاصيل الخبر . كان صمت مريب يخيم على الزنازين وردهاات السجن ، وقد توقفت الحركة فى الممرات ، ووقف صلاح عيسى واخذ يدق على الباب دقات خفيفة ، مناديا



العسكري الواقف امام الزنزانة ، ياخال . بعد فترة ، فتحت الطاقة ، وجاء صوت خافت يقول : ذبحوه . واختفى الصوت مرة الثانية ، غاب في الصمت .

اكمل الباشا روايته ، قال :

- سقطت دمعتان وسالتا على خد محمد حسنين هيكل ، أما فؤاد سراج الدين باشا فقد انشغل في قراءة الفاتحة ، وبقي صلاح عيسى واقفا الى جوار الباب لالتقاط أقل نأمة ، بعد حوالى ساعة أو ساعتين ، فالزمن في تلك الساعات ثقيل ، حدث هرج ومرج في بقية الزنازين ، وبعدها انطلقت هتافات "تحيا مصر" . "تحيا مصر" . أعقبها على الفور قراءة لآيات الذكر الحكيم ، فقرأت الفاتحة على روحه ، فقد أصبح في رحاب الله .

· أضاف الباشا قائلا :

- قرب الساعة الخامسة ، فتح الباب ، وهل مأمور السجن وفي صحبته تشريفة ، قال في صوت هادىء : لا شماتة فى الموت ، البقية فى حياتكم ، الرئيس السادات فى رحاب الله ، وطلب منا الهدوء ، واغلقت علينا الزنزانة مرة أخرى .

سأل الباشا ، قال :

- كيف وصلك النبأ يارفيق فى الغربية ؟

اجاب خال عباس ، قائلا :

- جاءنى الرفاق فى براغ ، واخطرونى بخبر اطلاق الرصاص على الرئيس السادات من مسافة قريبة ، وفى الفترة الزمنية التى كان مصير الرئيس فيها مجهولا ، انتابت الجميع مخاوف كثيرة من قيام مذبحة فى المعتقلات تودى بحياة مئات من المناضلين والمفكرين المصريين بدافع الانتقام ، وتكرار مذبحة القلعة الشهيرة .

اكمل الخال عباس قائلا :

- كانت مخاوف الرفاق فى براغ حقيقية ، وبدأنا فى قراءة كشفوف المعتقلين من العمال ، فالسلطة الجريحة ، تلجأ عادة الى الانتقام ، ولم

تهداً مخاوفنا الا بعد التأكد من وفاة الرئيس .

ضحك الدكتور أحمد السيد باشا ، قال :

- يبدو ان المشتغلين بالسياسة لهم حسابات اخرى ، ففي الحقيقة هاجس الانتقام لم يخطر ببالي البتة ، في تلك الساعات الكئيبة ، غير اننى فيما بعد علمت ان الهاجس لم يكن بعيداً عن ذهن رفيقى خاصة فؤاد سراج الدين باشا ومحمد حسنين هكيل ، أما صلاح عيسى ، وأنا ، فشغلنا بمعرفة الأخبار ، وفي الحقيقة ياخال ، لم يبد أحد شماتة فى الرئيس ، وكان الحزن هو الغالب على الجميع .

ضحكت زهية ، قالت :

- يابرودة اعصابكم ايها الرجال ، فور سماع طلقات الرصاص على شاشة التلفزيون وقطع الإرسال ، اخذنا العربية طيارة الى معتقل طرة ، كانت عربات الأمن تحيط بالمعتقل ، ووجدت مجموعة من اقارب المعتقلين وزوجاتهم ، أغمضنا أعيننا وتوقفنا عن الكلام ، واتجهت أذاننا ناحية المعتقل ، لسماع الرصاص الذى سوف ينهمر ليحصد المعتقلين ، لكن الله سلم وستر .

أضاف الدكتور أحمد السيد باشا ، قال :

- فكرة الانتقام على هذا النحو البشع من الخصوم السياسيين لا مجال لها للمشتغل بالقانون ، لهذا لم ترد على بالى مطلقاً ، أما المشتغلون بالسياسة فى مصر فيبدو ان هذا الهاجس لا يفارقهم من واقع تجاربهم المريرة ، ومصرع الرئيس على هذا النحو الفاجع يؤكد هذه القاعدة ، فقد انتقم الخصوم من الرئيس باطلاق النار عليه فى واحدة من اخطر العمليات الانتحارية ، فاصابوه فى مقتل امام شاشات التلفزيون الذى كان يحن اليه ويلجأ اليه فى ساعات الفرح والشدة .

كانت شهية الباشا مفتوحة للكلام بعد مقابلته لصديقه بن هارون ، كما ان خروج زهية من المستشفى اراح باله ، أضاف قائلاً :

- سألت فؤاد باشا سراج الدين ، ومحمد حسنين هيكل بعدها بأيام مستفسرا عن سبب يقينهما من مصرع الرئيس السادات فور تلقى النبأ ،

فابتسم فؤاد باشا وتهرب من اجابتي ، اما محمد حسنين هيكل ، فقال ، كانت الدلائل تشير الى مصرع السادات ، فلو كان فى الرئيس "نفس" بعد اطلاق الرصاص عليه ، لوجه خطابا الى الأمة ، نفس واحد ، يسعفه بالحديث لما فوت هذه الفرصة الثمينة ، ولعل خطاب جمال عبدالناصر بعد حادثة المنشية ، يطفو فى الذاكرة مرة اخرى ، غير ان التاريخ عادة لا يعيد نفسه .

قال محمد حسنين هيكل جملته ، وعيناه فيهما لمعة غريبة ، لمعة تنم عن ذكاء فطرى شديد وثقة فى النفس . ذكاء يوفر لصاحبه النوم هادىء البال بضمير مستريح بعيدا عن مشاغل الصغار والأعيهم . فى هذه اللحظة ، قلت لنفسي كسيف البال : اين محمد حسنين هيكل والدكتور جمال حمدان من صناعة القرار الاستراتيجى ؟ الأول يشاركنى زنزانتي ، والثانى حبيس صومعته كراهب ، وكلاهما تحت الحصار ، اما بقية المثقفين فى غربة مفروضة عليهم فى أرض الله الواسعة . لك الله يا مصر .

هى أحاديث عابرة ، فيها من الإحباط والأسى اكثر مما فيها من التفاؤل والأمل ، والجرسونات فى حركة دائبة لإعداد المأدبة فى الصالون المرفق بالجنح ، وحالة من الترقب تشغل الجميع .

اقتربت مارينا من سعادة المستشار كرامة سرحان ، وتحدثت اليه بالعامية المصرية كبنات البلد ، قالت :  
- ياأبيه تعال معنا الى السويد . والدى رجل صناعة وهوايته تربية الخيول العربية .

ياأبيه .

انتفضت زهية فى جلستها فى الفراش ، وابتسمت عينا الباشا ، وأحس الخال عباس ابوجميدة باقتراب العاصفة .

اكملت مارينا حديثها ، وهى تنظر فى عيني كرامة سرحان ، قالت :  
- اوبسالا مدينة جميلة ، وشتاء شمال السويد ليس فظيحا كما يتصور الناس . تعال معنا ياأبيه .

سأل الباشا ، قال :

- متى السفر يامارينا ؟

أجابت الفتاة ، قالت :

- بعد يومين ياباشا .

كان محمد نجيب يضحك بشدة ، فتاته تخاطب والده كرامة سرحان ،  
قائلة : ياأبيه ، بينما هو يحدثه قائلاً : ياسعادة المستشار .

ادرك خال عباس ابوجميدة ، ان الفتاة تعرف الحكاية من أولها ، وان  
الباشا قد نجح فى احاطة كرامة بشبكة واهية من الخيوط ، شبكة واهية ،  
لكنها متماسكة وكل خيط فيها يسلم الى آخر .

سأل الباشا مارينا ، قال :

- هل تعرفين معنى كلمة ياأبيه ؟

أجابت الفتاة فى جدية شديدة وهى تبتسم ، قالت :

- بنت البلد المؤدبة تنادى والد رجلها بأبيه .

اقتربت مارينا من كرامة سرحان ، وانحنى امامه ، فتساقط شعرها ،  
وتدلى ثدياها وبانا ، نظرت فى عينيه ، وكأنها تهزه بنظراتها ليتحرك ،  
وضعت يدها على ذقنه ، وادارت وجهه قليلا ، وهى تتأمله ، قالت :

الخالق الناطق محمد نجيب ياأبيه .

أجاب كرامة سرحان بكلمات مدغمة : قال :

- نعم . نعم .

تراجعت مارينا فجأة عدة خطوات الى الخلف ، سوت شعرها ، نظرت  
الى زهية هانم فى حسرة ، ومدت يدها الى محمد نجيب ، وسحبته اليها ،  
وسارت به نحو الباب ، قالت :

- ليست بنا شهية الى الطعام ؟

نادت عليها زهية هانم ، خائفة ، قالت :

- مارينا الى اين ؟

اجابت الفتاة ضاحكة ، قالت :  
- الى غرفتنا .

بعدها اضافت الفتاة فى سخرية ، قالت :  
- امامنا اشياء احلى واجمل .

ضربت زهية هانم صدرها بيدها ، بكت ، هاهى الفتاة تخطفه منها دون  
خجل ، التفتت زهية هانم متضرعة الى الباشا ، قالت :  
- ياباشا .

هز الباشا رأسه ، قال :  
- اتركيهما على راحتهما .

هاهو ابنى يسحب فتاته تحت ابطه ويذهب بها الى جناحه أو غرفته فى  
الفندق ليمارس معها لعبة الحب ، والتفت كرامة سرحان ناحية زهية هانم  
فوجدتها تتمتع غاضبة ، وهى تفتنسه بنظراتها ، هاهو الرجل الآخر  
يصمت . نادته الفتاة السويدية بكلمة أبية ، لكنه لم يتحرك ، ظل جامدا فى  
جلسته ، الآخر يلاحقه فى أدق شئون حياته ، يدفعه الى الصمت ، بينما  
عواطفه جياشة ، يود العيش مثل الآخرين ، لكنه الجين .  
ياخسارتك يامصر .

لا يعرف كرامة سرحان على وجه الدقة اذا كانت زهية هانم قد نطقت بها  
أم تلفعت بالصمت ، لكنه سمعها باذنيه ، واحسها بقلبه ، وفهمها بعقله ،  
معها كل الحق ، اذا قالت : ياخسارتك يامصر . وياخسارتك يكرامة  
سرحان السقا .

قال كرامة سرحان لنفسه : من شابه أباه فما ظلم . هاهو ابنى فى غرفته  
يدغدغ لحم الفتاة ويغوص فى شعرها ، وليس بحاجة للجلوس فوق شجرة  
كالقرد ، ونظر الى زهية غاضبا ، قال :  
- هذا ابنك .

اجابته زهية هانم فى هدوء قائلة :  
- نعم . هو ابنى ياسعادة المستشار .

الباشا وعباس ابوحميده انصتا ، طرطقا اذنيهما لمعرفة تطور الحوار بينهما ، لكن الحوار كما بدأ فجأة ، وعلى غفلة ، انتهى ايضا فجأة ودون تعقيب .

غمز الباشا بعينه اليسرى لعباس ابوحميده ، كأنه يقول له :  
- خطتي نجحت .

ومال عباس ابوحميده برأسه وأراحه على كتفه ، فى انتظار كلمة من هنا ، وكلمة من هناك يشتعل بعدها الحوار ساخنا ، عتابا حارا ، فوجه زهية هانم كان ينم عن غضب شديد ، على الرغم من قولها : نعم . هو ابني ياكرامة ، فى لهجة هادئة .

سأل الخال عباس نفسه :  
- هل قالت زهية هانم ياكرامة أم نادته بلقبه ، ياسعادة المستشار ؟  
تحير الخال عباس ، ذاكرته أضحت تخونه ، ولم يعد يدقق فيما يسمعه ، واستبعد ان تكون خاطبته باسمه فى حضرة زوجها .

أكملت زهية هانم حديثها ، قالت :  
- ياكرامة ياابن بلدى . البنية السويدية القادمة من بلاد الشمال الباردة قلبها تحرك ، قالت : ياأبيه .

توقفت زهية هانم عن الحديث عن عمد ، لم تكمل جملتها ، وتركتها ناقصة ، لم ترد تأنيبه أو الاساءة اليه ، حادثته هذه المرة ، وكأنها تخاطب رجلا آخر ، مكملة حديثها :  
- رأيت الموت فى هذه الجراحة . الحياة قصيرة جدا . أنا أحببت ابسنت . هى ابنتى التى لم انجبها . وأنت ...

وتوقفت زهية هانم ، بلعت الكلمات ، غطت وجهها بالوسادة ، وحولت رأسها ناحية الحائط ، غابت عنهم بين دموعها الصامتة .

قام الباشا من جلسته واتجه ناحية كرامة سرحان ، قال :  
- ياسعادة المستشار . خذنى محاميا لك .

وعاد بعدها الى موضعه .

قال كرامة سرحان :

- ياباشا . هو ابنى من زهية هانم . محمد نجيب ابنى . هذه حقيقة .

تدخل الخال عباس ابوحميده فى الحديث ، قال :

- الحمد لله على لم الشمل . واين ؟ فى جنيف . ومتى ؟ بعد ثلاثين

عاما . هذه هى الحياة .

لا يرضى خال عباس ابوحميده ان تتحول الجلسة الى محاكمة لكرامة سرحان ولد عزبة عويس ورأى فى قلب الشيخ الجليل الدكتور أحمد السيد باشا شرا من ناحية كرامة الى جانب حنكة واسعة فقد رسم كل شىء بالمسطرة وكما اراد له تم وكأنه يلعب بمقادير الآخريين .

هذه حكمة الشيوخ الذين خبرتهم الحياة وما حكاية شراء العزبة الا

ستارا واهيا لجمع الشمل ، والتفتت الخال عباس الى كرامة ، قال :

- محمد نجيب شاب امامه مستقبل عظيم .

اجاب كرامة ، قال :

- محمد نجيب ينتسب لى من ناحية الدم ، لكنه تربى فى بيت مجد

وعلم ، هو ابن للباشا ايضا .

قال خال عباس لنفسه ، احسن سعادة المستشار القول ، ونظر الى

الباشا فوجده راضيا ، اما زهية فكانت سعيدة ، واحس خال عباس بواجبه

فى هذه اللحظة ، الواجب الذى كلفه به الباشا فى تلك الرحلة الصباحية

التي اصابته بوجع الكلى مرة أخرى . قال الباشا له :

- مهمتك يارفيق محمد نجيب . كلمة أو كلمتان تلقى بهما على مسامحه

كالقنبلة ، واياك من المبالغة .

هاقد حل دوره ، فماذا يقول وماذا يعيد ؟

جلس الخال عباس صامتا ، يعيد ويزيد الكلمات فى رأسه بعد ان اجاد

الباشا اللعب باوراقه ، وخلص ذمته من ناحية الولد الذى رباه ويعد ان

خلص ذمته من ناحية زهية التي منحته شبابها ورعته في محنته وشيخوخته . هذا رجل نبيل ، شيخ جليل وان كان قلبه ليس صافيا من ناحية كرامة بسبب نذالة في خلقه . الباشا لا يعرف ان ابناء الفقراء تطحنهم تطلعاتهم وتهرس عظامهم هرسا ، وولد عزبة عويس تلقى على ظهره مائة جلدة ، كانت كفيلة بالقضاء عليه .

قال الخال عباس لنفسه في تلك اللحظة : الرحمة قبل العدل يا باشا .

ودور خال عباس الكلام في رأسه : وبعد فترة ، قال :

- الزواج والطلاق يا باشا من سنن الحياة ، الناس قلوب ، شهوات ومطامع ، وكرامة مثل المرحوم والده سرحان السقا ، لم يترك مليحة في العزبة الا وغازلها ، وكانت فضائح والده سرحان السقا على كل لسان في البر ، غير ان كرامة تعلق قلبه بزهية ، الصبية الياقعة ، زينة البنات ، ولم يتركها الا بعد زواجه منها بعقد عرفى ، ولم يستمر زواجهما الا بضعة أشهر ، حملت فيها زهية منه بمحمد نجيب ، ولما قامت الثورة ، طلب منها كرامة اسقاط الحمل ، فرفضت ابنتنا زهية ، وقررت الهرب من العزبة .

كانت زهية هانم تستمع الى الخال عباس ، وهى تخفى وجهها ، تارة بالوسادة ، وتارة بطرف الغطاء ، تدفق الدم فى عروقها ، احمرت وجنتاها وتشابكت فى روحها مشاعر الندم والخجل والغرور أيضا ، ففى داخلها بذرة صلبة تدفعها للدفاع عن لحظتها الآنية ، فقد حصلت على كل شيء بيديها ، انتزعت من الصخور ، ربت ابنها ، وشاركته التعليم ، وحبست شبابها فى صومعة الدكتور أحمد السيد باشا ، بدأت العمل فى القصر كخادمة ثم دادة ثم وصيفة ثم سكرتيرة واخيرا زوجة . وفى كل مرحلة كانت مطالب الجسد تشدها الى اسفل ، عندما كانت خادمة ، كان المكوجى اللعين يداعبها ، يطلبها للزواج ، لكنها قاومت ، ولما دخلت الجامعة لم يسلم جسدها من سهام عيون الطلبة والمعيرين ، ولما التحقت بفصول الغناء فى الأوبرا ، وقع فى غرامها جمع من الفنانين الصاعدين فى عالم الغناء ، اجسادهم فتية ، وارواحهم ملتبهة وكأن نيرانا تمسك بها ، ونفوسهم حائرة حيرتها فى عزبة عويس ، وكانت تطيب جروحهم وكأنها طبيبة روحية .



فى غرفات دار الأوبرا قبل احتراقها عرفت المأساة الإنسانية وضعف قلب الإنسان ، وصعوبة وضعيته فى هذا العالم ، وكانت هزيمة ٦٧ فى قلبها كالعلقم .

ولما احترقت الأوبرا بكت وبكت وتوقفت عن الغناء ، وحانت منها نظرة الى كرامة سرحان ، وجدته هادئاً فى جلسته ، يستمع الى أكاذيب خال عباس ابوحميذة بقلب راض ، ونفس مستريحة ، فقالت لنفسها ، حتى لا تلومه : هذه هى الدبلوماسية .

ياخال عباس ، لماذا ترهق نفسك ؟

كانت نزوة منى ، اخذته فى حضنى برغبتي ، من شدة كراهيتى للواء عويس وزوجته الأميرة شويكار وابنتهما الأميرة جويدان ، كنت تأثرة على وضعيتنا فى العزبة ، عبید ، نضرب بالكراييج ، ونساق كالسائمة ، ولما ضربك اللواء عويس بالكرباج ياكرامة تقطع قلبى ، ربطوك فى شجرة الجميز ، ونادى المنادى ، تأديب كرامة ولد سرحان السقا على يد اللواء عويس . احضر وشوف حفل التأديب . الجلد اصلاح وتهذيب . المرىبى الفاضل ووالد الجميع اللواء عويس ياوران جلالة الملك فاروق يؤدب ولد سرحان السقا لخروجه عن اللياقة وحدود الأدب بالحديث الى الأميرة الصغيرة بنت العز والمجد .

حفل تعذيبك ياكرامة نادى عليه المنادى وباركه فقيه العزبة ، أبوك السقا ، راح فيها ومات ، وانت يابن المدارس يامتعلم تتزوج من الأميرة الصغيرة .

عطفت عليه واخذته فى حضنى واسلمته جسدى ياخال ، لم يكن بيننا عقد زواج عرفى أو شرعى ، نزوة أو ثورة ، ولما حملت ، رفضت اسقاط الجنين ، حملته فى بطنى وهربت ، قلت له :

- لن اطالبك بشيء ياكرامة . انت فى سكة وأنا فى سكة .

لا تطيل ياخال عباس المقدمات ، فكلنا هنا نعرف القصة . أنت والباشا وكرامة وأنا .

نحت زهية الوسادة عنها . جلست فى السرير . تواجههم بنظراتها المتقدة . ليست متهمة وليست فى حاجة كى تتجمل . قالت لنفسها : هذا ابنى وقد اسميته على اسم قائد ثورة يوليو محمد نجيب . مخلصنا من العذاب .

التفت اليها الباشا ، وقد رأى ملامح الغضب على وجهها ، سألها :  
- فيه حاجة ياصفية هانم .

هذا الشيخ الجليل يتابعها بقلبه ويقرأ ما يدور فى رأسها ، يطيب خاطرها فى لحظة ضيقها ، فى تلك اللحظة التى تلحق نيران جهنمية فيها بروحها ، كم هى حلوة مناداته لها فى تلك اللحظة بصفية هانم !! انه يبعد عنها كوابيس الماضى . يناديها باسم والدته . ينتزعها من الغرق فى اللحظة التى تتقطع فيها انفاسها وتشرف على الهلاك .

ابتسمت وبنات الابتسامة فى عينيها ، قالت :  
- تذكرت ياباشا عزيمة عويس . تضايقت . الماضى ليس صفحة أوصفات فى كتاب تاريخ نطويها ونتجاوزها . الماضى موجود فى الحاضر يا حبيبي .

نطقت زهية كلمة حبيبي بكل الحب الذى يمكن ان تحمله امرأة لرجل ، مهما كان يكبرها فى العمر أو فى المقام ، ووقعت الكلمة على أذنى الخال عباس ابوجميدة كالبلسم ، ريح حلوة فى لحظة هجير . رفع رأسه ، وتنفس فى راحة ، وكان منذ مجيئه يحس بالعطش فى فمه ، بسبب مرض السكر ، ففارقه جفاف الحلق والشفيتين .

قال الخال عباس لنفسه : أصيلة وبننت أصول يازهية .

كانت أوامر الباشا ان تعد زجاجات الشمبانيا للاحتفال بتوقيع عقد البيع فى الساعة السابعة مساء ، فور حضور محاميه بن هارون ومعه الأوراق ، وقد أعد الشيكات وفقا لما تم الاتفاق عليه .

ونظر الباشا الى ساعته ، وقد حلت الساعة السابعة ، فهز رأسه راضيا ، وفى تلك اللحظة دق جرس التليفون .

استمع الباشا الى محدثه ، وبعدها قال :  
- لا عليك . كل شيء وارد . نحن فى الانتظار .

وضع الباشا السماعه ، وبعدها قال :  
- هذا يوم ملئ بالمفاجآت .

لم يبين الباشا مقصده ، وكذلك لم يفصح عن شخصية محدثه ، فقال  
خال عباس ، وقد لعب الفأر فى عبه : اللهم اجعل العواقب سليمة .

التفت اليه الباشا ، قال :  
- عندى مفاجأة لك يارفيق عباس ، لن اكشف عنها .

ضحك خال عباس ابوجميدة ، قال :  
- مقبولة مقدما ياباشا .

دقق كرامة سرحان فى ساعة معصمه وقد تجاوزت السابعة بدقائق ،  
أحس بالعطش ، فقام الى البوفيه وتناول كوبا من الماء ، كان فى نيته تناول  
الويسكى ، لكنه كبح جماح رغبته ، فالبوفيه لم يفتح بعد ، وعليه مراعاة  
الأصول .

هو فى حاجة الى شراب قوى يخفف من ضيقه بما يجرى حوله ، شراب  
يسند عوده ويشد عزمه ، فاذا كان الباشا الداهية قد أعد مفاجأة سارة  
للخال عباس فلا بد أنه أعد مفاجأة له هو الآخر ، وقال كرامة لنفسه ،  
وجرعات المياه تنزلق فى جوفه ، مفاجأة سارة أو غير سارة ، أصبحت  
الأمور تتساوى فى نظره ، فات العمر وما تبقى الا أقل القليل .

قال الباشا وكأنه يرد على تساؤلات كرامة سرحان الصامتة ، المحامى  
فى الطريق ، وسوف يفتح البوفيه سعادة المستشار .

اجاب كرامة بطريقة تقليدية ، قال :  
- العفو ياباشا .

أشارت زهية هانم الى الباشا ليقرب منها ، وهمست فى اذنه ببضع  
كلمات ، ضحك على أثرها الباشا ، قال :

- مارينا لن تأكل محمد نجيب .

لكنه توجه الى التلفزيون ، مستجيبا لرغبتها ، ادار القرص ، قال :  
- ايوه يامحمد . البوفيه جاهز . نحن فى الانتظار .

التفت بعدها الى زهية هانم ، قال :

- مارينا تستكمل زينتها وينزلان بعد دقائق .

بانث الراحة على وجه زهية ، استراحت تقاطيعها ، فبان جمال وجهها  
على الرغم من شحوبه قليلا ، قالت :  
- قلب الام ياباشا لا يطاوعها .

كرامة سرحان فى حالة انتظار ، اعتذرت زوجته الاميرة جويدان عن  
الحضور بشكل غير لائق ، ومنعت ابسنت من الحضور أيضا ، وادعت أن  
عمها حمدى بك سوف يصل الى جنيف صباح اليوم ، وهى فى حاجة اليه ،  
فماذا تعد جويدان له من مفاجآت ؟

صفقة بيع القصر لا تشغل كرامة ، اذا تمت مرحبا بها ، واذا تعثرت لن  
يخسر شيئا ، فهذه أموال زوجته وابنته ، اما هو فلا يمتلك فى هذه الدنيا  
الا لقبه ، مستشار سابق .

ماذا يود من محمد نجيب ؟

شاب شق طريقه فى الحياة بمفرده ، وبعد ثلاثين عاما من مولده يأتى  
غريب ليقل له : اسمع أنا أبوك ، فماذا يعنى ذلك كله ؟

وجد القصة سخيفة من أولها الى آخرها ، واشتاق الى كأس من  
الويسكى ليبل ريقه ويرطب حلقه .

الغيرة والعشق ، الميلاد والموت ، هى الحقائق الوحيدة فى هذا العالم ،  
وما عدا ذلك كواييس واحلام ، بعضها محيط وبعضها مفرح .

وصل بن هارون المحامى ، ولا يعرف كرامة لماذا اختار الدكتور أحمد  
السيد باشا هذا الرجل دون غيره من المحامين الكبار الذين تعج بهم مدينة  
جنيف .

وكانت مفاجأة أن لقاء بن هارون بخال عباس كان حارا جدا ومفعما  
بمشاعر إنسانية ، وربما هذه هي مفاجأة الباشا لخال عباس . غرباء  
جمعهم لقاء بعيدا عن الوطن أما هو فكان يعرف بن هارون ، ويكن له مشاعر  
كراهية ، فهذا الرجل الرفيع القصير صاحب النظارات السميقة كالمرايبي  
كان معاديا للرئيس السادات ويكتب في الصحف تحاليل سياسية ضده .  
وكان كرامة في بعض الأحيان يرد عليه ، فتنشر الصحف ردوده ، اما اذا  
كانت هناك ندوة فكان يفضل الغياب عنها ، لأنه ليس في مقدور احد مجاراة  
هذا الرجل في الحديث ، ليس بسبب فصاحته فقط ولكن بسبب اتساع  
علمه ومعرفته بما يدور في الكواليس في الشرق الأوسط .

التفت بن هارون الى زهية هانم ، اغرقها في قبلاته متمنيا لها الشفاء  
العاجل ، ثم تفرغ الى كرامة سرحان ، قال :  
- اهلا سعادة المستشار .

اجابه كرامة سرحان قائلا :

- اهلا مسيو بن هارون .

ادرك خال عباس ان بن هارون على معرفة بكرامة سرحان ولد بلده عزبة  
عويس ، وان بن هارون لن يرحمه ، فقال :  
- سعادة المستشار كرامة سرحان بلدياتى يابن هارون . من عزبة  
عويس .

صمت بن هارون قليلا ، هذه هي المفاجأة التي لم ينتظرها ، فخال  
عباس يدافع عن هذا الرجل ، وقال لنفسه : هذه مصر بلد العجائب .  
طلب الباشا من سعادة المستشار افتتاح البوفيه في اللحظة التي هلت  
فيها مارينا ومحمد نجيب ، فتنازل كرامة سرحان لابنه .

كانت مارينا ترتدى فستان سهرة وتحلى جيدها وصدورها بالمجوهرات  
وقد تركت شعرها الطويل على كتفيها كسبائك الذهب فبدت كفاتنة ساحرة  
وقد زادها طول قامتها جمالا .

رحبت بها زهية هانم ، قبلتها ، وكأنها تخشى عليها من الحسد .

تناول محمد نجيب كأسا من البرتقال ، رفعه فى يده ، قال :  
- فى صحة الجميع .

وأحضرت مارينا لزهية هانم كوبا من عصير الليمون ووقفت الى جوار فراشها ، بينما انغمس الرجال فى حديث صاحب على مقربة من البوفيه .

هذه هى أول مرة تلتفت فيها زهية الى قوام مارينا وجمالها وقد تزينت فبدت كأميرة ساحرة ، بعد ان كانت تراها فى لباس المستشفى الأبيض الواسع او البنطلونات الواسعة التى لا كسم لها .

بدلت الفتاة ملابسها فى غرفة محمد نجيب ، ماذا يعنى ذلك ، وماذا يدور بينهما من وراء ظهرها ، هل انتقلت للإقامة معه فى الفندق ، هكذا ؟

كرامة سرحان السقا مشروبه المفضل الويسكى ، اما بن هارون فقد اكتفى بكأس من الشمبانيا ، بينما عب الخال عباس شيئا من المياه المعدنية ، لمعالجة متاعب الكلى .

أحاديث جانبية فيها طعم الذكريات الحلوة والمرّة ، عشرة عمر جمعت بين الباشا وبن هارون وخال عباس ، يتحدثون وطيف الدكتورّة أوديت لايفارقهم فقد كانت واسطة العقد بين المشتغلين بالسياسة على اختلاف مشاربهم .

سأل الباشا الخال عباس على مسمع من بن هارون ، قال :  
- ما رأيك يارفيق فى نشر مذكرات الدكتورّة أوديت حاليا .

تسأل بن هارون على الفور ، قال :  
- أين هذه المذكرات ؟ يجب نشرها على الفور ، وعدم نشرها خيانة ؟  
لقد كانت المرحومة أبعد نظرا منا جميعا .

توجه الباشا الى المكتب ، وفتح درجا وتناول المذكرات ، قال :  
- هذه النسخة لك .

تناول بن هارون المذكرات ، ووقف متعجبا ، قال :  
- مذكرات الدكتورّة أوديت فى درج مفتوح فى فندق فى جنيف ، هذه المذكرات فى حاجة الى خزينة سرية فى بنك من البنوك .

ضحك الباشا طويلا من مخاوف اليساريين حتى فى الغربية ، قال :  
- اينتى رحلت عن الدنيا فى عام ١٩٥٤ ، لا أحد يذكرها الآن او يهتم  
باقوالها ، لقد رحل أبطال المسرحية ، جمال عبدالناصر ، محمد نجيب ،  
بعض أعضاء مجلس قيادة الثورة ، السادات ، لقد ضاعت أوراق أزمة  
مارس وطوتها صفحات التاريخ الهادرة ، حتى ثورة ١٩٥٢ لم تعد تشغل  
أحدا من الذين قاموا بها ومد الله فى أجلهم .

قال بن هارون ، أسفا :

- معك حق ياباشا . العالم أصبح غير العالم ، نحن ننتسب الى  
الماضى .

وبعدها أضاف بن هارون :

- بعد مصرع السادات ، قررت عدم الانشغال بالقضايا السياسية ،  
اعتزلت السياسة ، وسوف اتفرغ للقانون .

قال الدكتور أحمد السيد باشا لنفسه متمتا :

- الخروج من التاريخ . آخر واجبات الكائن الحى العاقل . لحظة صعبة  
لكنها وجوبية الاداء كما يقول القانونيون . النساء المشتغلات بالفنون هن  
أول من أدرك هذه الحقيقة ، واطلقن عليها كلمة مهذبة ، الاعتزال .

قال بن هارون كسيف البال :

- المأساة ياباشا اننا خرجنا جميعا فى وقت مبكر جدا ونحن فى قمة  
العطاء . حقيقة لا يبقى على المداود غير شر البقر . الطاعون والمجاعات  
هى وحدها التى تجبر الناس على الفرار ، وما جرى فى مصر فى زمن  
السادات يشبه الطاعون ، فرار كجماعى .

بعدها أضاف بن هارون ، قائلا :

- ما نردده هذه الساعة فى جنيف ياباشا ، يردده مئات غيرنا من  
المثقفين المصريين المطرودين ، فى كافة انحاء المعمورة . مقاهى لندن  
وباريس وروما وبرلين تغص بالمصريين ، حتى المدن الصغيرة فى بلدان  
الشمال عرفت المهاجرين المصريين لأسباب سياسية .

أخذ كرامة سرحان يستمع صامتا ، لا يعلق ، وفى بعض الأحيان كان

يهز رأسه موافقا على مضمض .

كان الخال عباس يرقب بن هارون متعجبا ، فالرجل لم يفتر حماسه ، كما انه لم يتغير كثيرا بفعل السنين ، بل ازداد شبابا وحيوية ، وان كانت صلغته قد اتسعت بعد تساقط الشعيرات على جانبي فروة الرأس .

هذا الرجل يحلم بأشياء مستحيلة ، ويبنى خياله على أسس من الواقع ويخرجه نسقا متكاملا ، نسقا فكريا جديرا بالمناقشة والاختلاف - على المستوى النظرى - أما الواقع ، فكان عنيدا دوما ، رافضا لكل ما يقدمه بن هارون .

لم يدل بعد بن هارون بدلوه ، وترقب خال عباس الإفصاح عما يدور فى هذا الرأس المثلى ، بعد ان زادت الغربة خيالا على خيال ، وتقطعت حباله بالواقع المعاش .

وضع بن هارون مذكرات الدكتوراة أوديت فى حقييته ، وتناول منها ملفا وقدمه إلى الباشا ، وقال :

- على العشاء سوف نتحدث فى التفاصيل ياباشا .

وافق الباشا بهزة من رأسه .

اقترب بن هارون بعدها من كرامة سرحان ، وكأنه قد تخلص من الحرج بعد حديثه الى الباشا ، سأله ، قال :

- علمت اليوم من سمو الأميرة جويدان ، انك استقلت من الحكومة . اجابه كرامة بحسن نية ، قال :

- نعم . سوف اتفرغ لأعمالى الخاصة .

ضحك بن هارون ، قال :

- تجارة النفط أم تجارة السلاح !!

النفط خال عباس الخيط ، هل يتاجر ابن عزبة عويس فى السلاح أو النفط ، هل يغرق نفسه فى أموال المافيا ؟ ونظرت زهية ومحمد نجيب اليه فى دهشة .

اجابه كرامة ، قال :

- ذهبت بعيدا جدا يامسيو بن هارون .



قال بن هارون :

- مسيو سرحان له خبرة واسعة فى تجارة النفط وإدارة الصفقات السرية ، وللحقيقة والتاريخ فقد فشلت محاولات الإسرائيليين الأوغاد فى شراء ذمته ، وأفسد خططهم ، وها أنا أقولها بصراحة ، محاولتان جرتا لتصفيته جسديا على يد مايقا البترول ، الأولى بدس السم له فى نيس ، وقد افشلتها مخابرات الاخ الأكبر اى الولايات المتحدة الأمريكية ، والثانية فى حادثة عربية ، وهو فى الطريق الى الغابة السوداء لمقابلة السادات ، وقد أحببتها دوائر حلف الناتو .

كان كرامة سرحان يقف مستمعا وكأن الحديث يخص رجلا آخر . كتفاه عريضان كحائط صلد ، قامته مرفوعة ، وبنيته القوية الفارعة ، تجعله يقف كقلعة متينة البنيان . قلعة غارقة فى الصمت .

صرخت زهية هانم فزعة ، قالت :

- سم وحادثة عربية . ياسعادة المستشار ، ماذا جرى ؟

قال خال عباس مبتسما ، هاهو صديقنا بن هارون ، ولد العباسية الشرقية تأتيه الأنباء من دوائر حلف الناتو والمخابرات الأمريكية مباشرة ، والقتيل ، من ؟ كرامة ولد سرحان السقا ولد عزبة عويس .

حرك الخال عباس كوب الماء فى يده وقربه من فمه ليسد عطشه ، وبعدها سأل ، قال :

- زدنى علما يارفيق . ماذا جرى ؟

قال بن هارون :

- هذه أشياء يعرفها سعادة المستشار .

قال كرامة سرحان مترفعا :

- سوق النفط لها بورصة واسعار النفط معلنة وليست سرا ، ولأن النفط سلعة استراتيجية ، فأسعار التسليم تختلف ، وكل دولة تدير مخزونها من النفط بدقة شديدة ، وتوفر احتياجاتها من السوق الآجلة ، وبعد اتفاقية كامب ديفيد ، وتسليم آبار سيناء النفطية لمصر ، سعت إسرائيل لتأمين احتياجاتها من النفط من مصر وتعهد السادات لهم بذلك لدفع عملية السلام

واتمام الانسحاب ، وتشكلت شركة قطاع خاص ذات طبيعة سرية للنفط فى الخارج تشتترى النفط من الحكومة المصرية لتعيد بيعه الى إسرائيل .  
هذه كلها أشياء معروفة ، وليست سرا ، فقد أدار السادات معركة مترامية الأطراف وعلى جبهات متعددة ، وقال الباشا لنفسه ، سعادة المستشار ، يفضل الصمت على البوح .

أحس كرامة سرحان بالعيون ترقبه ، بفضولهم ، قال موضحا :  
- سوق النفط متشعب ، له علاقة بالناقلات العملاقة ، والبنوك ، ومكاتب سمسرة ، وشركات تأمين ، ووسطاء ، وكذلك بقرارات دولية ، وبالأحوال الجوية أيضا ، فالتنبؤات الجوية تلعب دورا كبيرا فى المراهنة على السعر ، والتلاعب يتم فى بيع المعلومات ، والبيوع الآجلة ، وتوفير الحاجات العاجلة ، جنوب افريقيا مثلا فى حاجة الى كميات اضافية من النفط توفرها من السوق السوداء بعيدا عن قرارات المقاطعة الدولية .  
تحدث كرامة سرحان عن النفط وسوقه ولم يتحدث عن دوره .

زهية هانم أصبحت قلقة على كرامة سرحان وعلى ابنها أيضا . سم .  
حوادث عربيات . هذه غابة .

دعا الباشا الجميع الى المأدبة فى الغربية الملحقة ، قال لهم ، الحديث ذو شجون ، وسوف نستكمله .

كانت الأماكن مرتبة وعليها الأسماء ، غير أن تخلف الأميرة جويدان وابنتها ابسنت ، وقرآغ مقعديهما ، سمح للأخرين بالتجاوز ، جلس خال عباس الى جوار بن هارون ، وجلست مارينا الى جانب كرامة سرحان ، أما صفية هانم فقد تدهرت بالروب ، وجلست بين ابنها وزوجها فى مواجهة كرامة سرحان .

دارت الأطباق ، وفتحت زجاجات نبيذ من افخر الأنواع وأعنفها وكان الجرسونات فى ملابسهم الزاهية يرحبون بالضيوف وبعد الانتهاء من الطبق الاول ، وبردشة سريعة ، قال بن هارون موجها الحديث الى الباشا :  
- رفضت الأميرة جويدان توقيع العقد . تراجعت عن البيع . حضرت الى مكتبى ومعها عمها حمدى بك ومحاميه . واعربا عن استعدادهما لدفع

تعويض معقول عن تراجعهما عن الصفقة .

توقف كرامة سرحان عن المضغ ، عملتها الاميرة جويدان من وراء ظهره ، استمعت الى نصيحة عمها حمدي بك ، وصل حمدي بك الى جنيف صباح اليوم ، فغيرت جويدان رأيها بعد الظهر .

لا يضايق كرامة عدم بيع العزبة ، يضايقه فقط ان زوجته اتخذت قرارها دون الحديث معه أو اخطاره ، ليعلم بالخبر على العشاء الذي اقيم احتفالا بياتمام الصفقة .

قال الباشا متوجها بالحديث الى بن هارون :

- انتى اتفهم دوافع سمو الاميرة واقدرها ولست فى حاجة الى تنفيذ الشرط الجزائى ، أو الى تعويض مادى . اخطر سمو الاميرة غدا برأىي .

بعدها التفت الباشا الى كرامة سرحان معتذرا ، قال :

- ليس لنا حظ ياسعادة المستشار فى دخول عزبة عويس .

كان الخال عباس يتابع الحديث ضاحكا ، فقد كانت تساوره الشكوك حول هذه الصفقة الغريبة ، قال لنفسه : هذه شبكة من الخيوط حاكها الباشا ليفرق فيها كرامة ويلم شمل الجميع .

تابع بن هارون حديثه ، قال :

- حمدي بك وضع خطة لتقسيم الارض واقامة فيلات عليها ، ووصف مشروعه بأنه اكبر مشروع استثمارى فى مجال البناء والتشييد ، واسماه مشروع تقسيم اراضى اللواء عويس .

قال الخال عباس متاففا :

- هذه اراض من اجود الاراضى الزراعية ، افنى اللواء عويس عمره فى زيادة غلتها ، كان يمر عليها يوميا ، يتحسس ترابها ويشمه ، يقبض عليه فى كفه ويقبله ، ويقول عطر تراب وطنى عزبة عويس ، ينافس عطور باريس .

ضرب خال عباس كفا بكف ، قال :

- وأخرة المتممة تدق عواميد الحديث فى هذه الارض ، وتقام الالواح

الأسمنتية عليها ، هذا خراب ، هذه ارض تنتج الخضار والموالح طوال العام ، وبها اشجار مانجو .

بعدها مال خال عباس براسه ناحية الباشا ، سآله ، قال :  
- وماذا كانت النية من شراء القصر والعزم من شراء اربعين فداناً ؟

تردد الباشا لحظة فى الحديث ، بعدها ، قال :  
- كنت اطمع فى تطوير الارض وادخال وسائل الزراعة الحديثة وتدريب  
طلبة المعهد عليها .

نسى خال عباس حكاية كرامة سريخان والاميرة ومحمد نجيب والتفت  
الى الارض التى سوف تجرف لتدق فيها خوازيق وتفرش بحصيرة  
المسلح ، تقمصته روح الفلاح فى زهوتها وقوتها ، وهو الذى امضى حياته  
فى عزبة عويس بفلح ويزرع خمسة فدانين امكن انقاذاها بشق النفس من  
عائلة عويس باشا اذ عرج واولاده ، وضاع نبيها اخوال واعمام ، وجده هو  
الذى اطلق النار على الاميرالاي عويس الكبير فاصابه بالعرج ، ورفع خال  
عباس يده ، واخذ يسوى كم الجاكيت وكأته يسوى كم الجلباب الواسع ،  
قال فى حدة :

- هذه ارض زراعية ، خارج كردون مدينة الجيزة ، ولا يجوز تقسيمها  
للبناء .

ضحك بن هارون ، وقال :

- السمكة تفسد من رأسها ياخال ..

بن هارون ، نادى على عباس ابوحميده ، قال ، ياخال ، وليس يارفيق ،  
ليحادثه كفلاح ، ويخفف من حدة ثورته ، ويخرجه من همومه ، أكمل قائلاً :  
- حمدى بك اعد نفسه ، اطلعنى على اوراق التقسيم وموافقة المحافظ  
والسلطات الإدارية ، حتى مصلحة الآثار ، والتقسيم لا يشمل اربعين  
فداناً ، ولكن العزبة باكملها ، وعلى عدة سنوات ، حوالى عشر سنوات .

كان الباشا يتابع الحديث فى صمت . تنازل عن شراء الصفقة عن طيب  
خاطر ، وانتقلت القضية الآن الى عباس ابوحميده ، أصبحت تهمة ، فهذه  
حياته ، فعباس ابوحميده ، عمل فى اوساط العمال فى الحركة اليسارية ،

لكنه لم يتنكر لأصله ، كفلاح .

عباس ابوحميدة يعرف ارض عزبة عويس حوضا حوضا ، ويعرف تاريخها ، ويعود به الى الخديوى اسماعيل عندما سهل للاميرالاي عويس الكبير وضع يده على هذه الأرض ، بعد ان حل خراب بها فى عهد محمد على باشا .

قصرت عائلة ابوجبل الشر ، وتساهلت مع الغزاة الجدد ، أما عائلة ابوحميدة فقد رفضت المساومة ، جيلا بعد جيل ، واحتفظت بنتف من الأرض بشق النفس ، وعرف عباس ابوحميدة فى وقت مبكر ، ان معركته ليست فى عزبة عويس ، ولكن هناك فى القاهرة ، فعمل بالسياسة .

فجأة تخلى كرامة سرحان عن صمته ، قال :

- يبدو ان عزبة عويس عليها العين منذ حركة الجيش .

تابع كرامة حديثه ، متوجها به الى عباس ابو حميدة ، قال :

- فى عام ٥٣ ، عند جرد املاك اللواء عويس والامراء ، دخل القصر حضرة اليوزباشى شهدى الششتاوى ، كرئيس للجنة الجرد ، وكنت واحدا منها ، حلم حياته كان منح القصر للرئيس جمال عبدالناصر ، وبناء مساكن للضباط فى المنطقة .

ضحك خال عباس ، قال :

- ذكرتنى ياسعادة المستشار . اليوزباشى شهدى الششتاوى ، أنا لم أره منذ مارس ٥٤ ، فقد طرده جمال عبدالناصر من الجيش ومن الحياة السياسية بأكملها ، وعرفت انه عمل بالتجارة فى عهد السادات ، تجارة على واسع ، استيراد معدات هندسة وعسكرية .

بن هاون يتابع الحديث بأذان مفتوحة ، وبعدها سأل :

- اليس ذلك الرجل هو الذى نظم اضطرابات العمال فى سنة ١٩٥٤ ،

فحسم الصراع لصالح جمال عبدالناصر ضد محمد نجيب .

ضحك الخال عباس ابوحميدة ، وهو يتذكر تلك الأيام ، قال :

- فرض على اليوزباشى شهدى الششتاوى رقابة أربعة وعشرين ساعة ، وكنت وقتها متخفيا فى شقة صغيرة فى المنيرة ، ووصلتنا رسالة من الرئيس جمال عبدالناصر باجراء مشاورات حول الأزمة ، وبعدها كان

مفاوضى هذا الرجل شهيدى الششتاوى ، وبإله من رجل ، يتحسس مسدسه عند سماع كلمة ديموقراطية أو حرية ، فرفضت الحديث اليه ، وقطعت المفاوضات ، وطلب جمال عبدالناصر بعدها ، ان تكون صلتى بمساعده ، اليوزباشى أنور عرفة .

جرح الباشا لم يندمل بعد تماما ، خفت حدة الآلام ، وزادت المرارة ، بفعل السنين ، وتأمل مسارات الأحداث ، ما يرويه عباس أبوحميدة فى بساطة ، ودعة ، سطرته ابنته أوديت فى مذكراتها بدمها ، باعصاب مشتعلة ، وفكر متقد ، ورؤية أثبتت الأيام صحة معظمها ، ووجدت نفسها سائرة ضد تيار الأحداث ، رفضت العلاج ، بعد الحادثة ، ومضت .  
رفضت الحياة وهى طبيعية .

كل ما يدور حوله على العشاء يذكره بالماضى ، تنويعات على لحن واحد ، وقاوم الباشا الاسترسال لخواطره ، التقت الى ضيوفه ، برهة ، دقائق معدودة ، بعدها هزمته خواطره ، دهمته بقوة ، قال :  
- اليوزباشى شهيدى الششتاوى هو قاتل ابنتى الدكتورة أوديت .

نظرت اليه زهية هانم فى تضرع ان يكبح جماح عواطفه ، فتلك قضية سياسية ضاعت اصابيرها فى ظل احداث جسام ، وقيدت ضد مجهول ، فبعد منتصف ليلة تعيسة صدمت عربة جيش مسرعة سيارة الدكتورة أوديت ، ونزلت الدكتورة من سيارتها سليمة ، وقادت السيارة بعدها الى البيت .

بعد فترة صمت ، قال بن هارون :  
- اليوزباشى شهيدى الششتاوى هنا فى الفندق . فى غرفة ٦٠١ .  
صمت بن هارون ، وانشغل بتقطيع قطعة لحم ، وقبل ان يدس الشوكة فيها ليرفعها الى فمه ، اكمل حديثه ، قال :  
- جاء فى صحبة حمدى بك لإتمام صفقات لم يفصح عنها .

هذه ليست جريمة عادية ، فالقاتل فى الفندق ، ومذكرات القتيلة فى درج مفتوح ، وما جرى مضى عليه اكثر من ربع قرن من الزمان ، وسقط بالتقادم .

تمالك الباشا ، تماسك ، سيطر على مخاوفه وهواجسه ، قال لنفسه : كم من المنتصرين في حلبة التاريخ ، كانت المشانق أحق بهم من أقواس النصر ؟

ابتعد طوال حياته العملية عن السياسة ، وشق طريقا مخالفا لرفيق الدراسة الدكتور محمد حسنين هيكل ، وهامى السياسة تتابعه حتى آخر العمر .

التفت الباشا الى رفيق ابنته عباس ابوحميده ، يطمئن عليه ، سأل :  
- متى العودة الى القاهرة يارفيق ؟

أجاب عباس أبوحميده ، فى ثقة ، فطريقه أصبح واضحا ، وقد صح عزمه وخلصت نيته ، قال :

- السفر الى براغ لإنهاء عملى هناك ، والعودة الى القاهرة ، لإنقاذ عزبة عويس حتى لا يقع لها ما وقع لمنطقة الهرم .

هز الباشا رأسه راضيا ، ابتسم ، وجد عباس ابوحميده لنفسه معركة يشغل بها سنواته القادمة ، وأحس بصفاء الذهن ، حرك قطع اللحم فى الطبق ، كأنه يعبث بها ، قال :

- وصيتى نشر مذكرات ابنتى .

قالت زهية هانم شيئا ، وطوح الباشا رأسه على كتفه ، صرخ عباس ابوحميده وكان يجلس فى مقابله : ياباشا . ياباشا . ياباشا .

خرج السر الإلهى فى غمضة عين .

- انتهت -

---

رقم الإيداع : ١٩٩٤/٧٩١

I.S.B.N

977 - 07 - 7514 - 8

---